كتاب

إيمّا رييس

بريد الذكريات

ترجمها عن الإسبانيّة **مارك جمال**



إيما رييس

بريد الذكريات

سيرة

التنوير دار التنوير للنشر و التوزيع

دار التنوير تقدم أعز شكر وعرفان لسفير كولومبيا إلى مصر

سعادة السفير الأستاذ ألفونسو سوريا مندوثا

على دعمه لنشر هذا الكتاب

Dar Altanweer wishes to cordially extend its gratitude to

,His Excellency Alfonso Soria Mendoza

Ambassador of Colombia to Egypt

for his support of the publication of this .book

مُقدِّمة

«إن وجود هذا الكتاب في حدّ ذاته أمر استثنائي. وكل ما يتعلَّق به مذهِل، ابتداءً من خلفية المؤلِّفة [...] وصولًا إلى مقدرتها على كتابة هذه الرسائل البديعة المؤثِّرة، وعلى المراسَلة طوال عقود، وهي التي لم تتلقَّ أي تعليم رسمي، فضلًا عن نجاة المخطوط ونشره في كولومبيا أخيرًا». بهذه الكلمات يستعرض الروائي البيروفي دانييل ألاركون رسائل إيمَّا ريبيس، الفنانة المولودة في العاصمة الكولومبية بوغوتا سنة 1919، والتي تحكي فيها ذكريات الطفولة والصبا، منذ فتحَت عينَيها فوجدَت نفسها تعيش في فقر طاحن، مع امرأة لا تعرف أي صلة تجمعها بها على وجه التحديد، في حجرة رثَّة خالية من النوافذ، مرورًا برحلتها إلى بعض القرى الكولومبية، ثم التحاقها بالعمل في مشغل تطريز تابع لدير راهبات، وانتهاءً برحيلها عنه.

غادرَت إيمَّا الدير وهي في الثامنة عشرة من العمر تقريبًا، لا تجيد القراءة ولا الكتابة، ولا تملك من الخبرة أكثر مما تعلَّمَت في مشغل التطريز. ومع ذلك، بدأت رحلة طويلة عَبر شتَّى بلدان أمريكا الجنوبية، رحلة قطعَتها سيرًا على القدمَين، وبالحافلة، وبالقطار، وكيفما اتَّفق، حتى وصلَت إلى الأرجنتين سنة 1943. عند ذاك بدأت ترسم، وحصلَت على منحة دولية للدراسة في باريس. غير أنها لم تقدر على تحمُّل تكاليف الرحلة، فعرضَت أن تزيِّن جدران السفينة بالرسوم وهي في

طريقها عَبْر المحيط الأطلنطي نظير ثمن الرحلة. وفي باريس، سطع نجمها وصارت فنانة تشكيلية ذائعة الصيت، على اتصال بنخبة المُثقَّفين والمُفكِّرين من أمثال الفيلسوف جان بول سارتر والكاتب ألبرتو مورافيا والمخرج والشاعر بيير باولو بازوليني، وغيرهم الكثيرين. كما اقترن بها لقب «الأم الكبيرة» (ماما غراندي)، ذلك الذي أطلقه عليها الفنانون الكولومبيون ممن شملَتهم برعايتها ودعمها حتى رحلَت عن عالمنا سنة 2003 في مدينة بوردو. والحديث عن فنها وحياتها الحافلة أطول مما يتَّسع له المجال.

عُرِفَت إيمًا ببراعتها في سرد الحكايات المدهشة، ولا سيما عن طفولتها. فألحَّ الكثيرون عليها لتكتب مُذكَّراتها، ومن بينهم المُؤرِّخ والناقد الكولومبي خيرمان أرسينييغاس (1900 - 1999) الذي تعرَّفَت به في أربعينيات القرن الماضي، لتنشأ بينهما صداقة وثيقة. بَيد أنها كانت تقابل طلب أصدقائها بالرفض وتحتجُّ بأن ترتيب الخواطر مهمة تشقُّ عليها كثيرًا. فاقترح خيرمان عليها أن تحكي له طفولتها في رسائل. وقد كان. إذ تراسل الصديقان على مدى سنوات، ابتداءً من سنة 1967. وقد افتتن خيرمان برسائلها إلى حدٍّ جعله يُطلِع غابرييل غارسيا ماركيز على فحواها، في لقاء جمعه بالروائي الكولومبي الأشهر خلال السبعينيات، فقرأها صاحب نوبل بدهشة وحماسة جارفتَين، وسرعان ما أجرى اتصالًا هاتفيًا بإيمًا أعرب لها فيه عن مدى إعجابه

بكتاباتها. فما كان منها إلَّا أن غضبَت من صديقها خيرمان بشدة، اعتقادًا منها أن الأخير قد خرق اتفاق الخصوصية الضمني القائم بينهما، ولم تكتب له حرفًا واحدًا لما يزيد على عشرين عامًا، غير أنهما استأنفا المراسلة في أواخر القرن الماضي. وفي تلك الأثناء، تمكَّن خيرمان من إقناعها بأن تسمح بنشر الرسائل بعد وفاتها. وجدير بالذكر أنها قد أوصَت برصد عائدات هذا الكتاب لدار أيتام كولومبية تُدعَى سان ماوريسيو.

صدر هذا الكتاب لأول مرة سنة 2012، حيث قُوبِل بحفاوة القُرَّاء والنقَّاد معًا، كما اختِير كتاب العام في كولومبيا، وتُرجِم إلى عدد كبير من اللغات. ولعلَّ البراءة التي بها ترسم إيمًا مشاهد طفولتها هي السمة التي تجعل رسائلها على هذا القدر من الاستثنائية، ذلك أنها ما زالت ترى بعينَيِ الصغيرة التي كانتها، بكل ما فيها من دهشة وعفوية. فنجدها، على سبيل المثال، تحكي قصة ميلاد يسوع المسيح التي قرأتها عليها إحدى راهبات الدير، ولكن من منظور طفلة لم يتجاوز عمرها بضعة أعوام، فتقول: «ذات يوم روَت لنا حكاية الطفل الذي يُدعَى يسوع، وأمه التي تُدعَى مريم [...] لم يكُن لهما بيت يسكنان فيه، ولذا اضطرَّ الطفل يسوع إلى الميلاد في بيتٍ يملكه حمارٌ وبقرة». أو نراها تتحدَّث عن بعثات التبشير الإسبانية في أمريكا اللاتينية بقولها: «وأولئك السادة القادمون من إسبانيا هم الذين جلبوا إلينا الرَّب ومريم وسائر القديسين». وفي هذا الصدد،

يقول الصحافي الكولومبي كاميلو خيمينيس عن رسائل إيمًا: «إن أعظم سماتها يكمن في دقَّتها ومقدار التفاصيل التي اشتملَت عليها، ولا سيما في نظرة المُؤلِّفة التي تكتب في الكِبَر، رغم أن المُتكلِّمة في هذه السطور هي الطفلة الصغيرة [...] تلك التي ترى الأمور دومًا من منظور اللحظة التي وقعَت فيها».

وأخيرًا لا يسعنا غير الاستشهاد بكلمات المُؤرِّخ مالكوم دياس الواردة في مُقدِّمة النسخة الإسبانية: «إليكم مُلخَّص هذا الكتاب، بَيد أنه لا يعطي القارئ فكرة عما يتَّسم به من جودة، ولا يجرؤ على تعداد المشاهد الاستثنائية التي يسردها، مشاهد سوف تبقى في أذهان القُرَّاء جميعًا، بلا أدنى شك».

المترجم

الرسالة الأولى

عزيزي خيرمان،

في الثانية عشرة من ظهر اليوم رحل الجنرال شارل دي جول عن قصر الإليزيه[1]، وليس له من المتاع سوى أحد عشر مليونًا وتسعمئة وثلاثة وأربعين ألفًا ومئتين وثلاثة وثلاثين صوتًا بـ«لا»، أدلى بها أحد عشر مليونًا وتسعمئة وثلاثة وأربعون ألفًا ومئتان وثلاثة وثلاثون فرنسيًا أعربوا عن رفضهم له.

أما المشاعر المختلطة التي أثارها الخبر في نفوسنا، فقد أعادت إلى ذهني أبعد ذكريات الطفولة، على نحو يدعو إلى الفضول.

كان البيت الذي عشنا فيه مُؤلَّفًا من حجرة وحيدة، صغيرة للغاية، خالية من النوافذ، ولها باب وحيد يطلُّ على الشارع. كانت تلك الحجرة تقع في الجادة السابعة، في حي شعبي من أحياء مدينة بوغوتا[2]، ويُدعَى سان كريستوفر. كان الترام يمرُّ من أمام البيت ويقف على بعد أمتار، قرب مصنع بيرة ليونا پورا وليونا أوسكورا. في تلك الحجرة عِشتُ وأختي إيلينا، وطفل لم أعرف له اسمًا قط، كُنَّا ندعوه القَمْلَة، وسيدة لا تتمثَّل في ذاكرتي سوى على هيئة لبدة هائلة من الشعر الأسود الذي يكسوها كليًا، فكنتُ أصرخ من فرط الخوف إن هي حلَّت شعرها وأختبئ تحت الفراش الوحيد.

كانت حياتنا تجري في الشارع، حيث يتعيَّن عليَّ الذهاب إلى مكبِّ النفايات الواقع خلف المصنع صبيحة

كل يوم لإفراغ المبولة المُتنقِّلة التي نستخدمها جميعًا طوال الليل. كانت مبولة ضخمة بيضاء مطلية بالمينا، وإن لم يبقَ عليها من المينا سوى أقل القليل. ما كان يمرُّ يوم إلَّا وامتلأت المبولة عن آخرها، أما الروائح المنبعثة منها فكانت كريهة للغاية، حتى إنني كثيرًا ما كنتُ أفرغ ما في جوفي على المبولة. خلَت حجرتنا من الإضاءة الكهربائية والمرحاض، فلم يكُن عندنا مرحاض سوى تلك المبولة المُتنقِّلة، فيها نقضي حاجتنا، كبيرها وصغيرها، سائلها وصلبها. أما رَوْحَاتي إلى مكبِّ النفايات مُحمَّلةً بالمبولة الطافحة بمحتوياتها، فكانت هي اللحظات الأشدَ مرارة على مدى اليوم، حيث أضطَرَ إلى السير بأنفاس شبه مكتومة، وعينَيْن شاخصتَيْن إلى «الكاكا»، أتابع إيقاع حركاتها وقد استحوذ عليَّ الرعب خشية أن تنسكب قبل وصولي، تترتَّب عليه عواقب مُروِّعة. فكنتُ أتشبَّث بالمبولة بقوة وكأني أحمل شيئًا نفيسًا. وكانت ثقيلة للغاية، تنوء قواي بحملها. أما أختي، فكان عليها الذهاب إلى الصنبور لجلب الماء الذي نحتاج إليه على مدى اليوم، لأنها تكبرني عمرًا، في حين يُحضِر القملةُ الفحمَ ويتخلَّص من الرماد. ولذا لم يكُن في وسعهما أن يساعداني على حمل المبولة، لأنَ كلًا منهما يذهب في اتجاه آخر. ولكن بمُجرَّد إفراغ المبولة في مكبِّ النفايات، تحين اللحظة الأسعد على مدار اليوم. كان جميع أطفال الحي يقضون نهارهم هناك، حيث يلعبون، ويتصايحون، ويطوفون حول جبل من

الطين، ويتبادلون السباب، ويتشاجرون، ويتمرَّغون في بِرَكٍ من الوحل، وبأيديهم ينقِّبون في كل أنواع النفايات بحثًا عما كُنَّا ندعوه الكنوز، وأعني: صفائح الأطعمة المحفوظة التي نعزف عليها الموسيقى، والأحذية العتيقة، وقطع الأسلاك، والمطاط، والعصيّ، والثياب العتيقة. كانت تلك صالتنا المُخصَّصة للألعاب، حيث كل شيء يستأثر باهتمامنا. لم يكُن في وسعي اللعب كثيرًا لأني الأصغر عمرًا، ولأن الكبار لم يريدوني معهم. لم يكُن لي من صديق سوى الأعرج، رغم أنه يكبرني عمرًا هو الآخر. كان الأعرج قد فقد إحدى قدمَيه كليًا تحت عجلات الترام فيما هو يلعب ويضع أغطية زجاجات بيرة ليونا على قضبان الترام لتصبح أشبه بالعملات المعدنية. كان يسير على قدمه الوحيدة، حافيًا شأن الجميع، ويثب وثبات خارقة مُتَّكئًا على عصاه. لم يكُن أحد يقدر على اللحاق به إن هو انطلق راكضًا.

لطالما انتظرني الأعرج عند مدخل مكبِّ النفايات ريثما أفرغ المبولة وأنظِّفها سريعًا بالحشائش أو الأوراق القديمة، ثم أواريها عن الأعين في التجويف نفسه دائمًا، خلف شجرة كافور. ذات يوم لم يُرِد الأعرج أن يلعب لأنه كان يشعر بمغص في المعدة، فجلسنا عند سفح المنحدر نراقب الآخرين وهم يلعبون. كان الطين رطبًا، فرحتُ أصنع منه دمية. كان الأعرج يرتدي البنطال نفسه على الدوام، بنطاله الوحيد، المشدود حول خصره بشريط، والذي كان أكبر من مقاسه بثلاث مرات. وفي

جيوب ذلك البنطال كان يخفي كل شيء: الأحجار، والنحل الدوَّار، والحبال، والكُرَيَات الزجاجية، وقطعةً من نصل سكين لا مقبض له. فرغث من صنع دمية الطين، فأخذها واستلَ سكينه المشطور ليصنع بطرفه تجويفَين هما العينان، وتجويفًا أكبر حجمًا هو الفم. ولكنه ما كاد يفرغ من ذلك حتى قال لي:

- هذه الدمية صغيرة جدًا، هيًا نجعلها أكبر حجمًا.

فجعلناها أكبر حجمًا، ورحنا نضيف إلى الدمية المزيد والمزيد من الوحل.

وفي اليوم التالي عدنا لنجد الدمية ملقاة على الأرض حيث تركناها، فقال الأعرج:

- هيًا نجعلها أكبر حجمًا.

ثم أتى آخرون وقالوا:

- هيًا نجعلها أكبر حجمًا.

وعثر أحدهم على لوح عتيق ضخم، هائل الضخامة، فقرَّرنا أن نجعل الدمية في ضخامة اللوح، وبذلك يتيسَّر لنا نقلها فوق اللوح، وحملها في مواكب. على مدى أيام رحنا نضيف إلى الدمية المزيد والمزيد من الوحل حتى صارت في ضخامة اللوح. عند ذاك اتَّخذنا قرارًا بأن نطلق عليها اسمًا، فسمَينا‌ها الجنرال ريبويّو. لا أدري كيف ولماذا وقع اختيارنا على ذلك الاسم. على كل حال، فقد أصبح الجنرال ريبويّو عندنا بمثابة الرَّب. كنَّا نخلع عليه كل ما نجد في مكبِّ النفايات من الثياب. وانتهت القفزات والسباقات والحروب. فأصبح الجنرال

ريبويَو محور ألعابنا جميعًا. وبطبيعة الحال، كان الجنرال ريبويَو هو الشخصية الرئيسية في كل ما تفتَّقَت عنه أذهاننا من ابتكارات. على مدى أيام وأيام عشنا حول اللوح الذي استقرّ فوقه الجنرال ريبويَو، فكنَّا نسند إليه أدوارًا طيبة حينًا، وشريرة حينًا، وإن كان في معظم الأوقات كائنًا سحريًا مفعمًا بالقدرة. هكذا مرَّت أيام كثيرة، وآحاد كثيرة، تلك الآحاد التي كنت أعتبرها شرَ أيام الأسبوع. إذ كنتُ أُترَك وحدي كلَّ يوم أحد، من ساعة الظهيرة وحتى يحلَ الليل، فأبقى هناك وباب حجرتنا الوحيدة مُقفَل دوني، حيث لا يصلني من الضوء غير ما يتسلَّل عبر الشقوق وثقب المفتاح الضخم. كنتُ أقضي ساعات وعيني مُلصَقة بثقب المفتاح كي أرى ما يجري في الشارع وأطرد الخوف عن نفسي. غالبًا ما كانت السيدة ذات الشعر المُرسَل تعود برفقة إيلينا والقملة ليجدوني وقد غلبني النعاس على الباب، وأدركني الإعياء من فرط ما نظرت عَبْر ثقب المفتاح ومن فرط ما حلمت بالجنرال ريبويَو.

بعد أن ألهمنا الجنرال ريبويَو ألف لعبة ولعبة، بدأ يفقد المكانة التي شغلها بوصفه البطل شيئًا فشيئًا، إذ لم تجد مُخيَّلتنا المتناهية الصِّغَر المزيدَ من الإلهام في حضوره، وأخذَت أعداد الراغبين في اللعب معه تتناقص يومًا بعد يوم. بدأ الجنرال ريبويَو يقضي ساعات طوالًا من العزلة، أما الزينة التي كنَّا نزيِّنه بها فلم يعُد هنالك من يُجدِّدها. حتى جاء يوم قام فيه الأعرج، الذي كان لا

يزال أوفى أتباع الجنرال، واعتلى صندوقًا عتيقًا ثم قرع ثلاث مرات بعصا مُرتجَلة وصرخ بصوت حاد مُتهدِّج من فرط الانفعال:

- لقد مات الجنرال ريبويَو!!!

في مثل تلك الظروف يُولَد المرء عارفًا معنى الجوع والبرد والموت. برؤوس مطأطأة وعيون ملؤها الدموع، رحنا نقترب من الجنرال ريبويَو رويدًا رويدًا. ومرة أخرى صرخ الأعرج قائلًا:

- اجثوا!

فجثونا جميعًا وقد غصصنا بدموعنا، من دون أن يجرؤ واحد منا على التفوُّه بكلمة. أما ابن الفحّام الذي كان كبيرًا في العمر، ذلك الذي كان يجلس على حجر طوال الوقت ويطالع أوراق الجرائد التي ينتشلها من مكبِّ النفايات، فقد اقترب من الجمع ممسكًا بالجريدة وقال:

- أيها الصغار الحمقى، ما دام جنرالكم قد مات، فادفنوه.

ثم رحل.

وقفنا جميعًا وقد عقدنا العزم على حمل اللوح الذي استقرَّ فوقه الجنرال ثم دفنه في مكبِّ النفايات، ولكن ضاعت كل جهودنا سدى، إذ لم نفلح ولا حتى في تحريك اللوح من مكانه. فقرَّرنا دفنه قطعة قطعة، وقسَّمنا كلَّ ساق ثلاثة أقسام، وبالمثل فعلنا بالذراعين. قال الأعرج بضرورة دفن الرأس كاملًا. فجِيء بصفيحة

قديمة أودِع فيها الرأس الذي حمله أربعة هم الأكبر عمرًا بيننا. حُمِل الرأس أولًا، فشيَّعناه وسرنا خلفه جميعًا، ننتحب كاليتامى، وهي الطقوس التي تكرَّرت بحذافيرها مع كل قطعة من الساقَين والذراعَين، فلم يبقَ سوى الجذع الذي قسَّمناه إلى قطع صغيرة كثيرة، ثم طفقنا نصنع كُرَيَّات كثيرة من الوحل، وحين لم يتبقَّ من جذع الجنرال ريبويَو شيئًا، قرَّرنا أن نلعب لعبة الحرب بكُرَيات الوحل.

إيمًا رييس

باريس، 28 أبريل، 1969

---

(1). شارل دي جول (1890 - 1970): عسكري وسياسي كان قائد جيش فرنسا الحرة في فترة الاحتلال النازي لفرنسا. تولَّى عدة مناصب رفيعة المستوى منها رئاسة الجمهورية التي شغلها ابتداء من عام 1959 وحتى تاريخ كتابة هذه الرسالة (28 أبريل 1969). أما قصر الإليزيه فهو المقر الرسمي لرئيس الجمهورية الفرنسية.

(2). بوغوتا: عاصمة جمهورية كولومبيا.

الرسالة الثانية

عزيزي خيرمان،

على الرغم من الرصانة المتناهية التي تنطوي عليها رسالتك، ألاحظ أنك تتحرَّق فضولًا لتعرف من هي السيدة ذات الشعر المُرسَل. الحقُّ أن الذكريات ضبابية، ولو تسنَّى لي إضفاء شيء من الاتساق على تلك الانطباعات، على مدى الأعوام، فالفضل في ذلك يرجع لمساعدة أختي التي تكبرني بعامَين، وتذكر أكثر مما أذكر قليلًا.

كانت المرأة ذات الشعر المُرسَل تُدعَى ماريا. امرأة في مقتبل العمر، فارعة القوام، نحيلته. لم تُحدِّثنا يومًا عن أسرتها أو حياتها، واقتصرَت صلتنا بها على الانصياع لأوامرها من دون شكوى ولا سؤال عن السبب. كانت قاسية وفي غاية الصرامة.

أما الشخص الوحيد الذي كان يزورنا فهي السيدة سيكونDينا، التي كانت تمتلك متجرًا في سانتا باربارا، صديقتها الوحيدة التي كانت تكبرها في العمر كثيرًا. بمجرد وصول سيكوندينا، كانت السيدة ماريا ترسلنا إلى الشارع كي نلعب مع أمر منها بألَّا نعود حتى تنادينا بنفسها. لم ندرِ عمَّا تتحدَّثان قط. لم يكُن قد مرَّ على دفن الجنرال ريبويّو إلَّا زمن يسير، وكنت لا أزال أرتدي الثوب المُلطَّخ بالوحل نفسه. كُنَّا ننام بثيابنا دومًا، في حين تكتفي هي بخلع تنورتها السوداء الطويلة وحلِّ شعرها. ذات نهار أيقظَتنا في وقت مبكر للغاية، والظلام

لا يزال مُخيِّمًا، وكأنَه ليل. فأرسلَت ثلاثتنا لإفراغ المبولة وإحضار الإبريق والدلو بعد تعبئتهما بالماء. وحين عدنا أضرمَت الموقد وأودعَت فوقه القدر الضخمة مملوءة بالماء. وراحت تبدِّل ملاءات الفراش وتنظِّف قطع الأثاث القليلة التي كنَّا نمتلكها ريثما يسخن الماء.

- اخلعوا ثيابكم لأني سأحمِّمكم.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تحمِّمنا فيها معًا. وقف ثلاثتنا عراة حول السَّطل، فراحت تدلِّك أجسادنا بالصابون بسرعة بالغة، وبعد ذلك سكبَت علينا الماء واحدًا واحدًا، من قَرْعَةٍ مُجفَّفة. غمر الماء والصابون أرض الحجرة. فأمرَتنا بتجفيف الأرض أولًا، ثم ألبسَتنا ثياب الآحاد وأجلسَت ثلاثتنا على حافة الفراش مع أمر منها بألَّا نبرح مكاننا ريثما ترتدي ثوب الآحاد هي الأخرى. صفَّفَت شعرها بعناية فائقة. طلبَت من إيلينا أن تحمل المرآة ومن القملة أن يحمل الشمعة، وكانت كلما تحرَّك أحدهما تستشيط غضبًا. وحين فرغَت من تصفيف شعرها، أرسلَت القملة إلى المصنع ليتحقَّق من الساعة. يومذاك لم نتناول الفطور، كانت مُتوتِّرة، وجعلَت تحوم في الحجرة كوحش حبيس في قفص. كانت الشمس قد أشرقَت، إلَّا أنها لم تفتح الباب، على غير عادتها، فبقينا على ضوء الشمعة. وفجأة سمعنا ثلاث طرقات خافتة على الباب، فرسمَت هي علامة الصليب وسارعَت بفتح الباب. وفي تلك اللحظة تمثَّل

أمامنا سيد فارع القوام للغاية، نحيل، لم تكُن ثيابه كثياب أهل الحي، بل كان يشبه أولئك الذين نرى صورهم في الجرائد التي نعثر عليها في مكبّ النفايات.

كان يرتدي معطفًا، ويعتمر قبعة، ويمسك مظلّة، وكل ثيابه داكنة، ربما كانت سوداء. مسح بيده على عينَيه وكأنما ليألف ضوء الشمعة، ودلف إلى الحجرة وكأنه ينسلُّ عَبْر الباب، ثم طبع قبلة على وجنتها، فضحكنا ثلاثتنا في آن واحد. كانت تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها إلى حجرتنا سَيِّدٌ مثله.

أوصدَت السيدة ماريا الباب مرة أخرى بالمفتاح، ثم تناولَت القارورة التي استقرَّت في فوهتها الشمعة واقتربَت من الفراش حيث ما زلنا جلوسًا وكأننا قد أصِبنا بالشلل، بينما جاء هو في أثرها وعلى وجهه أمارات الجدية البالغة. عندئذ قرَّبَت الشمعة من وجه القملة وقالت:

- هذا هو إدواردو، إنه منك أنت.

فربَّت على وجنة القملة براحته. ثم عرَّفته ماريا على إيلينا، ثم عليَّ أنا. لم يعقب ذلك أي تعليق، بل ران على الحجرة صمتٌ عميق. حلَّ السيد أزرار المعطف والسترة، وبأطراف أصابعه أخرج بضع قطع معدنية من جيب الصدار، أعطى منها لإدواردو ثلاثًا، ولكل واحدة منا قطعة. فقالت السيدة ماريا:

- اشكروه على ما أعطاكم. والآن اذهبوا والعبوا في الخارج، وابقوا على مقربة من الباب حتى إذا رأيتم

الجارة مقبلةً قولوا لها إني نائمة.

خرجنا فسمعنا الباب يُوصَد بالمفتاح. بقي الرجل هناك طويلًا. حتى انفتح الباب أخيرًا، وأطلَّت السيدة ماريا برأسها لتتحقَّق من خلو الطريق من المُراقبين، ثم التفتَت وقالت:

- الآن...

فخرج السيد مُنسلًا عَبْر الباب كما دخل. مرَّ بجوارنا من دون أن يلقي علينا نظرة واحدة، وكأنه لم يرَنا قط. رأيناه يبتعد بخطًى واسعة، ماضيًا بحذاء الجدار وكأنه يخشى أن تقع عليه الأبصار.

وحين دلفنا إلى الحجرة وجدنا السيدة ماريا تنتحب، ثم شرعَت تفرغ الخزانة من محتوياتها وتضع جانبًا كل ما يخصُّ إدواردو.

أخرجَت من تحت الفراش صندوقًا من الورق المُقوَّى حزمَت فيه كل ما نحَّته جانبًا بعناية.

- إيلينا وإيمًا، ضعا ثيابكما العتيقة مرة أخرى. أمَّا إدواردو فلا، لأنه آتٍ معي.

ظلَّت تبكي، فشرعنا في البكاء نحن أيضًا. وفيما راحت إيلينا تخلع ثيابي عني رأينا على الطاولة رزمة من الأوراق المالية، فتملكني الخوف، وشعرتُ بأن شيئًا على وشك الوقوع. لم يكُن لدينا سوى القطع المعدنية، لم نكُن قد رأينا الأوراق المالية في ذلك البيت قط. أما هي فلم تنبس بكلمة واحدة. أخرجَت صندوقًا وأخذَت منه وشاحًا ثم أحكمَت وضعه حول رأسها، فوجدتُها

تشبه عذراء الكنيسة لأول مرة.

- لا تبرحوا مكانكم، أنا ذاهبة إلى الجارة.

عادت برفقة الجارة التي كانت هي أم الأعرج، فأطلعَتها على موضع الصحون والشموع. حملت صندوق الورق المُقوَّى بما حوى من ثياب القملة، ثم وقفَت أمامنا وقالت إنها ستتغيَّب أيامًا، ولكنَّ الجارة ستحضر لإعداد الطعام من أجلنا. وقالت إنها سوف توصد الباب دوننا بالمفتاح لأن ليس هناك من يرعانا.

- تحلَّيا بالأدب!

ردَّدت قولها مرتَين. دفعَت القملة نحو الباب، ثم وضعَت على رأسه قلنسوة بحَّار وأمرَته بالخروج. نظر إلينا القملة فاتحًا عينَيه الواسعتَين اللتين طفرَت منهما الدموع.

أمضينا أيامًا طوالًا وباب الحجرة مُقفَل، حتى ما عدنا نميِّز الليل من النهار. كانت المبولة تمتلئ بفضلاتنا فنبدأ في الاستعانة بالسَّطل. أما الجارة فكانت تحضر مرة واحدة كل يوم وتترك لنا قدرًا ضخمة من الماساموزًا[3]:

- لا تتناولا اليخنة كلها دفعةً واحدة لأني لن أعود حتى غد، وأطفئا الشمعة بمُجرَّد الانتهاء من تناول الطعام.

كنا نجهش بالبكاء ونرفع صوتنا بالصراخ إلى حدِّ يجعل الجيران يأتون إلى الباب لتهدئتنا. كُنَّا نقضي ساعات في النظر عَبْر شقوق الباب وثقب المفتاح لعلَّنا نراها مقبلة. وأخيرًا جاءت ذات يوم ونحن نائمتان على

الأرض قبالة الباب، فكانت تلك هي المرة الأولى التي نتعلَّق فيها بعنقها. رحنا نعانقها ونقبِّلها من فرط السعادة. أما هي فشرعَت تبكي في عذوبة ثم نحَّت أذرعتنا التي أحطنا بها عنقها، وإن احتفظت بيدَينا في راحتَيها وقالت:

- القملة لن يعود. والده، ذلك السيد الذي أتى إلى هنا، سياسي كبير، ربما تولَّى رئاسة الجمهورية... ولذا فهو لم يُرِد أن يظلَّ ابنه معي، يقول إنه يخشى عليه من ذلك ويفضِّل أن يتولَّى رعايته بنفسه، فحملته إلى تونخا[4] وتركته في أحد الأديرة حيث رتَّب السيد كل شيء من أجل استضافته هناك.

من دون القملة أحسستُ بالتيه، كنتُ أبكي، أصرخ، أناديه، لم أكُن أدري ماذا تعني «بعيدًا عن بوغوتا». وظننتُ أنِّي لو صرخت بقوة فلسوف يبلغه صوت صراخي. بدَت السيدة ماريا في غاية الحزن هي الأخرى، وصارت أكثر مَيلًا إلى الصمت وأشد قسوةً. وفي تلك اللحظة، بحسب اعتقادي، نشأ بين إيلينا وبيني ما يشبه الاتفاق السرِّي الدفين، كان شعورًا غير واعٍ بأننا وحيدتَان، فليس لي غيرها وليس لها غيري. في تلك اللحظة لم أعرف أني لن أعود لرؤية إدواردو ولن أعرف شيئًا عن مصيره ما حييت، وأني لن أذكر منه سوى عينَيه الهائلتَين السوداوَين وقد طفرتا بالدموع تحت قلنسوة بحَّارٍ سخيفة.

إيمًا رييس

باريس، 9 مايو 1969

---

(3). الماساموزًا: يخنة تقليدية تُعَدَ بشتًى صنوف الخضروات ومن مكوناتها الرئيسية الذرة.

(4). تونخا: مدينة كولومبية تقع على السلسلة الشرقية من جبال الأنديز.

الرسالة الثالثة

عزيزي خيرمان،

كما قلتُ في رسالتي السابقة، بعد رحيل إدواردو، أصبحَت السيدة ماريا أقل اكتراثًا وأشد قسوة معنا، فما عادت تحدِّثنا إلَّا في حالات الضرورة القصوى، كما بدأت تخرج إلى الشارع كل يوم تقريبًا. كانت توقظنا مُبكِّرًا، وتُعِدُّ لنا طعام الفطور، فأضطَرُّ أنا للخروج سريعًا كي أفرغ المبولة في مكبّ النفايات، أما إيلينا فحلَّت محل إدواردو في جلب الماء. أحيانًا كنتُ أساعدها، فأسكب نصف المياه، لأن الإبريق والدلو أثقل مما يسعني حمله. وكما جرت العادة، كانت السيدة ماريا توصد باب الحجرة دوننا طوال الوقت الذي تقضيه في الخارج. أحيانًا لم تكُن ترجع إلَّا في الليل، غير مبالية إن بقينا بلا طعام.

ذات يوم عادت في وقت مُتأخِّر جدًا، جدًا. كُنَّا قد انخرطنا في البكاء من فرط الجوع. جاءت مُحمَّلةً بالعلب، وأحضرَت لنا الكعك وشطائر حلوى الجوافة لأول مرة. أعدَّت لنا الطعام، وفجأةً أخذَت تضحك، وتضحك، كالمجنونة. راحت دموعها تنهمر غزيرة، أما نحن فقد تملَّكنا الذعر ولم ندرِ أنضحك معها أم نبكي. وحين هدأت بعض الشيء قالت لنا وهي تضرب الطاولة بيدها:

- سنرحل عن هذه الحجرة البائسة، غدًا نبدأ في حزم أغراضنا، سنذهب إلى قرية بعيدة، وهناك يكون لنا بيت

كبير.

ثم عاودَت الضحك وأمرَتنا بأن نأوي إلى الفراش، إذ علينا الاستيقاظ باكرًا.

غدَت حجرتنا جحيمًا على مدى أيام، لم يغْد شيء في مكانه المعتاد، وخوَت الخزانة من محتوياتها، في حين أخذت هي تكدِّس شتَّى الأغراض في جميع الأركان. ذات نهار خرجَت وابتاعت ثلاثة صناديق ضخمة وبدأت تحزم الثياب والصحون. أودعَت كل صحن بعناية بين الملاءات والمناشف. أما في الصندوق الأخير فقد وضعَت القدور والسَّطل والإبريق والمبولة. أقبل الليل ولم يبقَ في الحجرة سوى قطع الأثاث، والمرتبة المُجرَّدة من الملاءات والأغطية، وعدد من العلب التي استقرَّت أرضًا بما تحويه من أغراضٍ عتيقة. بعد العشاء حضر الجيران وأخذ كل منهم ما يريد. فأخذَت أم الأعرج المكنسة العتيقة، أما السرير فقد اشتراه عامل في مصنع البيرة. وعندما رحل الجميع، لم يبقَ في الحجرة إلَّا الصناديق الثلاثة وقد أُقْفِلَت ووُضعَت في منتصف المكان، إلى جانب المرتبة العتيقة التي استقرَّت على الأرض. عادت أم الأعرج مرة أخرى إلينا بغطاء ومبولة.

صحونا والظلام لا يزال مُخيِّمًا، فارتدينا ثياب الآحاد، وهي الثياب الوحيدة التي تركناها خارج الصناديق. ثم أرسلَتنا السيدة ماريا إلى الجارة حتى نردَّ لها الغطاء والمبولة، كما حملنا لها الثياب المُتَّسخة التي خلعناها

عنا في اليوم السابق. عدنا فوجدناها تنتظرنا عند الباب، وقد تلفَّعَت بالوشاح وأمسكَت بحقيبة ضخمة جديدة، أوصدَت باب الحجرة دوننا ومعنا الصناديق الثلاثة، وقالت إنها لن تلبث أن تعود. وفجأة سمعنا صهيل حصان، فنظرنا عَبر ثقب المفتاح لنرى السيدة ماريا وهي تترجَّل من عربة مرَّت أمام الباب. هرع الجيران إليها، وتعاون الكلّ على حمل الصناديق إلى العربة. أجلسوني على الصناديق، أما إيلينا فوقفَت بجواري وقد أمسكت بي لئلَّا أسقط.

راحت السيدة ماريا تشدُّ على أيدي الجميع مُودِّعةً. وفي تلك اللحظة ظهر الأعرج الذي أتى راكضًا. دنا من العربة وأهداني نصف برتقالة كانت في يده، ناظرًا إلينا بعينَين في غاية الحزن. أما السيدة ماريا فأوصدَت الباب بالمفتاح الذي أعطَته لجارتنا وهي توصيها بأن تعتني بالحجرة.

لم أرَ ما جرى، كل ما هنالك أني سمعت صرخات مُروِّعة. وإذا بالسيدة ماريا مُمدَّدة على قارعة الرصيف، مغمضة العينَين، والدماء تسيل من فمها، بينما انطلق الحوذي يردِّد الكلمات النابية بكل صنوفها. طبقًا لما قالت إيلينا، فقد حاولَت السيدة ماريا أن تمُرَّ من أمام الحصان كي تودِّع السيد الكاهن، فما كان من الحصان إلَّا أن رفع رأسه مذعورًا ونطح فكَّها بشدة. أما هي فعضَّت على لسانها من فرط الفزع وسقطَت على قارعة الرصيف كمن فارقته الحياة. جاء الحضور بالكحول

والدهن وبدأوا يمسحون على جبينها. في حين طفقنا ننتحب كالمجانين ونناديها ونجذبها من أكمامها. وأخيرًا بدأت تفتح عينَيْها رويدًا رويدًا واستوَت في جلستها. بدَت شاحبة وأخذ فمها يتورَّم. ساعدوها على القيام ثم دخلنا جميعًا إلى بيت أم الأعرج، حيث جعلوها تمضمض الماء المالح. قال الكاهن إنَ مسح وجهها بالمنثول خير ما يمكن عمله. في حين قالت الجارة إن الشمع أفضل. لم نكفّ عن البكاء، في حين ظلَّ الحوذي غاضبًا بسبب وقته المهدور. أما العامل الذي اشترى السرير منا فقد جعل على فكِّها منديلًا وأحكم ربطه بأنشوطة فوق رأسها. ثم ساعدها الكلُّ على التلفَح بالوشاح، فعُدنا إلى العربة بعد ألف توصية وتحيَة. ما زال الجيران يتمثَّلون لعينَيَّ بعيدًا، على الطريق، رافعين أذرعهم بإشارات الوداع. أما أنا فقد أضعتُ نصف البرتقالة التي أهدانيها الأعرج.

الرسالة الرابعة

عزيزي خيرمان،

لو كان حقًّا أنَّ من وقائع الطفولة ما يترك بصمة في نفوسنا مدى الحياة، لوجب عليَّ الإقرار بأن تلك العربة الشهيرة التي قطعَت صلتنا إلى الأبد بالحجرة القائمة في حيِّ سان كريستوفر (القديس شفيع المسافرين) كانت بداية حياة اصطبغَت بقسوة طرقات أمريكا الوعرة، ثم طرقات أوروبا المذهلة في وقت لاحق، تلك القسوة التي تعلَّمتُ في مدرستها.

حملَتنا العربة إلى محطة سابانا. لم تنبس السيدة ماريا بكلمة واحدة طوال الرحلة. بدَت شاحبةً وعلى قدر من الحزن دفعني إلى سؤالها عما إذا كانت ستموت مرة أخرى، فأومأت بيدها أن كلّا. مررنا بالكثير والكثير من الشوارع الواسعة، والبيوت ذات الشرفات، والكنائس، لم أدرِ في أي اتجاه أنظر، فلقد دبَّ الذعر في نفسي لمرأى السيدة ماريا مُمدَّدةً على الطريق، مثلها كمثل الجنرال ريبويّو في مكب النفايات، ما أصابني بمغصٍ ورغبةٍ في القيء.

نادت السيدة ماريا نفرًا من الرجال، فأنزلوا الصناديق في المحطة المُكتظَّة بالكثيرين ممن طفقوا يركضون في كل اتجاه، كلٌّ منهم مُحمَّلٌ بالحقائب والجوالات وحقائب الظهر. تشبَّثتُ بتنورة السيدة ماريا في حين أمسكَت إيلينا بيدي الأخرى. درنا حول أنفسنا مرات كثيرة، بينما هي تتحدَّث مع الكثيرين وتفتح حقيبة

يدها من آن إلى آخر لشراء وريقات تحتفظ بها في الحقيبة. وأخيرًا استقلّينا القطار، فجلسَت هي قرب النافذة، وأجلسَت إيلينا بجوارها، أما أنا فحملَتني على ركبتَيها. كانت تلك أول مرة تحملني فيها. لم أدرِ ما العمل. كانت تفوح منها رائحة دهن قوية وكريهة للغاية، وكنتُ أخشى لمس وجهها برأسي. ظلَّ الركاب يتدافعون صعودًا إلى متن القطار، مُحمَّلين بالحقائب. وصل بضعة رجال يتصايحون وفي أيديهم آلات جيتار وقوارير، وشرعوا في الغناء، أما أنا فقد غلبني النعاس قبل أن يتحرَّك القطار.

أيقظوني عندما حان وقت النزول من القطار. كان الظلام قد خيَّم حين طرقَت السيدة ماريا باب أحد البيوت الكبيرة فخرجَت لاستقبالنا سيدةٌ بالغة البدانة، حمراء الأنف، مُتَّشحة بالسواد تمامًا.

أخذَتنا السيدة إلى حجرة بالغة الضخامة تطلُّ على باحة زاخرة بالكثير من النباتات التي تدلَّت من السقف وكأنها مغروسة في السماء. نادت السيدةُ صبيًا فجاء مُمسكًا بلعبة النحلة الدوَّارة. أمرَته بالذهاب إلى المطبخ والإبلاغ عن حضور ثلاثة ضيوف على العشاء. شرعَت السيدة ماريا في الحديث مع المالكة وأخبرَتها بما جرى لها مع الحصان لحظة الرحيل. فقالت المالكة إنها سوف ترسل في طلب معالجة تقيم في البلدة وتداوي كل شيء بوضع الضفادع الساخنة على الموضع المصاب. لم تقبل السيدة ماريا، فأكلنا وآوينا إلى الفراش.

وعلى مدى أيام نزلنا في تلك البلدة التي لم أعرف لها اسمًا قط. دأبت السيدة ماريا على الخروج بصفة شبه يومية مصطحبةً إيلينا معها، أما أنا فكانت تتركني مع الصبي الذي يجلس معي ويلهو بالنحلة الدوارة. ذات يوم وضع النحلة الدوَّارة فوق يدي وهي تتراقص فتملَّكني الخوف بشدة حتى إني أجهشت بالبكاء. وفي يوم آخر سألني عما إذا كان لي بابا وماما، فسألته عما يعني بذلك. فأجابني بأنه لا يعرف هو الآخر.

وفي اليوم الأخير خرجَت السيدة ماريا وحدها في وقت مُبكِّر للغاية. ثم عادت مُحمَّلة بالعلب، واستدعَتنا إلى الحجرة حيث أمرَتنا بخلع ثيابنا، إذ ابتاعت لنا ثوبَين جديدَين. كان ثوب إيلينا أزرق، وقد أعجبني أكثر من ثوبي الوردي. كان كلاهما بديعًا، مُزركشًا بالدانتيل والأشرطة. ارتدَت كلٌّ منا ثوبها فأمرَتنا السيدة ماريا بالخروج إلى الباحة. وبعد برهة رأيناها خارجة من الحجرة فلم نكَد نتعرَّف عليها، ذلك أنها بدَت رائعة الجمال، وفي ريعان الشباب. كانت قد ابتاعت ثوبًا رماديًا مُزيَّنًا بالكثير من الثنايا والأزرار والزركشة، وانتعلَت حذاء أسود مُزيَّنًا بأزرار كثيرة أيضًا، واعتمرَت قبعة رمادية بالغة الضخامة يتدلَّى منها ما يشبه الطرحة، عقدَتها بشريطٍ تحت ذقنها. أقبل الجميع مُهنِّئًا، بينما راحت المالكة تتلمَّسها في كل مكان، ونادت على الصبيَ كي يساعدنا في حمل العلب. قطعنا شوارع كثيرة حتى بلغنا مزرعة خيل حافلةً بالأحصنة وغيرها

من الحيوانات المخيفة التي لم أكُن قد رأيتُها من قبل، فأخبرَتني إيلينا أن تلك الحيوانات هي التي تعطينا الحليب الذي نشربه مع القهوة على الفطور. ازدحم المكان بجموع وجموع من الرجال الذين كانوا يُدعَون الهنود لأن ثيابهم تختلف عن ثياب رجال بوغوتا. تحدَّثَت السيدة ماريا إلى أكثر من هندي، وراحت تسألهم واحدًا واحدًا عن السيد توريبيو.

كان توريبيو هنديًا يفوق الآخرين حجمًا، قويًا، يكاد يكون بدينًا، وله عينان بلغتا من الدقَّة درجة تكاد تحول دون رؤيتهما.

قال توريبيو إن الخيل جاهزة، وليس علينا سوى انتظار الهنود الذين ذهبوا لإحضار الصناديق. أقبل هنديٌ آخر يقود الخيل التي كانت جميعها ضخمة، فيما عدا واحد أصغر حجمًا، طويل الأذنَين، قال توريبيو إنه يُدعَى حمار.

أحكِم ربط مقعدَين إلى السيد حمار، فتدلَّيا على جانبَيه وقد استقرَّت فوقهما مظلَّة من الملاءات شُدَّت إلى بعض العصي المُثبَّتة في المسندَين. قال توريبيو إنها للوقاية من الشمس لئلَّا تحرقنا. أجلسوا كلًّا منا على أحد الجانبَين، فكان مقعدي يعلو ومقعد إيلينا يهبط لأنها أكبر مني. فقال توريبيو بضرورة ربط جوال مُعبَّأ بالحجارة إلى مقعدي ليكون في وزن المقعد الآخر.

ساعَدوا السيدة ماريا على امتطاء حصان رمادي في لون ثوبها. أما الصناديق فقد حمَّلها الهنود على ظهور

خيول أخرى تُدعَى البغال. بات كل شيء مُعَدًا، فامتطى توريبيو حصانًا ضخمًا في لون القهوة بالحليب. ثم جاء هنديٌ ذو بشرة حالكة السواد ووجه مُتورِّم، فشدَّ السيدَ حمار بالرَّسَن وبدأ يحثّه على السير. وشيئًا فشيئًا، رحنا نبتعد عن البلدة حتى لم نعُد نرى منها لا البيوت ولا الكنيسة.

لا أذكر الرحلة كاملةً لأني نمت معظم الوقت، كنتُ أصحو فأبكي من التعب والبثور التي انتشرَت في ساقَيَ ومن الألم الذي شعرتُ به في كل موضع من جسدي. وفي اليوم الأخير تقيَّأتُ مرات كثيرة. أما توريبيو فقد غمرني بحنانه، كان يترجَّل عن حصانه ويُنزِلني كي أسير قليلًا.

في الليلة الأخيرة كدنا لا نبارح موضعنا، إذ بلغ الوحلُ بطونَ الخيل وانهمر المطر بلا انقطاع. وصلنا إلى غواتيكيه[5] والليل يكاد يرخي سدوله، وتوريبيو يستشيط غضبًا من الهنود ومن السيد حمار لأنه يسير ببطء شديد.

ما إن بلغنا غواتيكيه حتى ذهبنا مباشرةً إلى بيت كبير من طابقَين على مقربة من الساحة. أما الساحة فكانت تضمُّ كنيسة ونافورة ضخمة مستديرة فيها دُمًى تترقرق من أفواهها خيوط مياه كثيرة، حتى بدا أنها تتقيَأ ما بجوفها.

ترجَّل توريبيو عن الحصان ثم طرق الباب ولكنَّ أحدًا لم يخرج للقائنا. انتظرنا برهةً، وأخيرًا خرجَت امرأة من

البيت المقابل وقالت إنها تحمل رسالة من أجل الآنسة ماريا. كان المفتاح داخل المظروف.

في ما وراء البوابة المُطلَّة على الشارع امتدَّ رواقٌ مرصوف بالحصى الأبيض، تليه بوابة تفضي مباشرةً إلى باحة كبيرة حافلة بالنباتات والأشجار. كانت الأروقة واسعة، أعمدتها من الخشب، وكل أبواب الحجرات تفضي إلى الباحة، كان القسم الأمامي مُؤلَّفًا من طابقَين، أما باقي أنحاء البيت فمن طابق واحد فحسب. كانت الباحة الثانية مرصوفة بالآجر، وفيها موقدان لصنع الخبز، وملحق بها مطبخ وحجرات أخرى، أما الأرض الخلاء فيمكن الوصول إليها عَبر بوابة خلفية ضخمة، وهناك اختُفِظ بكل مستلزمات الخيل. كانت الأرض الخلاء فسيحة للغاية، ولم تخلُ من الأشجار أيضًا: فهذه شجرة تفاح ورد[6] وهذه شجرة مانجو وتلك شجرة جوافة.

أنزل الهنودُ حمولةَ الخيل ثم رحلوا. أما توريبيو فدخل معنا إلى البيت وشرع يفتح الأبواب ثم أحضر بضعة مقاعد إلى الرواق حتى نجلس. نهانا عن الدخول إلى الحجرات ما دمنا نشعر بالحرّ، لأن البيت مُوصَدٌ منذ أعوام وحجراته باردة.

سأل توريبيو عما إذا كان في وسعه البقاء لحين وصول الدكتور[7]، فطلبَت منه السيدة ماريا أن يجلس وراحت تسأله عن الكثير من الأمور المُتعلِّقة بالبلدة. في تلك اللحظة ألقى أحدهم بجرو أبيض صغير من فوق

السياج، فارتطم الجرو بالأرض في منتصف الباحة وقد اتَّسعَت عيناه وانتفخ بطنه كما تنتفخ الطبول.

نهانا توريبيو عن لمسه، فمن الواضح أنه قد نَفَق مسمومًا. التففنا جميعًا حول الجرو، فسمعنا صوتًا أجشّ للغاية، صوت رجل يسألنا عما إذا كانت المسافرات قد وصلن من العاصمة. بادرَته السيدة ماريا بالتحية، فعانقها وربَّت على ظهرها. أما توريبيو فخلع القبعة عن رأسه وحيَّاه بانحناءة.

- كيف حالك، توريبيو؟ هل أحسنتَ العناية بالآنسة والبنتَين؟ وفيمَ كل هذا التأخير؟ سحقًا...

- أجل يا دكتور، استغرقنا يومًا زائدًا بسبب السيد حمار، كما تلقِّبه البنتان. كانت طريق الپارامو[8] وعرة بسبب الأمطار، وذلك الحمار بلا أدنى فائدة في الطرق الوعرة، كعادته دومًا.

- حسنًا، توريبيو، اذهب إلى الدكان وانتظرني هناك. إيَّاك والحديث عن المسافرات في البلدة، أوصيك بذلك...

- حسنًا يا دكتور.

وحين خرج توريبيو، جلس روبِرتو عند حافة الباحة. ثم خلع العباءة وبسطها على الأرض طالبًا من السيدة ماريا أن تجلس إلى جواره.

كان رجلًا جذَّابًا، فارع القوام، نحيله، لفحَت الشمس بشرته، له أسنان بديعة، وشعر ناعم كشعر الهنود، ينتعل حذاءً عاليًا من الجلد ينتهي بمهماز، ويرتدي ثيابًا من

الصوف وعباءة بيضاء، ويلفُّ منديلًا حول عنقه، ويعتمر قبعة قالت السيدة ماريا إنها تُسمَّى قبعة الفلِّين. كان يحمل في يده سوطًا على الدوام، يضرب به على حذائه ضربًا خفيفًا في أثناء الحديث. وحين جلست السيدة ماريا إلى جواره، قال:

- أنت رائعة الجمال يا آنستي.

فضحكَت هي وقالت:

- دعني أقدِّم لك البنتَين. تعاليا، اقتربا... هذه أكبرهما عمرًا وتُدعَى إيلينا.

فقال:

- رائعة الجمال. ما أجمل عينَيك. تعالي، اقتربي، ناوليني يدك.

اقتربَت إيلينا فأجلسها على ركبتَيه.

- والأخرى، ما اسمها؟

- الأخرى إيمَّا، أو الصغيرة، كما تدعوها إيلينا. مسكينة، فهي ليست دميمة وحسب، بل إنها تزداد حوَلًا يومًا بعد يوم، تصوَّرْ.

- لا تشغلي بالك، ماريا، فصديقي الطبيب بارغاس هنا، وسوف يقوِّم لها عينَيها.

فأجهشتُ بالبكاء.

سألني روبِرتو:

- لماذا تبكين؟

- لأنك تقول إنك سوف تخلع عينَيَ.

فضحكا.

- أيتها الطفلة البلهاء، التقويم لا يعني الخلع.

ومن خلال دموعي رأيث الجرو النافق مرة أخرى، ذلك الذي سقط من السماء، فهرعث إليه وأخذتُه بكلتا يدَيّ، ثم ألقيثه بكل ما أوتيت من قوة على ركبتَيّ روبِرتو. فكانت تلك بداية علاقتي به ونهايتها أيضًا. إذ لم أعُد لرؤيته قط، وإن ترك ظلُّه بصمةً على حياتي إلى الأبد.

يا سيدي:

أنت لم تصوِّب أقوالي، فأنا لا أدري حتى إن كان ما أكتبه مفهومًا. أمرُّ بلحظات يبدو لي ما أكتبه خلالها مبهمًا ولا أدري إن كانت متابعة القصّة ممكنة في المجمل. لا أحتفظ بنسخ من رسائلي، بل أكتب إليك مباشرةً، ولا أعود أذكر مما كتبتُ شيئًا.

قبلاتي للجميع. إيمًا

باريس، 9/1969

---

(5). غواتيكيه: قرية كولومبية تبعد 112 كيلومترًا عن العاصمة بوغوتا.

(6). تفاح الورد: فاكهة لها رائحة الورود تنمو في المناطق ذات المناخ الاستوائي.

(7). دكتور: في كولومبيا كثيرًا ما يُستخدَم لقب دكتور تعبيرًا عن الاحترام، ولا يقتصر على الأطباء فحسب.

(8). الپارامو: منظومة بيئية متكاملة تُوصَف بأنها مرتفعة جبلية استوائية بوجه عام، وتتركَّز بصفة

أساسية في كولومبيا والإكوادور وفنزويلا وبيرو. ويُفضَّل ذكر اللفظ الإسباني كما جاء في الأصل نظرًا لعدم وجود ما يقابله في العربية.

الرسالة الخامسة

عزيزي خيرمان،

كان روبِرتو ب. من الطبقة الراقية في غواتيكيه، ومن أثرى أثرياء مقاطعة بويوكا. كان يمتلك أراضيَ زراعية فسيحة، ويتاجر بالخيل والأبقار. كانت زوجته شابة جميلة من تونخا، وإن لم ينجبا أبناء. بعد الزواج نزلا في بيت غواتيكيه، أي البيت الذي وصلنا إليه. وهناك عاشا أعوامًا حتى انتهيا من تشييد بيت آخر بديع في واحدة من أراضيه، على ضفة نهر سونوبا. ومن ذلك الحين ظلَّ بيت غواتيكيه مُوصَدًا لا يسكنه أحد.

ما كان روبِرتو يخرج أو يسافر برفقة زوجته قط، وهي لم تكُن تخرج إلَّا برفقة خادمة لحضور القداس في بلدة صغيرة على مقربة من النهر.

روبِرتو هو الصديق الأقرب إلى والد إدواردو، إذ دَرَسا معًا في أوروبا. عرفَته السيدة ماريا في الفترة التي كانت خلالها على علاقة بوالد إدواردو، وإدواردو لا يزال وليدًا. ثم جمعَتها به المصادفة البحتة في تونخا، حين سافرت إلى تلك المدينة للتخلِّي عن إدواردو.

كان هو الذي اقترح عليها الذهاب إلى غواتيكيه وحمَّلها رسالة توصية لمالك مصنع شوكولاتة لا سپسيال، يطلب إليه فيها أن يعهد للسيدة ماريا بإدارة وكالة الشوكولاتة في غواتيكيه.

كانت وكالة الشوكولاتة في الساحة، إلى جانب الكنيسة. وكان ذلك الجزء من الرصيف مرتفعًا، يكاد

يرتفع مترًا فوق مستوى الأرض، وكأن الواحد في شرفة طوال الوقت، فهو يطلّ على أرجاء الساحة كافة. كانت للوكالة بوابتان ضخمتان، وأرفف تصل إلى السقف، فضلًا عن منضدة لعرض البضائع، ثقيلة ومرتفعة جدًا، لم أفلح في النظر من فوقها قط. وقبالة المنضدة استقرَّت بضعة مقاعد كبيرة للزائرين، وُضِعَت ملاصقةً للجدران، بين البوابتَين. كانت الوكالة تشغل قسمًا من بيت آل مونتيخو، وهم من السادة ذوي الشأن في البلدة. وفي ما وراء الأرفف وضعَت السيدة ماريا طاولة في تلك المساحة متناهية الصغر ليتسنَّى لها تناول الطعام من دون أن يراها المارَة من الشارع. فضلًا عن ذلك، كان هنالك باب صغير يفضي إلى بيت آل مونتيخو، يجتازه الواحد إلى الأرض الخلاء لقضاء الحاجة.

في اليوم التالي على وصولنا، أقبل توريبيو مرة أخرى برفقة هندية في مقتبل العمر تُدعَى بيتسابيه، أرسلها إلينا دكتور روبِرتو لتكون خادمةً لنا. كانت ضئيلة الجسد، لها عنق بالغ القصر، وأنف أفطس للغاية حتى لا يكاد الناظر يرى منها إلَّا منخرَيها، ولها عينان جميلتان مفعمتان بالشقاوة، وأسنان سليمة، وشعر أسود ناعم تجدله في ضفيرتَين محكمَتَين بشدَة، وتنتعل صندلًا ناصع البياض له سير أسود على الدوام، وترتدي تنورة فضفاضة من الصوف الخشن تحتها تنانير أخرى من النسيج الأحمر.

كانت تحضر وعلى رأسها وشاح وقبعة من القش. إنها ابنة أحد الفلاحين الذين يعملون في أراضي روبرتو. يومذاك خرجَت السيدة ماريا معها للتسوُّق وطلب مفاتيح الوكالة من آل مونتيخو.

في غضون أسبوع كنَّا قد رتَّبنا أمورنا وكأننا قد عشنا في ذلك المكان مدى الحياة.

منذ وصولنا إلى غواتيكيه أصبح الناس ينادونها آنسة ماريا بدلًا من السيدة ماريا، وذلك نزولًا عند طلبها. أما بالنسبة إلينا فقد ظلَّ كل شيء على ما هو عليه، فما كنَّا نناديها على الإطلاق، وما كنَّا نزيد على قولنا أجل سيدتي أو كلَّا سيدتي. أما إن تحدَّثت هي إلينا فكنَّا نلزم الصمت.

قرَّرت الآنسة ماريا أن تبقى إيلينا برفقتها في الوكالة طوال اليوم لقضاء ما يطرأ من المشاوير ولتنزيل أرطال الشوكولاتة من الأرفف العليا. أما أنا، فقد أمرَتني بملازمة البيت مع بيتسابيه، وكانت تقفل الباب المفضي إلى الشارع دوننا بالمفتاح. لم ترِد منا أن نخرج أو نتعامل مع باقي أطفال القرية، أيًا كانت الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها. كما أنها لم ترتبط بأي أقرباء أو صديقات يومًا. في الثانية عشرة كانت بيتسابيه تعدُّ الغداء ثم تحمله إليهما في سلَّة الطعام مُرفقًا بالصحون وأدوات المائدة. كانت تبقى برفقتهما إلى أن تفرغا من تناول الغداء ثم تعود بالصحون غير النظيفة. وفي تلك الأثناء كنت أبقى داخل البيت والباب

مُقفَل دوني بالمفتاح. كان بيت غواتيكيه فردوسًا بحق إذا ما قُورِن بحياتي في حجرة سان كريستوفر في بوغوتا. كنتُ أفتقد أصدقاء مكبّ النفايات في أول الأمر، ولكني ألفتُ العيش وحدي بيسر. كانت بيتسابيه تعمل طوال اليوم على تنظيف البيت وترتيب المطبخ، أما أنا فكنتُ أتجوَّل في أرجاء البيت، البيت الذي بدا لي مترامي الأطراف بحق.

اقتنَت الآنسة ماريا بضع دجاجات وخِنَّوْصًا[9] صغيرًا هِمتُ به عشقًا. بل ويبدو أنني كنتُ أطبع القبلات على خطمه وأطوِّقه بذراعَيَ في أثناء النوم. شيئًا فشيئًا، بدأتُ أتعلَّم تسلُّق الأشجار، وإن لم أذهب أبعد مما ينبغي في التسلُّق. كنتُ أحاول إسقاط ثمار الفاكهة بعود من الخيزران. وبطبيعة الحال، أُصِبتُ بألف كدمة وخدش، لكن لم أتعرَّض لإصابة خطيرة قط. عادةً ما كانت الدجاجات تتسلَّل إلى موقدَيَ الخبز (اللذين لم نستخدمهما)، وذلك لتضع البيض وتتَّخذ لنفسها عشًا. كنتُ أرى دجاجة تدخل إلى الموقد، فأتسلَّل معها أنا الأخرى وأظلُّ ساكنةً على مدى ساعات، أترقَّب أن تضع الدجاجة بيضتها لآخذها وأضعها على وجنتَيَ وهي لا تزال دافئة، ثم أهرع بها إلى بيتسابيه حين تبرد. كنت أجلس تحت الأشجار، وأبني بيوتًا من القش، وأقطف الأزهار، وأتجاذب أطراف الحديث على مدى ساعات أنا وخِنَّوْصي الصغير، ذلك الذي كان يتبعني في أرجاء البيت كافةً مثل الكلب، ولا يكاد يلمحني في النهار حتى

يطلق نخيرًا عاليًا مفعمًا بالسعادة. ذات مرة انتشر القمل في وبره ما اضطرَّنا لجزِّه ونزع القمل واحدة تلو الأخرى. كنتُ أعيش قذرةً كالخِنَّوْص، وقد انتشرَت الخدوش في ذراعَيّ وساقَيّ ووجهي. كان السبت هو اليوم المُرتقَب، إذ يتعيَّن عليَّ الذهاب مع بيتسابيه لغسيل الثياب في النهر يومذاك. كنَّا نخرج في الصباح الباكر، فتحمل بيتسابيه صرَّة الثياب على رأسها، وسلَّةً فيها طعام لي ولها، بينما أحمل أنا إبريق الشوكولاتة. كانت الطريق طويلة، ما يجعل بيتسابيه تحملني على ذراعها للإسراع في السير. وكان نهر سونوبا يبدو في عينَيّ هائلًا، فهو أول نهر رأيته في حياتي. وقد زخرَت ضفتاه بالكثير من الأشجار: الأفوكادو والجوافة والبرتقال. كنَّا نقصد الموضع نفسه دومًا، هناك عند منعطف النهر، من حيث نرى الجسر. بمُجرَّد وصولنا كانت بيتسابيه تفرك الثياب بالصابون وتبسطها على العشب لإزالة البقع تحت أشعة الشمس، وبعد ذلك نذهب لجمع الحطب وثمار الفاكهة. أما لدى عودتنا فكنَّا نضرم النار ونضع فوقها القدر بما حوَت من بطاطس وذرة، ثم كانت بيتسابيه تشطف الثياب ريثما يجهز الحساء، في حين أنفخ أنا في النار وأراقب القدر. وبمُجرَّد الانتهاء من نشر الغسيل، كنَّا نخلع ثيابنا، فترتدي هي ثوب السباحة، وتتركني عارية، ثم تأخذني بين ذراعَيها ونخوض النهر معًا. أي سعادة! ما كنتُ أودُّ لتلك اللحظات في النهر أن تنتهي. بطبيعة الحال، لم

يكُن في وسعنا الاغتسال إذا هبَّت عاصفة أو فاض النهر. ذات يوم خضنا تجربة مُروِّعة، فما إن ارتدينا ثيابنا ورحنا نتناول طعام الغداء حتى ارتفع منسوب النهر عدة أمتار دفعةً واحدة. كدنا نفقد الثياب كلَّها، ولم تتمكَّن بيتسابيه من اللحاق بشيء سوى الملاءات. وبسرعة مذهلة رفعَتني على شجرة فتشبَّثت بها بكل ما أوتيت من قوة، وأحسست بالمياه تتدفَّق بقوة هائلة ارتجفَت لها الشجرة من الجذور. أما بيتسابيه فخاضت المياه وهي مُتشبِّثة بالفروع حتى بلغَت الجسر، وهناك شرعَت في الصياح. سرعان ما أدركنا الكثير من الهنود الذين شدُّوا الحبال على خصورهم ونزلوا جميعًا حتى بلغوا الشجرة التي تعلَّقتُ بها، ثم انتشلوني. وبطبيعة الحال، فقدنا القدر بكل ما حوَت من الطعام، فعُدنا مُبكِّرًا وقد اضطربَت نفسي ونفسها. بكَت بيتسابيه ظنًّا منها أن الآنسة ماريا سوف تطردها من البيت لكونها قد أضاعت الثياب، إلَّا أن الآنسة ماريا انفجرَت ضاحكةً من مغامرتنا وقالت إن الثياب لا تهمّ.

كانت الوكالة تفتح أبوابها يوم الأحد أيضًا، وذلك لاستقبال الكثيرين من أهل الأرياف والقرى الذين كانوا يحضرون لشراء الشوكولاتة. ما كنتُ أرى إيلينا والآنسة ماريا إلَّا في ما نَدَر، إذ كانتا تخرجان في الصباح الباكر وأنا ما زلتُ نائمة، ثم تعودان في ساعة مُتأخِّرة من الليل أكون حينها قد آويت إلى الفراش. كانت الآنسة ماريا قد اتَّخذَت لنفسها حجرة نوم وصالة صغيرة في

القسم الأمامي من البيت، في الطابق الثاني، أما نحن فكنَّا نخلد إلى النوم في حجرة تقع في خلفية الباحة، بينما تنام بيتسابيه في حجرة صغيرة قريبة. لم نكُن نصعد إلى جناح الآنسة ماريا ما لم تستدعِنا، وكان ذلك شيئًا نادر الحدوث.

بعد وصولنا بزمن يسير مرضَت الآنسة ماريا وأصبحَت حالتها خطيرة، كان الطبيب يزورها أكثر من مرة في اليوم الواحد، أما نحن فمُنِعنا من الصعود لرؤيتها. ومع إغلاق وكالة الشوكولاتة، أصبحَت إيلينا تقضي يومها برفقتي، وإن لم يغُد في وسعنا اللعب معًا كما في السابق، فما كان يروقها لا الخِنَّوْص ولا الدجاجات ولا تسلُّق الأشجار. بدأنا نتشاجر لأول مرة في تلك الفترة، ولكنها كانت تشملني بحنانها الغامر دومًا بمُجرَّد أن تراني في خطر أو على وشك السقوط. في تلك الفترة بدأت تصل من بوغوتا شحنات شوكولاتة جديدة. كان المُكارُون يحضرون ببغالهم المُحمَّلة إلى أرضنا حيث يبيتون ليلتَين أو ثلاثًا بكل متاعهم وبغالهم. كانوا يُعِدُّون موائد عامرة ويبعثون إلينا بصحن كبير في كل مرة. في الليل كانوا يعزفون الجيتار ويغنُّون ويضعوننا على ظهور البغال ثم يطوفون بنا في الأرض الخلاء بعيدًا عن عينَيِ الآنسة ماريا. كان ذلك عندنا بمثابة حفل آخر كبير.

قامت الآنسة ماريا من الفراش، فإذا هي في غاية النحول والشحوب، لم تغد تقضي في الوكالة إلَّا شطرًا

من النهار. ولكن شيئًا فشيئًا، عادت الحياة إلى مجاريها. أي صرتُ أمكث في البيت وحدي تمامًا كسابق عهدي. ذات يوم أحد عادت الآنسة ماريا إلى البيت وهي تبكي، وأخبرَت بيتسابيه أن كاهن الكنيسة قد سبَّها علانيةً، لأنها المرأة الوحيدة التي تعتمر القبعة في الكنيسة دونًا عن النساء اللائي يغطين رؤوسهن بالوشاح أو الحجاب، وقال إن الشرور والرذائل والآثام تتوافد علينا من العاصمة دومًا. الحقُّ أن السيدة ماريا كانت قد خلعَت الوشاح إلى الأبد، وغدَت تصنع لنفسها قبعات في غاية البهرجة، ولم تعُد تتَّشح بالسواد، بل ترتدي الثياب الزاهية. تقول إيلينا إن الكثير من تلك الثياب والقبَعات كان يجلبها إليها روبِرتو من بوغوتا.

وفي مرة أخرى، استشاطت غضبًا من جديد، ولكنها ما عادت تبكي، بل إنها عقدَت العزم على الدخول معه في خصومة علانية، هي في مواجهة الكاهن، والكاهن في مواجهتها. كان قد انتقد سلوكها المشين، فابتداءً من السادسة مساء يجتمع في الوكالة كل الرجال العُزَّاب، بمن فيهم دكتور بارغاس، الذي لم يتزوَّج بعد، والمهندس كاماتشو، وكيل سِنجر لآلات الخياطة، والمحامي موريُو، وغيرهم ممن يختلفون باختلاف الأيام. كانوا يجلسون على المقاعد في الوكالة حيث ينخرطون في الحديث عن السياسة والنساء، ويتلون الأشعار، ويغنُون، وينتقدون الكهنة، فتتعالى الضحكات الرنَّانة في بعض الأحيان إلى حد يجعل الكاهن يشكو

عجزه عن النوم، فهو يقيم على الجانب الآخر من الساحة. كانت لقاءاتهم تستمرُ إلى التاسعة أو العاشرة ليلًا، وهي ساعة مشينة تمامًا في قرية كهذه. ولمَّا كانت هي المرأة الوحيدة في قلب تلك اللقاءات، فقد احتدم غضب الكاهن وقرَّر إعلان الحرب عليها. ذات يوم خرج موكبٌ من الكنيسة مرورًا بالساحة، وإذا بالكاهن يتجرَّأ ويخرج من صفوف الموكب، ويعتلي الرصيف بقفزة واحدة، ويدخل إلى وكالة الشوكولاتة ممسكًا بالصليب ودلو الماء المُقدَّس الذي راح يسكبه على الأرض، ثم انطلق يصلِّي ويبارك ليطرد الشيطان خارج الوكالة. كان ذلك الإجراء الذي اتَّخذه الكاهن على الملأ بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس، فصارت كبرى عائلات القرية تنبذ الآنسة ماريا كليًا. ولم تغد أيٌ من السيدات إلى الوكالة لابتياع الشوكولاتة، وإنما بِتن يرسلن الخادمات أو أحد الهنود لإحضار الطلبية، بل ويبدو أن بعض السيدات آثر طلب الشوكولاتة من تونخا.

أما إيلينا، التي كانت تظلُّ برفقتها في الوكالة لحين إقفال الأبواب ليلًا، فقالت إن الجميع يتعامل بكل احترام مع الآنسة ماريا، وإن الأخيرة مُتحدِّثة لبقة بارعة، يأنس الرجال بحديثها كثيرًا. بطبيعة الحال، لا تذكر إيلينا أمرًا بعينه من تلك الأمور التي كانوا يتطرَّقون إليها في أحاديثهم، إذ يكاد يغلبها النوم طوال وقت الزيارة. فضلًا عن ذلك، كانت إيلينا أصغر مما يسمح لها بالتمييز.

كان روبِرتو يذهب للقائها أيام السوق وحسب، وإن كان يؤثر لقاءها في البيت بعد إقفال أبواب الوكالة، ولذا لم أغد لرؤيته قط.

مرضَت الآنسة ماريا مُجدَّدًا، فقالت بيتسابيه إنها مرضَت مُتأثِّرةً بالغمّ الذي تركه الكاهن في نفسها. ومرة أخرى أُوصِدَت أبواب الوكالة وأصبح الطبيب يتردَّد على البيت كل يوم. في حين مُنِعنا من الصعود إليها.

ذات يوم قصدَتنا بيتسابيه في الباحة وقالت إن الآنسة ماريا مريضة بشدة، ولذا فهي مُضطرَّة إلى البقاء طوال الوقت برفقة الآنسة التي أمرَت بحبسنا في المخزن، المكان الوحيد الذي يُقفَل بابه بالمفتاح.

دخلنا من دون شكوى وكلتانا تفكِّر في الأمر ذاته، بحسب اعتقادي. وأعني بذلك الحقبة التي عشناها في حجرة بوغوتا، مع الفارق أن للمخزن نافذة صغيرة ينساب منها الضياء ونرى من خلالها قطعة من السماء. في المخزن كانت تُحفَظ جوالات البطاطس وأقراص البانيلا[10]. فمزَّقنا الجوال بصبر بالغ، ثم أتَت كل واحدة منا على قرصٍ كامل من البانيلا. وبطبيعة الحال، جاءت بيتسابيه لتسمح لنا بالخروج فوجدَتنا نتلوَّى من فرط المغص، وأُصِبنا بإسهال لازمَنا عدة أيام.

أما الطبيب الذي كان يزور الآنسة ماريا فقد أوصانا بتناول منقوع الأرز ومنقوع قشر الرمان. تحسَّنَت حالتنا فأخبرَتنا بيتسابيه أن الآنسة ماريا تودُّ رؤيتنا، وطلبَت منا الصعود إلى حجرتها.

أذكر أننا سارعنا بالصعود والدخول إلى الحجرة بأقصى سرعة، فوجدنا الآنسة ماريا وقد استلقَت في الفراش بشعرها المُرسَل الطليق، وقميص أزرق مزركش بالدانتيل الأبيض، وبين ذراعَيها طفل وليد.

رأيناه فتسمَّرنا مكاننا كالمشلولتَين. أمسكَت إيلينا بيدي وجذبَتني إلى الوراء حتى اصطدمنا بالجدار المقابل للفراش، وهناك مكثنا، كالمُنوَّمين بالإيحاء.

وبصوت يكاد يكون طفوليًا قالت لنا:

- أهداني إياه الطبيب. اقتربا، تعاليا وانظرا إليه.

أما نحن فلم نحرِّك ساكنًا، واستمرَت إيلينا تعتصر يدي بكل ما أوتيَت من قوَة. شرع الطفل في البكاء، فخرجنا من الحجرة عدوًا. لم نقترب من الفراش، بل نزلنا على الدَّرَج من دون أن نتفوَّه بكلمة واحدة. ذهبتُ مباشرةً إلى الباحة الخلفية ثم تسلَّلتُ إلى داخل الموقد، وتبعتني إيلينا. فلا قلنا شيئًا، ولا بكينا، ولا لعبنا. ببساطة انزوينا على نفسَينا داخل الموقد، كما لو كُنَّا نترقَّب أن تضع الدجاجة بيضةً، وإن لم يكُن هنالك بيض أو دجاج يومذاك، إن هو إلَّا مشهد الطفل الوليد في الطابق العلوي، بين ذراعَيّ الآنسة ماريا.

---

(9) الخِنَّوص: صغير الخنزير.

(10) البانيلا: من صنوف سكر القصب الخام.

الرسالة السادسة

على مدى أيام ظلَّت الآنسة ماريا حبيسة الحجرة برفقة الطفل. لا أذكر كيف ولا متى عدنا لرؤيته، كل ما أذكره أن بيتسابيه راحت تفرغ المخزن من محتوياته ذات يوم، ذلك المخزن الذي أقفلَت بابه دوننا ليلةَ مرضَت الآنسة ماريا. كان المخزن يقع في مركز البيت، إن جاز القول، بين الباحة الأولى والأرض الخلاء. أشرفَت الآنسة ماريا على سير العمل والطفل بين ذراعَيها. أمرَت بأن تُغسَل الأرض المُبلَّطة بالآجر، ثم جِيء من حجرتها بسلة من القش، كانت تُستخدَم مهدًا للطفل. لم يُترَك في المخزن من الأثاث غير كرسي متأرجح وطاولة عتيقة وُضِعَت فوقها أقمصة الطفل الثلاثة التي لم يكُن له سواها. وفي نهار اليوم التالي، حين جاءت بيتسابيه توقظني وتُلبِسني ثيابي، أخبرَتني أن الآنسة ماريا وإيلينا قد عادتا إلى الوكالة. كانت تلك هي المرة الأولى التي أسأل فيها عن الطفل. فقالت بيتسابيه إنه في المخزن.

قفزتُ من الفراش وهرولتُ إلى هناك. دخلتُ على أطراف أصابعي. وجدتُ المهد على حصيرة في منتصف الحجرة، فجلستُ على الأرض ورحتُ أتطلَّع إليه ببطء، شيئًا فشيئًا، كانت له أذنان دقيقتان، مثاليتان، ووجه ناصع البياض، وشفتان ممتلئتان، وشعر أسود خفيف، وقدمان طويلتان نحيلتان، ويدان صغيرتان. لم أتمكَّن من بسط أصابعه الرطبة التي ضمَّها بإحكام. انفرجَت

شفتاه نصف انفراجة من جانب واحد، فبدا وكأنه يضحك. بعد مضي برهة جاءت بيتسابيه بالرَّضَّاعة، ثم حملَت الطفل وجلسَت على الكرسي لتلقمه إياها. فتح الطفل عينَيه اللتَين بدتا كعينَيّ إدواردو، سوداوَين، واسعتَين. لم أكلّ من النظر إليه. سألت بيتسابيه عن اسمه، فقالت إن الآنسة ماريا أطلقَت عليه «الذي لا اسم له»، لأنها لا تفكّر في تعميده. أما أنا وإيلينا فسمَّيناه الطفل.

وإذا حياتي تتبدَّل، فلا الخِنَّوص، ولا الدجاجات بما تضع من بيض، ولا الأشجار بما تثمر من فاكهة، لا شيء بات يهمُّني بقدر ما يهمُّني البقاء معه. كان إذا أفاق جلست بجواره وتحدَّثت إليه ولعبت معه، وإذا غفا جلست عند الباب في انتظار أن يفيق، وإذا بكى هرعت إلى بيتسابيه صارخةً فيها لتأتي بالرَّضَّاعة. منعَت الآنسة ماريا خروجه من الحجرة منعًا باتًّا، إذ لم ترِد أن يراه الجيران أو يسمعوا صوت بكائه. ولأنه لم يكُن يتعرَّض للشمس أو الهواء، فقد أخذ يزداد شحوبًا وشفافيةً يومًا بعد يوم، وإن ظلَّ يكبر ويسمن. لم يكُن له من الثياب إلَّا قميص وحيد من النسيج الأبيض، وحزام طويل حول خصره كانوا يسمُّونه ضمادة الحبل السُّرَي، وطبقًا لما قالت بيتسابيه، فلا يمكن نزع هذه الضمادة وإلَّا تسرَّبَت روح الطفل من خلال سُرَته. سألتها ما الروح فقالت إن الروح كل ما في داخل الواحد منا.

لم تكُن للطفل حفاضات ولا ثياب داخلية، فكان يتبرَّز

ويتبوَّل في المهد المُبطَّن بقطع المطاط الأحمر.

علَّمَتني بيتسابيه كيف أنظِّفه بأوراق الذلب[11] التي كنَّا نلتقطها في الأرض الخلاء، ولكني كنتُ أنام ليلًا ثم أقوم صبيحةَ اليوم التالي لأجده كعادته غارقًا في «الكاكا» حتى شعر رأسه.

عادت الآنسة ماريا إلى حياتها السابقة، فصارت تذهب إلى الوكالة في السادسة صباحًا فلا تعود إلَّا في ساعة مُتأخِّرة من ساعات الليل. ما كانت ترى الطفل إلَّا أيام السبت حين أذهب وبيتسابيه إلى النهر لغسل الثياب بينما تبقى هي مع إيلينا في البيت.

بدأ الطفل يكبر ويُصبح كثير الحركة، فاستُبدِل بالمهد المصنوع من القش أحد صناديق الشوكولاتة الخاوية. كانت تلك الصناديق عميقة للغاية، حتى إنني كنتُ أمدُّ ذراعَيّ عن آخرهما فأكاد أعجز عن الوصول إلى القاع لتنظيفه. كنتُ أتسلَّق حجرًا ثم أتسلَّل إلى الصندوق بمُجرَّد أن ترفع بيتسابيه ناظرَيْها عني، فيضحك الطفل ويصرخ من فرط البهجة. ومثلما كان الخِنَّوْص لي أنا، لا يرعاه أحد سواي، هكذا كنت أشعر بأن أحدًا لا يرعى الطفل سواي، وبأنه لي وحدي.

لم تكُن الآنسة ماريا تأخذني إلى الوكالة إلَّا إذا أُقيم احتفال في الساحة. ذات يوم قالت لبيتسابيه أن تُلبِسني ثيابي وتأخذني إلى الوكالة في المساء لمشاهدة الألعاب النارية والمفرقعات. بطبيعة الحال، تركنا الطفلَ وحيدًا، وباب البيت مُقفلًا دونه. وحين بلغنا الساحة

وجدنا فناء الكنيسة حافلًا بالناس، وكذلك الأرصفة. أما أنا فحملوني ووضعوني فوق منضدة عرض البضائع في الوكالة. كانت الألعاب النارية قد بدأت في الانطلاق، وتعالت الأغاني وأنغام الجيتار الآتية من كل مكان. وفجأةً سمعنا ضجيجًا مُروِّعًا، ضجيجًا لا يشبه شيئًا، فانطلق الناس يركضون في كل اتجاه، والتجأت غالبية الموجودين إلى الكنيسة، في حين لاذ آخرون بالبيوت، وتسلَّق الفتية الأشجار، أما الوكالة التي كانت على الجانب المرتفع من الرصيف فقد اكتظَّت بالناس، وأخذ الضجيج يدنو أكثر فأكثر. وفجأة تمثَّل أمامنا مسخٌ أسود مُروِّع، أتى من خلف الكنيسة ومضى نحو منتصف الساحة. كانت له عينان هائلتان، مفتوحتان، ضاربتان إلى الصفرة، تشعَّان نورًا بلغ من القوة حدًّا جعله يغمر نصف الساحة. فارتمى الناس جاثين وطفقوا يبتهلون ويرسمون علامة الصليب. وطرحَت امرأة صغيرَيها على الأرض ثم ألقَت بنفسها فوقهما لتذود عنهما بجسدها كما تحمي الدجاجات بيضها. وأقبل على الساحة نفر من الرجال مُسلَّحين بالعصي الطويلة. توقَّف الحيوان في منتصف الساحة، ثم أغمض عينَيه.

كانت تلك هي أول سيارة تصل إلى غواتيكيه.

وداعًا.

الليلة يهبط أول إنسان على سطح القمر. قبلاتي.

إيمًا.

باريس/1969.

---

(11) الذلب: نبتة ذات أوراق طويلة تنمو في المناطق الاستوائية.

الرسالة السابعة

عزيزي خيرمان،

كان وصول السيارة الأولى، وانطلاق الألعاب النارية والمفرقعات، بمثابة نقطة البداية في أسبوع من الاحتفالات التي أُقيمَت بمناسبة زيارة محافظ بويوكا.

أختُتِمَت الاحتفالات يوم الأحد بمصارعة ثيران ضخمة. كانت تلك أول مرة نرى فيها أنا وإيلينا مصارعة الثيران. وبتلك المناسبة أعدَّت لنا الآنسة ماريا ثوبَين جديدَين من القطن، لونهما أخضر، كلاهما مزركش ومُزيَّن بالزخارف الحمراء، كما ابتاعت لبيتسابيه وشاحًا تتدلَّى منه الأهداب الحريرية، وصندلًا جديدًا.

تناولنا طعام الغداء في البيت، ثم ارتدينا ثيابنا، وألقمنا الطفل رضَّاعته، وأوصدنا النوافذ والأبواب كافة. تركنا الطفل وحده تمامًا، وذهبنا جميعًا إلى الوكالة.

أحيطَت الساحة بالأسيجة لئلًا تهرب الثيران. وفي فناء الكنيسة أقيمَت منصة من الخشب كما وُضِع مقعد خصيصًا من أجل المحافظ، فكأنه عرش ضخم يكسوه النسيج الأحمر. زُيِّنَت نوافذ البيوت وشرفاتها بأكاليل من الأزهار الورقية والأعلام الوطنية.

نصَبَت الفرقة الموسيقية معدَاتها في فناء الكنيسة، الفرقة الآتية من غواتابيتا[12]. ورويدًا رويدًا، غصَّت شرفات البيوت بالناس، وتكدَّس الهنود الذين جاؤوا من سائر القرى المجاورة في أركان الساحة وخلف الأسوجة.

أما الآنسة ماريا فقد تعاونت وبيتسابيه على وضع ما يشبه الحاجز باستخدام صناديق الشوكولاتة الخاوية، وذلك لئلَّا يقتحم المتفرِّجون الوكالة. وهكذا أحكِم إقفال البابَين. وقفنا على المقاعد داخل الوكالة. ولمَّا كان هذا الموضع أكثر ارتفاعًا بكثير، فقد أشرفنا على الساحة بأسرها كمن يطلُّ من الشرفة. انطلقَت أولى الألعاب النارية، وشرعَت الفرقة في عزف أغنية الغواتيكي[(13)]. فتعالى هتاف الجميع وطفقوا يصفِّقون على وقع الموسيقى. انطلقَت الألعاب النارية بكثافة أكبر، وتمثَّل لنا موكب المحافظ آتيًا من أقصى طرف الساحة، تتقدَّمه بنات آل مونتيخو، مُتوَّجات بأكاليل من الأزهار، وهن يرفلن في ثيابٍ بيضٍ طوالٍ، وأجنحة بيض من الورق تشبه أجنحة الدجاجات. قالت الآنسة ماريا إن تلك الكائنات تُدعَى ملائكة، وإن الغرض من الأجنحة هو التحليق إلى السماء. مضين حاملات سلالًا من بتلات الأزهار، وطفقن ينثرنها على الأرض ليهتدي المحافظ إلى الطريق التي يجدر به أن يسلكها. مضَت الملائكة وفي أثرها سيدات آل موريِّو وآل مونتيخو وآل بوروكيس وأخوات الكاهن اللائي حملن راية ضخمة مُزيَّنة بالكثير من الأشرطة المُلوَّنة وتتصدَّرها صورة عذراء تشيكينكيراه[(14)]. مضى عدد من الجنود خلف الراية، وأخيرًا جاء المحافظ في موكب هائل من الخيّالة يضمُّ أزواج السيدات حاملات الراية، بمن فيهم العمدة والطبيب وصديقنا روبرتو الذي امتطى جوادًا

أسود، وإلى جواره المحافظ الذي امتطى جوادًا أبيض هائلًا. وقف الأب الكاهن يترقَّب وصول الموكب في فناء الكنيسة، والفرقة الآتية من غواتابيتا ما زالت تعزف أغنية الغواتيكي، خلع الرجال قبعاتهم، وهتف بعضهم بحياة الحزب الليبرالي، أما البعض الآخر فهتف بحياة الحزب المحافظ.

جعل المحافظ يجوب أرجاء الساحة في موكبه، ومن الشرفات انهالت عليه أزهار القرنفل والصيحات الهاتفة بحياته. كنا أنا وإيلينا نتقافز من فرط السعادة. اقترب الموكب من الوكالة فسارعَت الآنسة ماريا بالتواري خلف أحد البابَين. في تلك اللحظة رأينا المحافظ الذي أقبل برفقة روبِرتو، وعرفنا أنه هو نفسه السيد الذي زارنا في حجرة سان كريستوفر بمدينة بوغوتا. ما إن لمحته حتى شرعت في الصراخ:

- آنسة ماريا، تعالي، تعالي وانظري إليه، إنه والد إدواردو، والد إدواردو، والد إدو...

فأجابتنا قرصًا في السيقان، حتى طفرَت دموعنا. لم أكُن قد رأيتُها غاضبة إلى هذا الحد يومًا. جذبَتنا من ذراعَينا وطرحَتنا أرضًا، ثم خلعَت فردة حذائها وأوسعَتنا ضربًا على الرأس والوجه، وحيثما اتَّفق.

- أيتها الحقيرتَان، أيتها الحقيرتان، أيتها الحقيرتان...

لم تصدر عنها كلمة سواها. أدركها التعب من فرط ما ضربتنا بالحذاء، فجذبَتنا من ضفائرنا وراحت تضرب رأسَينا بالجدار حتى سالت دماؤنا على أرجلنا وأذرعنا.

أخذَت بيتسابيه تتوسَّل إليها كي تكفَّ عن ضربنا. أما هي فألقَت بنا خلف منضدة العرض وحظرَت علينا الحركة.

عادت كلتاهما إلى الباب، والحضور ما زالوا يهتفون بحياة المحافظ، والفرقة الموسيقية تعزف الغواتيكي مرة أخرى، والألعاب النارية تدوِّي في كل أرجاء المكان. وحين انطلقت الثيران، جاءت إلينا بيتسابيه ثم أخذَتنا إلى الباب، بينما وقفَت الآنسة ماريا عند الباب الآخر تتحدَّث إلى رجل أتى يسلِّمها رسالة.

كان الثور الأول ضاربًا إلى الرمادي، يسيل الزبد من خطمه، ويبدو في غاية الهياج. أما المصارع فممشوق القوام، نحيله، يرتدي بنطالًا أبيض، يبدو عليه قصيرًا بعض الشيء. أمسك المصارع قبعة بيد وباليد الأخرى وشاحًا أحمر يجتذب الثور به. ظلَّت الألعاب النارية تدوِّي والفرقة تكرِّر الغواتيكي، أما الآنسة ماريا فالتفتَت إلينا وأمرَتنا بالعودة إلى خلف منضدة العرض عقابًا لنا. استمرَّت المصارعة في حين استسلمنا للنعاس على الأرض. وإذا بي أفيق على صرخات مُروِّعة. أحسستُ بالصناديق المُتراصَّة أمام الباب تتداعى، وفي دقيقة واحدة ازدحمَت الوكالة بالناس، رجالًا ونساءً وأطفالًا، جاؤوا هربًا من ثور يطاردهم. شرع أحدهم في التقاط أرطال الشوكولاتة المُتراصَّة على الأرفف ليقذف بها رأس الثور. بدا الثور هادئًا، وقد رفع قائمتَيه الأماميتَين على منضدة العرض. وأخيرًا، تعاون أربعة على الإمساك

بذنبه وسحبه إلى الوراء. فما كان من الثور إلَّا أن رفس مرتَيْن ثم انطلق يطارد امرأة في ثوب أحمر. أخرجَتنا بيتسابيه من خلف منضدة العرض ثم أوقفَتنا على صندوق وأشارت إلى الطرف الآخر من الساحة. أخذ الجميع يشير إلى الموضع نفسه وينظر إلى هناك. في أول الأمر لم أرَ سوى عمود هائل من الدخان الأسود، وشيئًا فشيئًا بدأتْ أرى ألسنة اللهب التي تعالت حتى بلغَت أبراج الكنيسة. كانت ألسنة اللهب رائعة الجمال، بكل درجات الأحمر والأصفر والأرجواني. وكادت رؤية البيوت والناس تتعذَّر من كثافة الدخان الذي غشي جزءًا من الساحة، بينما الجميع يصرخ ويركض في كل اتجاه.

وراحت الثيران تلاحق الناس وتطرحهم أيضًا، صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساءً. خرج الناس من البيوت مُحمَّلين بالدلاء والأباريق والدوارق، الكل يهرع لاغتراف المياه من النافورة في وسط الساحة، بينما حاول آخرون السيطرة على الثيران التي ما زالت طليقة، مستعينين على ذلك بالعصي والأرسان. انطلقَت أجراس الكنيسة في استماتة، وألسنة اللهب ما زالت تتعالى. وإذا بأحد الثيران ينطح عجوزًا مفرطة البدانة تحمل إبريقَين على جانبَيها. فهوَت العجوز في منتصف النافورة، وكادت تفرغها من المياه. هرع رجال آخرون مُحمَّلين بالأفرُع الخضر وجوالات الرمال. واندلعَت ثورةٌ في البلدة بأسرها، حيث أخذ الكلُّ يسعى لإطفاء الحريق. هبَّت

الريح في اتجاه النيران، وانتشرَت ألسنة اللهب من بيت إلى آخر، فلم يبقَ سوانا في الوكالة. لبثث هناك لا أملك رفع ناظري عن ألسنة اللهب. أقبل علينا أحد أفراد آل مونتيخو وأخبر الآنسة ماريا بأن الحريق قد اندلع في المستشفى، حيث سقطَت واحدة من الألعاب النارية مشتعلةً على السقف المصنوع من القش. أما نزلاء المستشفى الخمسون فقد لقوا حتفهم وسط النيران، لأن المدير كان قد ذهب لمشاهدة مصارعة الثيران، تاركًا باب المستشفى مُقفلًا دونهم بالمفتاح، فلم يتمكَّن أحد منهم من الخروج. من حسن حظنا أن الحريق اندلع في الاتجاه المعاكس لبيتنا، أي في الجانب الخفيض من المدينة. تطايرَت ألسنة اللهب من شارع إلى آخر، وانبطحَت النساء أرضًا داخل فناء الكنيسة، مبتهلات، صارخات، والرجال يحملون جوالات من الرمال وفروعًا تكاد تكون في حجم الأشجار. دام الحريق ثلاثة أيام، فلم يتبقَّ في الجانب الخفيض من البلدة إلَّا الرماد. تجاوز عدد الموتى والجرحى المئة تحت وطأة الحريق ونطحات الثيران. ولأيام طوال اصطبغَت السماء بلون رماديٍّ قاتم، يكاد يكون أسود، وتسلَّلَت رائحة الحريق إلى كلِّ البيوت والحجرات، حتى فاحت من الثياب والطعام والمياه.

ولسوف يبقى ذلك الحريق في ذاكرتي أجمل وأروع ما رأت عيناي من العروض وأنا في عمر الطفولة. بل إنني، ولزمن مديد، ظللث أحسبه فقرةً مُقدَّمةً في إطار

الاحتفالية التي أقيمَت على شرف السيد المحافظ.

باريس، أكتوبر/1969

---

(12) غواتابيتا: بلدة كولومبية تبعد 75 كيلومترًا عن العاصمة بوغوتا من جهة الشمال الشرقي.

(13) الغواتيكي (ابن بلدة غواتيكيه): أغنية من تلحين وتأليف إميليو مورِيُو تشاپول، مُهداة إلى البلدة التي تدور فيها حوادث هذا القسم من الكتاب.

(14) تشيكينكيراه: بلدة كولومبية تقع في مقاطعة بوياكا وتبعد 115 كيلومترًا عن العاصمة بوغوتا من جهة الشمال.

الرسالة الثامنة

عزيزي خيرمان،

في أعقاب الاحتفالية والحريق عاد كل شيء إلى طبيعته. فلم يطرأ على حياتنا سوى شيء واحد فحسب، إذ اكتسبَت الآنسة ماريا عادة جديدة، فقد صارت تعتدي علينا بالضرب. ولأنها كانت تضرب الواحدة منا فتبكي الأخرى أيضًا، قرَّرَت أن تضربنا معًا في كل مرة، أيًا كانت المخطئة.

ذات يوم جاءت إلى البيت وهي في مزاج عكِرٍ للغاية. كان الطفل يبكي لأن موعد تناول الرضعة قد حان، ولكنها قرَّرَت أن تحمِّمه يومذاك. جرَّدَته من الثياب تمامًا، ورفعَته عاليًا جدًا ثم نظرَت إلى وجهه قائلةً:

- هذا التعِس بدأ يشبه إدواردو.

عندئذ قالت لها إيلينا إن الاحتفاظ بإدواردو كان أفضل من صنع طفل جديد. لم تكُن إيلينا قد أنهَت عبارتها حين انهالت عليها الآنسة ماريا بالصفع المبرح. وقبل أن تفرغ من ضرب إيلينا، سارعتُ أنا إلى الاختباء في الموقد، فهو الموضع الوحيد الذي تعجز عن بلوغه.

في اليوم التالي لم تذهب إلى الوكالة، بل لزمَت حجرتها طوال اليوم، وباب الحجرة مُقفَل. صعدَت بيتسابيه إليها بالغداء فقالت إنها لا ترغب في الطعام. بدأ الظلام يخيِّم فاستدعَتنا إلى حجرتها بالأعلى، وإذا الفوضى قد عمَّت كل شيء، والصناديق المفتوحة تتوسَّط الحجرة: كانت قد بدأت تحزم الثياب. قالت إننا

عائدون إلى بوغوتا، ولامتنا في كل ما ألمَّ بها من مصائب:

- لولاكما لكانت لي حياة غير هذه الحياة، لولاكما لما أتيث إلى هذه البلدة البائسة. كان في وسعي الذهاب بعيدًا للغاية، والفوز بكل شيء في الحياة. ولكنكما عثرة في طريقي دومًا، فأنا مُقيَّدة كالحيوان، أجل، مُقيَّدة كالبقرة، ولكني أجزم بأن هذا الحال لا يمكن أن يطول، أقسم أن أتخلَّى عنكما في أول فرصة، لستُ آبه إلى من أتخلَّى عنكما، ولسوف تذكران كلماتي. والآن، اغربا عن وجهي، ولا تدعاني أراكما مرة أخرى وإلَّا أوسعتكما ضربًا بالعصا.

أخذَت كلٌّ منا بيد الأخرى ونزلنا الدَّرَج، ثم اتَّجهنا مباشرةً إلى حجرة الطفل، حيث جلسنا قرب السلَّة وأجهشنا بالبكاء، بينما الطفل ينظر إلينا فاتحًا عينَيه الواسعتَين، وكما لو أنه قد أحسَّ بألمنا الدفين، طفرَت الدموع من عينَيه وانسابت غزيرة، وإن لم تندَ عنه صرخة واحدة. كل ما هنالك أنه جعل يزمُّ شفتَيه، وحزن دفين يطلُّ من عينَيه.

استمرَّت تجهيزات الرحلة أيامًا. ولأن الآنسة ماريا لم تعُد تتردَّد على الوكالة، فقد لزمَت البيت طوال الوقت، وبات مُجرَّد قول أجل أو كلَّا يكفيها للصراخ فينا أو صفعنا. كانت أيامًا طويلة وحزينة جدًا.

عشيةَ الرحلة جاء توريبيو بالخيل، جاء ومعه ثلاثة هنود آخرين، فباتوا ليلتهم في الأرض الخلاء، بين غناء

وعزف على الجيتار. كان توريبيو يحبّني حبًا جمًا، فأهداني سلّةً صغيرة ملآنة بالكرز. ليلتها نمنا جميعًا في حجرة واحدة، وقد افترشنا بضع حصائر، أما الطفل فنام في سلّته كما جرَت العادة دومًا. أيقظوني والظلام لا يزال مُخيِّمًا. كانت بيتسابيه قد أعدَّت الفطور في حين كانت الآنسة ماريا تحمِّم الطفل، الأمر الذي لم تكُن تفعله إلّا في ما نَدَر، فما كان يمسح وجهه وينظِّف بدنه من «الكاكا» سواي. ساعدَتني إيلينا على ارتداء ثيابي في حين راحت بيتسابيه تضع على الطفل الأسمال البالية القليلة التي تمثِّل مجموع ثيابه. كنت أتناول منقوع الڤانيلا مع رغيف الخبز الأسمر، فيما هما تلفّان الطفل في غطاء واسع وتحكمان شدَّه بما يشبه الزُّنّار الأبيض. نزلَت بيتسابيه كي تجدل ضفيرتَيها وتأخذ وشاحها. أما الآنسة ماريا التي كانت أعصابها في غاية التوتُّر فقد شرعَت تصرخ فيها وتستعجلها لئلّا نصل مُتأخِّرين.

وضعَت بيتسابيه الطفلَ في السلّة مع ثيابه، وأخذَت بيدي ثم خرجنا ونحن نكاد نركض. خرجنا والخيل تصهل، وتوريبيو يغنّي في الأرض الخلاء.

وفي الطريق قالت لي بيتسابيه إننا ذاهبتان إلى النهر. كان الظلام مُدلهِمًا إلى حدٍّ أعجزني عن رؤية الطريق، وهبَّت الريح شديدة كما في يوم الحريق. بلغنا الجسر الذي كنتُ أعرفه تمام المعرفة، ولكن بدلًا من النزول إلى النهر حيث نغسل الثياب دومًا، مضينا قدمًا

ثم عبرنا دربًا ضيِّقًا يمتدُّ بمحاذاة النهر وتحفُّه أشجار باسقة. في نهاية الدرب رأينا بيتًا كبيرًا أبيض، لم يكُن مسقوفًا بالقش، وإنما بالقرميد. طلبَت مني بيتسابيه أن أنتظرها قرب شجرة تميل على النهر. تابعتُها بعينَيَ، فرأيتُها تسير على أطراف أصابعها، خفيفًا، خفيفًا، وكأنها تودُّ التحليق في الهواء. دنَت من البوابة الواسعة حيث وضعَت السلَة بجوار الباب أولًا ثم أودعَت بداخلها الطفل. وحين بدأت تواري رأس الطفل تحت الغطاء، عند ذاك أدركتُ أننا قد ذهبنا كي نتخلَّى عنه هناك. وددتُ لو أصرخ، فلم أستطِع. ارتعشَت ساقاي، وإذا بي أثب كالزنبرك صوب البوابة. أدركَتني بيتسابيه وأمسكَت بإحدى ساقَيَ، ألقيتُ بنفسي ورحتُ أضرب الأرض برأسي. شعرتُ بالاختناق. أرغمَتني بيتسابيه على النهوض ولكني تشبَّثتُ بالنباتات وأخذتُ أتلوَّى كالدودة. جعلَت بيتسابيه تتوسَّل إليَّ في ما يشبه الهمس، وترجوني للقيام من دون إحداث ضجة، والمسارعة بالذهاب قبل أن يصحو أحدهم، في حين ظللتُ أنا مُتشبِّثة بالنباتات، ووجهي في الأرض. أعتقد أني في تلك اللحظة تعلَّمتُ معنى الظلم دفعةً واحدة، تعلَّمتُ أن طفلًا في الرابعة من العمر قد يشعر بأنه لا يرغب في العيش أطول مما عاش، ويشتهي أن يبتلعه جوف الأرض. ولسوف يظلّ ذلك اليوم هو أقسى أيام حياتي، بلا أدنى شك.

لم أبكِ، لأن الدموع لم تكُن لتكفيني. لم أصرخ، لأن

شعوري بالتمرُّد فاق صوتي شدةً. أما بيتسابيه، الجاثية إلى جواري، فراحت ترجوني أن أقوم. بدأ الطفل يبكي، فشعرتُ وكأن بكاءه آتٍ من جوف الأرض، فرفعتُ رأسي ورأيتُ وجه بيتسابيه غارقًا في الدموع. خارت مقاومتي تمامًا، ومددتُ لها يدي، فجذبَتني وحملَتني بين ذراعَيها ثم انطلقَت تركض كالمجنونة. شعرتُ بها تضمَني إليها بقوة، بقوة، ودموعها تتساقط خلف أذني وتنساب على عنقي، بأنفاس شبه مقطوعة. لم تتوقَّف حتى بلغنا الجسر. أما البقية فلا أذكر منها شيئًا، لا أذكر سوى توريبيو وهو يُجلِسني فوق المقعد المُثبَّت على ظهر البغل الذي سيقلّنا إلى بوغوتا. حكَت لي إيلينا أني بقيتُ عاجزةً عن النطق ثلاثة أيام. فتملَّك الخوف الآنسة ماريا خشيةً من أن أكون قد أُصِبت بالخرس. كانت رحلة العودة كرحلة الذهاب، غير أن بيتسابيه رافقتنا تلك المرة. وامتطينا بغلًا سريعًا للغاية، على عكس السيد حمار. غالب الظن أني لا أذكر من التفاصيل شيئًا لأني ما عدتُ آبه للحياة آنذاك. كانت الرحلة الأولى تمثِّل التخلِّي عن إدواردو، أما الثانية فالتخلِّي عن الطفل.

سيدي المُوقَّر، حزينةٌ أنا، فهذه الرسالة ليسَت كما وددتُ لها أن تكون، ولكني أشعر بالعجز عن كتابتها مرة أخرى.

قبلاتي لجميع أفراد الأسرة، لا تنسوني.

إيمًا

باريس، أكتوبر/1969

الرسالة التاسعة

عزيزي خيرمان،

وصلنا إلى بوغوتا، حيث نزلنا جميعًا في حجرة واحدة بفندق بائس قرب محطة سابانا، حجرة مسقوفة بالصفيح ومُبلَّطة بالآجر، تقع في الباحة الأخيرة قرب المغسلة. في تلك الحجرة، لم نكُن نتجمَّد من فرط البرودة وحسب، بل وكنَّا نغرق في عتمة حالكة إلى حدٍّ يضطرّنا لإيقاد الشموع نهارًا حتى نتمكَّن من الرؤية. كانت السيدة ماريا تخرج كل يوم إلى الشارع ولا تعود إلَّا في الليل. كانت تترك لثلاثتنا عشرة سنتات من أجل الطعام، فلم تكُن تكفي سوى لشراء الخبز وأقراص الپانيلا. كنَّا نقضي نهارنا في الحجرة أو نجلس في الباحة إن سطعت الشمس قليلًا، أما بيتسابيه فكانت تقضي نهارها باكية، وتقول إنها تودُّ العودة إلى غواتيكيه. كانت تشعر برعب حقيقي من الخروج إلى الشارع، فطلبَت من عجوزتَين مقيمتَين في الباحة نفسها أن تحضرا الخبز وأقراص الپانيلا من أجلنا، ذلك أن الحانوت يبعد ثلاثة مربعات سكنية عنا، وهي ترتعد خوفًا من الذهاب بعيدًا إلى ذلك الحدّ في تلك المدينة مترامية الأطراف.

في الفندق نفسه نزلَت امرأة من تونخا، كانت تعيش برفقة رجل شرطة، ولها ابنتان أكبر منا كثيرًا. كانت في غاية اللطف، وهي الوحيدة التي تتحدَّث إلينا قليلًا. علمَت أننا لا نذوق من الطعام سوى الخبز وأقراص

الڤانيلا، فقالت لبيتسابيه إن ذلك أمر غير صحّي على الإطلاق، وإننا سوف نُصاب بالديدان، وقالت إن ما نأكله مُجرَّد نزر يسير من الطعام، وإنها تُعِدُّ لنفسها ولابنتَيها يخنة ماساموزًا أكثر تغذية. وفيما هما تتناقشان حول تكلفة الماساموزًا جاءت العجوزتان اللتان تحضران إلينا الخبز وأقراص الڤانيلا. لا أدري كيف اهتدين إلى الصيغة التالية: لو أسهم ثلاثتنا بعشرة سنتات، وأسهمَت العجوزان بعشرة سنتات، وأسهمَت زوجة الشرطي بعشرة سنتات أخرى، لأصبح في وسعنا إعداد يخنة ماساموزًا باللحم والبطاطس والفاصوليا من أجل الجميع. لم تواجهنا سوى مشكلة واحدة: الحصول على قدر كبيرة جدًّا. فبمبلغ كهذا يمكن إعداد يخنة تكفي صحنَين لكلٍّ منا، نتناول الصحن الأول ظهرًا، أما الثاني فيمكن تسخينه ليلًا، وذلك طبقًا لما قالت زوجة الشرطي. قالت بيتسابيه إنها قد ادَّخرَت خمسة سنتات، وإنها سوف تساهم بها من أجل شراء القدر، كما ساهمَت كلٌّ من العجوزتَين بسنت واحد، أما زوجة الشرطي فقالت إنها لن تساهم في شراء القدر لأنها صاحبة الموقد. في الشارع الواقع خلف محطة القطار كانت توجد سوق، فعزمن على الذهاب جميعًا للسؤال عن تكلفة القدر الفخارية الضخمة. كانت تكلفة القدر عشرين سنتًا، في حين لم يتوفَّر لدينا سوى السبعة سنتات التي أسهم بها كلٌّ من بيتسابيه والعجوزَتين. تحدَّثَت بيتسابيه إلى السيدة ماريا التي كان ردّها الأول أننا

سوف ندفعها إلى الإفلاس، ثم قرَّرَت أن تمنحنا خمسة سنتات من أجل شراء القدر. في اليوم التالي زففنا إليهن البشرى السارة، فقد أصبح لدينا اثنا عشر سنتًا. فقالت زوجة الشرطي إنها سوف تساهم بالثلاثة سنتات التي ادَّخرَتها لشراء الصابون. كانت تقيم في الباحة الأولى امرأةٌ تميل بشرتها إلى السواد، لها ابن كبير يعمل في حمل الفحم المُستخدَم في تسيير القاطرات، فكان مُلطَّخًا بالسخام طوال الوقت. كنَّا نخاف النظر إليه. عزمَت زوجة الشرطي على الحديث إليها لعلَّها ترغب في المساهمة معنا في يخنة الماساموزًا. قبلَت المرأة وابنها، فذهبن لشراء القدر في اليوم نفسه. وفي اليوم التالي أكلنا أول ماساموزًا لنا، فكان ذلك حفلًا بحق. تعاون الكل على وضع القدر الضخمة في حوض الباحة الخلفية، وأحاطوها بالكثير من الأطمار. ثم تحلَّق الجميع حولها، كلٌّ يمسك بصحنه، وإذا القدر عامرةٌ بقطعة لحم مُقدَّسة شهية لكل واحد منا، فضلًا عن الكثير من البطاطس والفاصوليا والخضار، كما أُضيف إلى تلك الماساموزًا قدرٌ من الطحين. كانت زوجة الشرطي هي التي تولَّت أمر الذهاب إلى السوق لشراء المستلزمات، ثم تقديم الطعام للجميع. وبطبيعة الحال، نشأت الصداقة بين الجميع، كما نشأت صداقة وثيقة بين حمَّال الفحم وبيتسابيه. أما السيدة ماريا فلم تشاركنا اليخنة قط، ذلك أنها لم تكُن هناك في أغلب الأحيان، فهي حتى عندما لا تغادر الفندق، كانت تلزم

حجرتها وتوصد الباب. لم تصادق أحدًا، بل كانت تكتفي بإلقاء تحية الصباح ثم تمضي إلى حال سبيلها. كانت تقول عنهم إنهم من الغوغاء، وإن بدا لها من المُستحسَن أن نتناول يخنة الماساموزًا معهم كل يوم.

كان قد مضى علينا في ذلك البيت قرابة شهر، وقد صارت يخنة الماساموزًا وسيلة الترفيه الوحيدة المتاحة أمامنا. أما الصحن الثاني، فكنّا نعيد تسخينه في السادسة مساء، ونتناوله خاليًا من اللحم. ابتداءً من تلك الساعة كان الواصل إلى الباحة يجلس مُترقِّبًا، فلا تكاد تظهر القِدر حتى يصيح الكل صيحة مفعمة بالبهجة. وذات مساء، حضر الشرطي زوج دونيا إينيس، وهو الاسم الذي كان يناديها الجميع به. شرعَت دونيا إينيس تقدِّم الطعام وقد أحنَت ظهرها ممسكةً بالصحن والمغرفة، والكل شاخصٌ إليها. وإذا دويُّ رصاصتَين يجعلنا نرفع أبصارنا عن القدر (بوم بوم)، لنجد الشرطي ممسكًا بالمسدس الذي أطلق منه رصاصتَين على زوجته. انكفأت المرأة كالحجر على قدر اليخنة الذي تهشَّم وبات ألف شظية. هرول الكل مبتعدًا، أما بيتسابيه فدفعَتنا ناحية باب الحجرة التي دخل ثلاثتنا إليها وأقفلنا الباب من الداخل بالمفتاح. لم تلقَ المرأة حتفها، غير أننا لم نعُد لتناول اليخنة قط، ذلك أن جمع المبلغ اللازم لشراء قدر جديدة كان شيئًا في عداد المستحيل. أما من جانبها، فقد حظرَت علينا السيدة ماريا أي شكل من أشكال التواصل مع أهل البيت. بعد

أيام قليلة أخبرَتنا أنها قد عُهِد إليها بإدارة وكالة توزيع الشوكولاتة في بلدة تُدعَى فوساغاسوغا[15].

قطعنا شوطًا من الرحلة على متن القطار، والبقية على صهوة الخيل. ولكن الطريق إلى هناك ما كانت تشبه الطريق إلى غواتيكيه، بل كانت أشد وعورة وبرودةً بكثير. كان الهنود الذين رافقونا يحتسون عرق الذرة طوال الرحلة، ولم يعُد توريبيو معهم حتى يعتني بنا. وصلنا إلى فوساغاسوغا والمطر ينهمر مُخيفًا، فلم نستطِع أن نجد مَنْ يدلّنا على موقع الوكالة. أخيرًا اهتدينا إليها بعد أن خيَّم الظلام. كانت الوكالة تقع في بيت المسرح، وهو بيت مترامي الأطراف له واجهة مُؤلَّفة من طابقَين، تتقدَّمه بوابة هائلة من الخشب تؤدِّي إلى المسرح، ويليها شباك التذاكر، ثم مخزن ضخم له أبواب تطلُّ على الشارع أيضًا، وإن كانت موصدة بصفة دائمة، وأخيرًا كانت الوكالة. كان لها بابان، شأن وكالة غواتيكيه. وفي القسم الخلفي، وراء الأرفف، كان باب يفضي إلى داخل البيت، ثم دَرَج يؤدِّي إلى الطابق الثاني على اليمين. أما الحجرتان الأولى والثانية، الواقعتان فوق الوكالة على وجه التحديد، فقد حُجِزَتا من أجلنا، في حين أوصِدَت الأبواب الستة المُمتدَّة بطول الرواق، والمفضية إلى حجرات مُكتظَّة بمُعدَّات الإضاءة وقِطع الأثاث المُستخدَمة في المسرح. لم تكُن تلك الحجرات تُفتَح إلَّا في ما نَدَر، إذ كانت فرقة مسرح أو باليه تمرُّ من هناك مرتَين أو ثلاث مرَّات كل عام. في

الأسفل كانت باحة العرض الكبيرة بما فيها من مقاعد مُثبَّتة في الأرض لئلًا يتمكّن المشاهدون من تحريكها. كانت باحة العرض مكشوفة، ولذا كان العرض يُلغَى إن تساقطَت الأمطار. على اليسار ارتفع جدار ضخم عالٍ جدًا، ولا شيء سواه، في حين امتدَّ البيت على اليمين، أما فوق الرواق فكانت حجرتان أخريان تُخزَّن فيهما صناديق الشوكولاتة. كانت باقي الأبواب والنوافذ مُصفَّحة بقضبانٍ من الحديد، بما فيها الباب الصغير المفضي إلى ذلك القسم من البيت، ذلك الذي ما كان يُسمَح بالدخول منه سوى لمالكتَي البيت، الآنستَين كاستانييدا، الأختَين العجوزتَين اللتين تعتنيان بشقيقهما الأصغر لأن به مسًا من الجنون، الجنون الجامح. لم ندخل من ذلك الباب قط، ولكن الخادمة العجوز أخبرَت بيتسابيه أن المجنون يُترَك في الدهليز مُكبَّلًا بالأغلال، لأن الأختَين كانتا تحبَّانه جدًا، ولم تسمحا بإيداعه في المصحة. ما كانت العجوزتان تخرجان قط، فلم أرَ إلًا رأس واحدة منهما ذات يوم. وما كان يدخل إلى ذلك القسم من البيت أو يخرج منه سوى الخادمة ومحامٍ مُسنّ أوكلت إليه شؤون البيت والمسرح. في القسم الخلفي من باحة العرض استقرَّت خشبة المسرح التي كانت عبارة عن صندوق هائل له أرضية من ألواح خشبية ومسقوف بصفائح الزنك. وخلف خشبة المسرح امتدَّ دَرَجان، واحد على كل جانب، كلاهما يفضي إلى باحة أخرى كبيرة فيها عدد

من الحجرات المصنوعة من الخشب، فكانت تلك الحجرات عندي كالفردوس، بما حوَت من الثياب المُلوَّنة بجميع الألوان، الطويل منها والقصير، فضلًا عن العباءات والقلانس والتيجان والسيوف ومراوح اليد والقلائد والأحذية والقفازات والقبعات والشعر المُستعار بجميع الألوان، ودون ذلك ألف وألف من الأشياء التي كنتُ أراها لأول مرة في حياتي، أشياء لم تكُن بيتسابيه ولا إيلينا تعرف لها اسمًا ولا نفعًا. حين وصلنا كانت فرقة إسبانية تحضر كل يوم لعمل البروفة. لم أفهم شيئًا مما يدور بينهم، وإن كنتُ أكتفي من الترفيه برؤيتهم في سيرهم، ودخولهم، وخروجهم، وركضهم، وحديثهم. تعلَّمتُ منهم لعبة المسرح. فكنتُ أضع الثياب بألف طريقة مختلفة، وأصعد إلى خشبة المسرح، وأبتكر الحكايات بصنوفها كافة. عادةً ما كنتُ أتخيَّل نفسي وأنا أتحدَّث إلى إدواردو أو الطفل، وأحيانًا كليهما. أما إذا لعبتُ مع إيلينا فكُنَّا نتظاهر أنها السيدة ماريا وأنني بيتسابيه. كُنَّا نلعب لعبة يخنة الماساموزًا ودونيا إينيس التي انكفأت على القدر. ذات يوم أردنا أن نلعب لعبة حريق غواتيكيه، فجاءت بيتسابيه وأخذَت منا أعواد الثقاب ثم ضربَتنا. قرَّرَت السيدة ماريا أن ترسل إيلينا إلى مدرسة موخيكا للبنات كي تتعلَّم القراءة، أما أنا فلم أُقبَل نظرًا لصغر سني. كان المطبخ يطلُّ على الباحة نفسها حيث تقع حجرات تغيير الثياب. استهواني ذلك البيت كثيرًا، ولا سيما المسرح. لم يكُن محظورًا عليَّ

سوى الخروج إلى الشارع أو الذهاب إلى الوكالة وإزعاج السيدة ماريا. ولم يكُن باب الحجرة العلوية يُقفَل إلَّا في أثناء الحفلات المسرحية. ذات يوم أُقِيم حفل هائل، فوُضِعَت على خشبة المسرح قطعة أثاث ضخمة لها بضعة جوارير تحوي أشرطة ورقية كثيرة الثقوب، فأخذث أحلُّ جميع الأشرطة وأفردها على المقاعد في الباحة وأمزِّرها من تحتها لاهيةً. عند ذاك حضر المحامي، فما كاد يراني حتى أمسك رأسه بيدَيه وانطلق صارخًا. هرع الجميع إلى الباحة، السيدة ماريا وبيتسابيه والخادمة العجوز.

- أي خراب حلَّ بنا يا سيدة ماريا، أي خراب! انظري ماذا فعلَت هذه الطفلة بأشرطة البيانولا!

فبدأ الكل يعيد لفَّ الأشرطة. ما كدث أرى السيدة ماريا تخلع حذاءها حتى عرفت أنها سوف تضربني، فهرعث إلى الباب المفضي إلى الشارع وخرجث من هناك عدوًا. انتهى بي المطاف إلى ساحة كبيرة تضمُّ سوقًا، نظرثُ في كل اتجاه فلم أرَ السيدة ماريا. قرَّرتُ التجوُّل في السوق، فأهدَتني امرأة عجوز ثمرة مانجو.

كانت الكنيسة تقع في تلك الساحة، ورأيث الكاهن محاطًا بالكثير من الأطفال في الفناء، فدنوث منهم. وكان الكاهن يسألهم عن أسمائهم واحدًا واحدًا.

- وماذا عنكِ... المسكينة حولاء العينَين تمامًا... خبِّريني، ما اسمكِ؟

- الصغيرة.

- الصغيرة؟ هذا ليس اسمًا.

- بلى، أنا الصغيرة.

- من هي أمكِ؟

- وكالة الشوكولاتة.

أغرق الجميع في الضحك، أما أنا فأجهشت بالبكاء. سأل الكاهن باقي الأطفال عما إذا كانوا يعرفونني، فأجابوه بالنفي. عاود الكاهن سؤالي عن أمي.

- وكالة الشوكولاتة.

فأخذ الكاهن بيدي ومضى بي إلى وكالة الشوكولاتة. روَت له السيدة ماريا قصة أشرطة البيانولا، فدخل الكاهن معنا وصعد إلى خشبة المسرح، ثم فتح قطعة الأثاث وثبَّت فيها إحدى اللفافات، وإذا الموسيقى تنساب من البيانولا. تسمَّرتُ مكاني كالمشلولة، ورحتُ أحملق في قطعة الأثاث من أعلاها إلى أسفلها فلم أرَ العازفين، سألتُ عما إذا كان العازفون محبوسين داخل قطعة الأثاث، فأغرق الكل في الضحك، وأوضح لي الكاهن بصبر عظيم أن الموسيقى مصدرها الثقوب التي في الورق. علَّمني الكاهن الطيِّب أفضل لعبة عرفتُها في طفولتي. تعلَّمتُ كيف أُدير ذراع البيانولا على أكمل وجه، فكنتُ أُديرها بحرص بالغ حتى إن المحامي لم ينهني عن المساس بها. نشأت بين الكاهن والسيدة ماريا صداقة وثيقة، فأصبح يُكثِر من زيارة الوكالة للحديث إليها، ثم يصحبها إلى المسرح، وهناك يبحث عني ويلعب معي لعبة المسرحية. ذات يوم أحد، خرجنا في

نزهة جميلة وصولًا إلى النهر، ذهبنا جميعًا، الكاهن والسيدة ماريا وبيتسابيه وأنا وإيلينا، تناولنا الغداء على ضفة النهر وقطفنا أزهارًا كثيرة.

كانت بيتسابيه تفتح أبواب الوكالة صباحًا ثم تنتظر نزول السيدة ماريا كي تحلَّ محلَّها. ذات يوم نزلَت إلى الوكالة فوجدَتها مُوصدَة، ولم تعثر لبيتسابيه على أدنى أثر. سألنا عنها الجيران جميعًا، فلم يكُن هنالك من رآها، ذهبنا إلى حجرتها فوجدنا ثيابها قد اختفَت أيضًا. فبكينا ثلاثتنا. لم تفتح السيدة ماريا أبواب الوكالة، وإنما مضَت بنا إلى الكنيسة لتخبر الكاهن باختفاء بيتسابيه. راحت السيدة ماريا تبكي يائسةً، في حين قطع لها الكاهن وعدًا بأن يتحقَّق مما إذا كان أحدهم قد رآها في البلدة. أذكر أنني، على مدى أيام طوال، رحت أفتِّش عنها وسط الأزياء المسرحية، وتحت المقاعد، وداخل البيانولا، كنت أصعد إلى خشبة المسرح صارخةً:

- بيتسابيه، تعالي، لا تتركيني، نحن في غاية الحزن. بيتسابيه، عودي، عودي يا بيتسابيه.

ضاع صراخي سدًى، ولم تعُد بيتسابيه يومًا. في وقت لاحق عرفنا أنها قد شُوهِدَت مع بعض المُكارين الذين كانوا في طريقهم إلى بوغوتا عبر الپارامو.

باريس، أكتوبر/1969.

---

(15) فوساغاسوغا: بلدة كولومبية تقع في المنطقة الوسطى من جبال الأنديز، وتبعد 56 كيلومترًا عن العاصمة بوغوتا.

الرسالة العاشرة

عزيزي خيرمان،

رحلَت بيتسابيه، فتبدَّلَت حياتنا كليًا. ألعابنا في المسرح، وحفلاتي على البيانولا، ومدرسة إيلينا. تخلَّينا عن كل شيء. قرَّرَت السيدة ماريا أن تحلَّ كلتانا محلَّ بيتسابيه، لأنها مُضطرَّة لتولِّي شؤون الوكالة.

فتعلَّمتُ الكنس، وأجزم لك بأن المكنسة كانت تفوقني طولًا (كنت قد أتممتُ عامي الخامس قبل وقت يسير، أما إيلينا فكانت تبلغ من العمر ستة أعوام ونصفًا آنذاك)، وتعلَّمتُ تقشير البطاطس، وتعبئة المياه، والتخلُّص من القمامة، وتنظيف الموقد من الرماد، وغسل القدور والصحون، والمساعدة على تفريغ صناديق الشوكولاتة من محتوياتها، ومسح الأرض. كانت إيلينا ترتِّب الأسِرَّة وتساعد في شؤون الوكالة أيام السوق. أما السيدة ماريا فكانت تغسل الثياب ليلًا وتُعِدُّ طعام اليوم التالي، فلا يبقى أمامنا سوى إضرام النار وتسخين الطعام. أذكر أن إيلينا كانت تُضطَرُّ للوقوف على صندوق لأن الموقد أعلى من أن تبلغه.

ذات ليلة أرسلوني وحيدة إلى الأرض الخلاء كي أجلب دلو الماء. رحتُ أبكي خوفًا، وأسير على أطراف أصابعي بحذاء الجدران، بأنفاس شبه مقطوعة، وقد أرهفتُ السمع كي ألتقط أدنى صوت، كنتُ قد تجاوزتُ المسرح، وفي أثناء مروري قرب حجرات الخشب الأولى، حيث يُحتَفَظ بالأزياء المسرحية، إذا بي أشعر

بيدَين عملاقتَين تطبقان على خاصرتَيَّ وترفعانني عاليًا في الهواء. عجزتُ عن النطق، مثلما عجزتُ عنه حين تخلَّينا عن الطفل، لم يصدر عن فمي أدنى صوت، شعرتُ وكأن في حلقي حجرًا، يخنق أنفاسي. في البدء لم أرَ شيئًا، وإنما شعرتُ باليدَين تنزلانني على الأرض مُجدَّدًا، وهي تلك اللحظة التي التقى فيها وجهي بوجه المجنون، بعينَيه الجاحظتَين، ولحيته السوداء الكثَّة، وفمه الفاغر الذي خلا من الأسنان حتى لم تبقَ فيه سنٌّ واحدة، أنزلني على الأرض في رقَّة، فرأيت جسده عاريًا تمامًا، أرقدني بمنتهى الرقَّة على الأرض ثم جثا إلى جواري وشرع يقبِّل وجهي. أحسستُ بشعر لحيته في عينَيَّ، وفمي، وأنفي، وأذنَيَّ، حاولتُ ضربه لكمًا وركلًا، ولكن يدَيه الضخمتَين كانتا أقوى من ساقَيَّ وذراعَيَّ. في تلك اللحظة لمحتُ نورًا آتيًا من البوابة المفضية إلى الأرض الخلاء، كانت أختاه تفتِّشان عنه بالمصباح. ما كاد يراهما حتى هبَّ واقفًا كالزنبرك، وأنا مُمدَّدة على الأرض لم أزَل. اقتربَتا بخطى وئيدة جدًا، وهما تناديانه بصوت بالغ العذوبة، أما هو فظلَّ واقفًا أمامي، يحملق فيَّ. رآهما تقتربان منه، فأمسك حمامته بكلتا يدَيه وبال عليَّ، رشَّني من قمة رأسي إلى أخمص قدمَيَّ كما لو كنتُ نبتة. فرغ من فعلته ثم دنا منهما وهو لا ينبس بكلمة واحدة، وقد ارتسمَت على وجهه ابتسامة واسعة مفعمة بالبهجة.

حملَتني إحدى العجوزتَين ثم أخذَتني إلى السيدة

ماريا، وقالت إنه لا يجب عليها السماح لنا بالخروج وحدنا في بيت فسيح كهذا، ولا سيما في الليل، فمن يدري ماذا كان سيجري لولا وصولهما. شرعَت إيلينا تخلع ثيابي، ثم غسلن جسدي كاملًا حتى قمة رأسي، بمساعدة العجوز التي ما برحَت تجادل السيدة ماريا طوال الوقت.

كان الضجر يتملَّك السيدة ماريا بشدة في فوساغاسوغا. فهي لم تكُن تقابل أحدًا هناك، شأنها في باقي الأمكنة، ولم تكُن لها صديقة واحدة، ولم تعُد تلتقي بجموع الرجال الذين كانوا يذهبون إليها لتجاذب أطراف الحديث في وكالة غواتيكيه. ما كان يزورنا من آن إلى آخر سوى الكاهن الدومينيكاني الذي خرجنا معه في نزهة إلى النهر. رحلَت بيتسابيه، فصعُبَت الحياة كثيرًا على الجميع. ذات يوم كانت إيلينا تضرم جمر المكواة... بمعنى أصح، كان الجمر مضرَمًا في المكواة التي وضعَتها إيلينا مكشوفةً على الأرض، ثم إنها اعتلَت صندوقًا لإنزال الكير[16]. لا أدري ماذا جرى، كل ما هنالك أنها وقعَت عن الصندوق، وسقطَت جالسة على المكواة بما فيها من جمر مُضرَم. مسكينة، كم حزنتُ لها! انطبعَت صورة المكواة كاملةً على ردفها، حتى بدا لحمها منزوع الجلد. أذكر أنها راحت تركض في أرجاء المسرح كافة، وهي تطلق صرخات حقيقية. اشتدَّ عليها القيء وبلغَت إصابتها من الشدة بحيث إن السيدة ماريا لم تسمح لها بعمل شيء من ذلك الحين، لا في البيت

ولا في الوكالة. كانت تلك هي الحقبة التي تكشَّف لي خلالها أن السيدة ماريا تفضِّل إيلينا على نحو جليَ. فما برحَت تردِّد العبارات نفسها طوال الوقت: «إنها الأجمل، الأحب عندي، كنتُ أودُ لو أصيبَت إيمًا بدلًا منها، صغيرتي المسكينة».

لم يسبق لي أن رأيتها مفعمة بالحنان إلى هذا الحد، فبدَت مغمومة بصدق لمرأى إيلينا مصابة بذلك الحرق البشع، مستلقية على وجهها ليل نهار، عاجزةً عن الجلوس أو الاستلقاء على ظهرها. لم يكُن في وسعي أداء مهماتي ومهماتها بطبيعة الحال. ذات ليلة أُصيبَت إيلينا بحمًى شديدة، فأجهشَت السيدة ماريا بالبكاء وقالت إنها لا تقوى على تحمُل المزيد، وإن الاستمرار على تلك الحال ضرب من المحال، وإنها سوف تكتب إلى بوغوتا وتتنازل عن الوكالة، وإنها تعسة بلا رجل إلى جوارها يعينها على تحمُل الحياة. ومرة أخرى لامَتنا في كل ما أحاق بها من بؤس، لأنها لو كانت وحدها لصارت كالملكات.

بعد أيام قلائل وصل سيِّدٌ من بوغوتا، أوفدَته الشركة لمراجعة الأوراق والبحث عمن يحلَ محلً السيدة ماريا في وكالة الشوكولاتة. نشأت بينه وبينها صداقة وثيقة. كان رجلًا في مقتبل العمل، فارع القوام، أسمر، وله عينان خضراوان جميلتان. كان يحنو علينا كثيرًا، ويحضر لنا الحلوى دائمًا. كان هو الذي أهدانا أول وآخر دُميتَين حظينا بهما مدى الحياة. كانتا من النسيج، ولهما

شعر أسود، مُجعَّد. كانت ثياب دمية إيلينا حمراء، وثياب دميتي وردية. وقد همنا باللعبتَيْن عشقًا. أما السيد سويسكون - هكذا كان يُدعَى - فقد ساعد السيدة ماريا على حمل الصناديق إلى الخارج، وبدأت معمعة حزم الحقائب. من خلال التجربة، كنَّا نعرف أن مزاج السيدة ماريا يتعكَّر بشدة كلما تعيَّن عليها حزم الحقائب. قدَّم لنا السيد سويسكون من المساعدة الكثير، فتولَّى بنفسه البحث عن الهنود والخيل من أجل رحلة العودة إلى بوغوتا، وقال إنه سوف يرافقنا، فتهلَّلَت أسارير السيدة ماريا.

قد تعجب لقدرتي على سرد تفاصيل الحوادث التي جرَت في تلك الحقبة البعيدة كل البعد، بهذا القدر من الدقة. وأوافقك في ما ذهبتَ إليه، ذلك أن طفلًا في الخامسة من العمر لن يتذكَّر طفولته لاحقًا بمثل هذا الوضوح ما دام قد عاش حياة طبيعية. أما أنا وإيلينا، فنذكر طفولتنا وكأنها كانت اليوم، وليس في وسعي أن أشرح لك السبب. لم تغِب عنا تفصيلة واحدة، لا اللفتات، ولا الكلمات، ولا الأصوات، ولا الألوان، بل يبدو لنا كل شيء جليًا.

حان يوم السفر، فاستيقظنا فجرًا، ولسبب لم نعرفه يومًا تقرَّر حملنا على ظهور الرجال، وليس على صهوة الخيل. فجِيء بمقعدَيْن من الخيزران ووُضِعَت فوقهما مظلة وشُدَ كل مقعد إلى ظهر هندي، ثم حُمِلنا عليهما.

تقدَّمنا السيد سويسكون والسيدة ماريا، يليهما

الهنديان اللذان قادا البغال بما حملَت من حقائب، وأخيرًا الهنديان اللذان حملانا على ظهرَيهما. عُهِد إلى الهنديَين بسلة طعام من أجلنا. كانا مخمورَين، وقد أمسك كلٌ منهما بقرعة ضخمة ملآنة بعرق الذرة. أما الهندي الذي كان يحمل إيلينا، فقد انتشرَت على وجهه آثار الجدري بكثرة، ثم إنه أُصيب بإسهال وراح يخلع بنطاله من آن إلى آخر ثم يقعي لقضاء حاجته مُحدثًا أصواتًا فظيعة، فيقف الهندي الذي يحملني على مقربة منه، مغرقًا في الضحك، ويقول له بلهجته الثقيلة جدًا:

- اشرب المزيد من عرق الذرة يا رفيق، وحده عرق الذرة يشفي من الإسهال.

مضى السيد سويسكون والسيدة ماريا قدمًا. ولم نعاود رؤيتهما منذ بلغنا الپارامو. في حين ظلَّ الهنديان هادئَين، يرويان قصصًا لا نفهمها. تدهورَت حال المصاب بالإسهال من سيئ إلى أسوأ، وإذا هو يجلس على حجر ويقول إنه لن يتابع المسير، فقال الآخر إن القطار سوف يفوتنا ما لم نسرع الخطى، إذ أخبرَتنا السيدة ماريا بأنها سوف تترقَّب وصولنا في المحطة. ناولا كل واحدة منا رغيفًا وموزة، أما هما فظلَّا يحتسيان عرق الذرة، ثم عرَّجا على مزرعة ليملأ كل منهما قرعته بعد أن أتى على ما فيها. وهناك استغرقا طويلًا في الحديث مع هنود آخرين، ثم خرجا عاجزَين عن السير في خط مستقيم، فمضيا في خطوط مُتعرِّجة من فرط السكر. عند ذاك دبَّ شجار بينهما، فاستلَّ أولهما سكِّينًا، أما

المُصاب بالإسهال فقال للآخر:

- لا يسعني قتلك لأني مُضطَرٌّ لقضاء حاجتي.

ثم خلع بنطاله وأقعى على الأرض. فأغمد الآخر سكينه وشرع في الغناء. كان الظلام قد بدأ يخيِّم، فأجهشَت إيلينا بالبكاء وطفقَت تصرخ وتنادي السيدة ماريا، ورحتُ أصرخ أنا الأخرى في الوقت نفسه، حتى أدركَنا الإعياء وغلَبَنا النعاس. أفقنا والهنديان يفرغان حمولتهما في محطة القطار. من الجدير بالفضول أن واحدة منا لا تذكر اسم البلدة التي ذهبنا إليها كي نستقلَّ القطار. نذكر المحطة والفندق والكنيسة، أما الشوارع فلا نذكر أيًا منها. حين وصلنا كان القطار قد غادر منذ وقت طويل، وكذلك السيدة ماريا والسيد سويسكون. لقد رحَلا ولم ينتظرانا. توجَّه الهنديان إلى ناظر المحطة وغيره من الناس بالسؤال عما إذا كانوا قد رأوا امرأة في مقتبل العمر ترتدي ثوبًا رماديًا وتعتمر قبعة رمادية جاءت برفقة رجل من بوغوتا. كان الجميع قد رآهما وهما يستقلَّان القطار. وشيئًا فشيئًا، بدأ الناس يتحلَّقون حولنا. فرحتُ وإيلينا نتبادل النظرات، وقد دار في خلدنا الأمر نفسه، وطفرَت دموعنا في آن واحد، ولم يخرج من فمنا إلَّا قول واحد:

- تخلَّت عنا، تخلَّت عنا.

تشابكَت يدانا، وتقارب وجهانا، وإذا بكاؤنا يغدو بكاءً أخرس. تزاحم الناس من حولنا أكثر فأكثر، وراح كلُّ واحد يطرح علينا الأسئلة نفسها:

- ما اسمك؟

- ما اسم ماما؟

- ما اسم بابا؟

- من أين أتيتما؟

- إلى أين أنتما ذاهبتان؟

أما نحن فلم نأبه لشيء، ولم نُجِب أحدًا، رأيناهم ولم نرَهم، سمعناهم ولم نسمعهم، لم يعرف ما آلت إليه حياتنا آنذاك غيرنا. ذهب أحدهم ليجري اتصالًا بكاهن الكنيسة، البدين الأكرش ذي الأنف الأحمر الذي يشبه الكرة، فأقبل علينا وجلس القرفصاء بجوارنا ثم أخذ يربَت على وجنتَينا سائلًا:

- ما اسمك؟

- ما اسم ماما؟

- ما اسم بابا؟

- من أين أتيتما؟

- إلى أين أنتما ذاهبتان؟

لزمنا الخرس. أما الهنديان اللذان حملانا إلى هناك فقد اختفيا ولم يرهما أحد بعد ذلك. راح الناس يبتعدون شيئًا فشيئًا، حتى بقينا وحدنا مع الكاهن وجندي، أو شرطي، فأخذا بيدَينا ومضيا بنا إلى فندق. كانت مالكة الفندق في غاية الجدية، ثيابها بنيَّة اللون تمامًا، ولها شعر أبيض معقوص إلى الوراء. بقي الجندي معنا في الباحة، أما الكاهن فتركنا ليتحدَّث إلى مالكة الفندق. فهمَت إيلينا حديث الكاهن إلى المالكة:

- استبقيهما هنا، فلا بد أن تعود أمهما في قطار غد لتصحبهما، سآتي بعد قدَّاس غد.

كانت لقاعة الطعام في الفندق أبواب من الزجاج، وكلها يفضي إلى الشارع. جلسنا إلى إحدى الطاولات، فرأينا الناس يتزاحمون مرة أخرى خلف الأبواب، وقد ألصق البعض وجهه بالزجاج حتى يرانا عن كثب، بينما انخرط الجميع في الحديث وهم يشيرون إلينا.

طلبَت السيدة أن يُقدَّم لنا الطعام وجلسَت بيننا ثم شرعَت في تقطيع اللحم والبطاطس قطعًا صغيرة من أجلنا، ولكن لا أنا ولا إيلينا شعرنا برغبة في الطعام. اقترب من الطاولة بعض المتواجدين في قاعة الطعام راحوا يرجوننا كي نأكل وهم يسألون:

- ما اسمك؟

- ما اسم ماما؟

- ما اسم بابا؟

- من أين أتيتما؟

- إلى أين أنتما ذاهبتان؟

مضَت بنا السيدة إلى حجرة فيها سريران، فاستلقيث على أحدهما وإيلينا على الآخر. ولكن حين خرجَت السيدة وأقفلَت الباب بالمفتاح، نزلَت إيلينا عن سريرها واستلقَت بجواري، فتعانقنا بقوة وخلدنا إلى النوم.

عاد الكاهن برفقة الجندي صبيحةَ اليوم التالي، فيما كانت السيدة مالكة الفندق تصفِّف شعرنا، ونحن عاجزتان عن النطق لم نزَل. مضوا بنا إلى المحطة،

حيث سمعنا صفير القطار ورأيناه يصل إلى المحطة. بدأ الرُّكَّاب يترجَّلون من القطار، فحمل الجندي إيلينا، وحملني الكاهن، ورفعانا عاليًا جدًا ليرانا سائر المارة. ترجَّل الرُّكاب جميعًا وساروا مبتعدين. فأنزلانا على الأرض محزونَين وعادا بنا إلى الفندق، حيث قضينا نهارنا في الفراش... أعتقد أننا خلدنا إلى النوم عجزًا منا عن النطق. في المساء وصل قطار آخر، فعاد الكاهن برفقة الجندي وتكرَّر المشهد ذاته في المحطة. كنَّا نعرف أنها لن تعود إلينا. مرَّت ثلاثة أيام ونحن على تلك الحال، ثلاثة أيام ظلَّ يتكرَّر خلالها المشهد ذاته في محطة القطار، مرة في الصباح وأخرى في المساء. ظهر القلق على الكاهن وأخذ يناقش الجندي والسيدة مالكة الفندق. في اليوم الرابع لم يمضوا بنا إلى المحطة، بل أقبل الكاهن برفقة راهبتَين في ثياب باللونَين الأسود والأبيض، إحداهما عجوز تضع نظارة والأخرى في مقتبل العمر مفعمة بالبهجة. صارت الراهبة تحملنا، وتقبّلنا، وتربّت على رأسَينا:

- ما اسمك؟

- ما اسم ماما؟

- ما اسم بابا؟

- من أين أتيتما؟

- إلى أين أنتما ذاهبتان؟

أخذونا إلى دير في الأرياف، فدخلنا إلى باحة واسعة فيها الكثير من الأزهار وتمثالٌ يجسّد كاهنًا. بمُجرَّد

وصولنا بدأت تتوافد أعداد من الراهبات اللائي أقبلن علينا من كل صوب وتحلَّقن حولنا:

- ما اسمك؟

- ما اسم ماما؟

- ما اسم بابا؟

- من أين أتيتما؟

- إلى أين أنتما ذاهبتان؟

تكرَّرَت هذه الأسئلة بكل نبرة ممكنة، العالية منها والخفيضة، الحادة والزاعقة، المُتسلِّطة والحانية. وفجأة ران صمتٌ مطبق، فلم نرَ حولنا إلَّا جدارًا أسود من تنانير الراهبات اللائي تزاحمن من حولنا، الواحدة لصق الأخرى. وإذا بي أسمع صوت إيلينا الذي بدا لي في منتهى القوة:

- أدعَى إيلينا ريبس وأختي الصغيرة تُدعَى إيمًا ريبس.

ثم أخذَت بيدي وشقَّت طريقًا برأسها من بين تنانير الراهبات، ومضَت بي إلى القسم الخلفي من الحديقة حيث وجدنا قفصًا يضمُّ الكثير من الطيور الصغيرة. تسمَّرَت الراهبات مكانهن، وتابعن حركتنا بلا شيء سوى نظراتهن. اقتربنا من القفص، وابتعدنا عن الراهبات، فقالت لي إيلينا:

- إن ذكرتِ السيدة ماريا ضربتكِ.

فكان الصمت الذي دام عشرين عامًا، إذ لم نعاود التفوُّه باسمها، ولم نعاود ذكر الأعوام المنصرمة التي

أمضيناها برفقتها، ولا غواتيكيه، ولا إدواردو، ولا الطفل، ولا بيتسابيه، لا في السر ولا في العلن. فحياتنا بدأت في الدير، هناك حيث لم نُفضِ بذلك السر قط، لا أنا ولا هي.

لكم مني ألف تحية وقبلة. راسلوني.

إيمًا.

باريس، نوفمبر 1969.

---

(16) الكير: جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحدَّاد وغيره للنفخ في النار وإذكائها.

الرسالة الحادية عشرة

عزيزي خيرمان،

كان ذلك ديرًا لإعداد الراهبات، يقتصر على طالبات الرهبنة، اللائي كان بعضهن في سنٍّ صغيرة للغاية. ولذا لم يُسمَح لنا بأن نبقى معهن، ولم يُسمَح لنا سوى بالدخول إلى الباحة الأولى، حيث مدخل الدير وقاعات الزوَّار. على مقربة من باب الدخول كانت حجرتان، الأولى تنام فيها حارسة الدير، وهي عجوز طاعنة في العمر تسير معوجَّة القدمَين وتقضي يومها في الحديث إلى نفسها، أما الحجرة الثانية فتحوي بعض قطع الأثاث والعلب، وهناك أُعِدَ فراش واحد من أجلنا، لأن إيلينا أبَت أن تتركني أنام وحدي. في حجرة حارسة الدير كانت طاولة ضخمة، حيث يُقدَّم الطعام لنا ولها في آن.

في الصباح كُنَّا نلعب وحدنا ونساعد العجوز على ريِّ النباتات. وكان الدير يشتمل على باحة مترامية الأطراف تحوي الكثير من الأزهار والأشجار الباسقة، فضلًا عن قفص للطيور الصغيرة التي كُنَّا نتحدَّث إليها بالساعات.

أما في المساء فكانت تحضر إلينا الراهبة الشابة التي ذهبَت لتأخذنا من الفندق، تلك التي كُنَّا ندعوها صديقتنا. في بعض الأحيان كانت تحضر مجموعة من طالبات الرهبنة فيقفن على أعتاب الباحة الثانية وينظرن إلينا ويضحكن لنا، وإن لم يكُن في وسعهن الحديث إلينا. علَّمَتنا الراهبة الشابة أول ما علَّمَتنا لعبة

الصلبان، تلك التي كانت تدعوها رسم علامة الصليب. علَّمتنا أن لكل من الأصابع اسمًا يُدعَى به، وإن اقتصر الأمر على أصابع اليدَين، أما أصابع القدمَين فلا أسماء لها، مثلها كمثل الطفل. كنَّا نلعب لعبة رسم الصليب بضمِّ أصابع اليد كلها فيما عدا الإصبع التي تُدعَى الإبهام. ثم نرسم بالإبهام ثلاثة صلبان، صليبًا فوق الآخر، كلًّا منها على شكل عصوَين متقاطعتَين، الأول على الجبين والثاني على الفم، مع إطباق الشفتَين، والثالث على منتصف الصدر، وبعد ذلك نسارع بفتح كل أصابع اليد تمامًا لنرسم بأطرافها صليبًا واحدًا كبيرًا، بدءًا بمنتصف الجبين، مرورًا بمنتصف الصدر، ثم الكتف اليسرى، فالكتف اليمنى، وأخيرًا نطبع قبلة صغيرة على ظفر الإبهام، مع إطباق الشفتَين طوال الوقت. كنتُ أتسلَّى بتلك اللعبة كثيرًا، وأخطئ دومًا، وتختلط عليَّ الصلبان، فأبدأ بالصدر وأنتهي بالجبين، أو أبدأ بالفم، أو أطبع قبلة على الخنصر بدلًا من الإبهام، شفقةً مني على الخنصر لكونه صغيرًا إلى ذلك الحد. فكانت الراهبة تستشيط غضبًا وتجعلني أعيد الكرة ألف مرة.

ذات يوم روَت لنا حكاية الطفل الذي يُدعَى يسوع، وأمه التي تُدعَى مريم (ماريا) هي الأخرى[17]. كانا في غاية الفقر، وسافرا على ظهر حمار، مثلما سافرنا إلى غواتيكيه.

ولكن الطفل يسوع كان له ثلاثة آباء، أولهم يعيش مع أمه، ويُدعَى يوسف، ويعمل نجَّارًا. أما الأب الثاني

فعجوز ذا لحية ويعيش في السماء، وسط السحاب. وكان ذلك الأب واسع الثراء. قالت لنا الراهبة إنه يملك العالم بأسره، وكل الطيور، وكل الأشجار، وكل الأنهار، وكل الأزهار، والجبال، والنجوم، فكل شيء ملك له. وأما الأب الثالث فيُدعَى الروح القدس، ولم يكُن رجلًا، بل حمامة تحلِّق على الدوام. ولكن الأم كانت تعيش مع الأب الفقير فحسب، ولم يكُن لهما بيت يسكنان فيه، ولذا اضطرَّ الطفل يسوع إلى الميلاد في بيتٍ يملكه حمارٌ وبقرة. ولكن الأب العجوز، الثري، الذي يعيش في السماء، أرسل نجمة إلى ثلاثة من أصدقائه، في غاية الثراء أيضًا، ولقبهم ملوك المجوس (رييس)[18] مثلنا، فحضر أولئك السادة لزيارة الطفل يسوع في بيت البقرة والحمار، وقدَّموا له الكثير والكثير من الهدايا والذهب والحلي، عند ذاك لم يعُد فقيرًا وإنما ثريًا. طلبث من الراهبة أن تمضي بنا إلى ذلك الطفل، فقالت إن الطفل يسوع لم يعُد على الأرض، بل ذهب ليعيش مع أبيه الثري وسط السحاب، ولكننا سوف نراه في السماء ما دمنا صالحتَيْن ومطيعتَيْن.

أمضينا ساعات نتأمَّل السماء لعلَّنا نراه. قالت إيلينا إننا لو استطعنا تسلُّق واحدة من الأشجار الأكثر ارتفاعًا فهي مُتأكِّدة من إمكانية رؤيته، إذ كُنَّا نعجز عن ذلك بسبب صغرنا. جعلنا نترقَّب حتى غفَت حارسة الدير بعد الغداء وعند ذاك تسلَّقنا الشجرة. أقبلَت الراهبات ونحن مُتشبِّثتان بأعلى فروع الشجرة التي بلغَت من

الارتفاع درجة أعجزَتنا عن سماع ما يُقال أو النزول. راحت الراهبات يتراكضن في كل اتجاه وهنَّ يشرن إلينا حتى ننتظر. جئن بسلالم وشدَوها إلى بعضها، ثم نادين رجلًا في زي عسكري، فتسلَّق الرجل الشجرة وأنزلنا. وإذا العجوز التي تُدعَى الأم رئيسة الدير تضربنا على رأسَينا وأرجلنا، ولكن ما كدنا نفصح بأننا تسلَّقنا الشجرة لرؤية الطفل يسوع في السماء حتى أغرقن في الضحك جميعًا واندفعن إلينا يمطرن وجهَينا ورأسَينا وأيدينا بالقبلات. في حين راحت الحارسة العجوز تبكي وتقول:

- ملاكان صغيران، ملاكان صغيران...

مكثنا في ذلك الدير أيامًا قلائل. ذات نهار، ونحن ننهض من الفراش، أقبلَت علينا راهبة جديدة لتأخذ مقاساتنا وتدوِّنها على قطع من النسيج الرمادي الثقيل، ثم صنعَت لنا ثوبَين في غاية القبح. كان كلٌّ من الثوبَين طويلًا كثياب طالبات الرهبنة، له ياقة عالية، وأردان طويلة، والكثير من الثنايا، كانا من الغرابة حتى إني لم أعُد أتعرَّف إيلينا، وإيلينا لم تعُد تتعرَّفني. كما ابتاعت لنا الراهبات صندلَين، وإن كان الصندلان جميلَين بحق. كما صفَّفن شعرنا إلى الوراء بضفائر بدت مشدودة إلى حد أعجزني عن إطباق أجفاني. وأحضرَت لنا رئيسة الدير نسيجًا أبيض يتدلَّى منه شريط بنيّ اللون يُدعَى الوشاح، فوضعَته على رأسَينا ونهَتنا عن خلعه مطلقًا، حتى يعرف الناس أننا من بنات العذراء مريم والرَّب. ذهبَت الراهبات فسألتُ إيلينا من أخبر رئيسة الدير بأننا

ابنتَيِ السيدة مريم (ماريا) والسيد الرب. فلم تُجِر إيلينا جوابًا، بل صفعَتني على فمي براحة يدها.

بعد برهة خرجَت الراهبات جميعًا، وقد أمسكَت إحداهن بسلة مغطاة بمنديل أبيض. شرعن في تقبيلنا ومباركتنا، واحدة تلو الأخرى، راسمات علامة الصليب في الهواء بأيدٍ مفتوحة. ثم خرجنا من الدير وقد أخذَت صديقتنا ورئيسة الدير بيدَينا، وحملَت الشابةُ السلة. ما كدنا نخرج إلى الشارع حتى أجهشنا بالبكاء. ذهبنا مباشرةً إلى الكاهن الذي كنّا تعرَّفنا به، فتحدَّثَت إليه رئيسة الدير وهما يتمشَّيان في الحديقة، وحين انطلق صفير القطار أخذونا من يدَينا وهرولنا جميعًا إلى المحطة. ما كدنا نرى القطار حتى شرعنا نصرخ صراخًا قويًا ونقول:

- كلَّا! كلَّا! كلَّا!

وإن لم نعرف لأي شيء نقول كلَّا. تشبَّثتُ بساقَيِ الكاهن وأبيتُ الصعود إلى متن القطار، ولكني أُرغِمتُ على ذلك في خاتمة المطاف. وعندما رأينا الراهبات مسافرات معنا هدأنا قليلًا. طلبن منا تقبيل يد السيد الكاهن ثم تحرَّكَ القطار. لم ينبس أحد بكلمة طوال الرحلة. أما أنا وإيلينا فقد جلسنا متلاصقتَين، الواحدة إلى جوار الأخرى. رأيتُ على وجهها غمًا جارفًا، إذ اتَّسعَت عيناها، وراحت تلتقط أنفاسها فاغرة الفم وكأنها تختنق. نظرَت رئيسة الدير في ساعتها وقالت للراهبة الشابة إن ساعة الغداء قد حانت، فكشفَت عن

محتويات السلة من بيض مسلوق وبطاطس وقطع دجاج. ولكننا لم نأكل سوى موزة واحدة. وصلنا إلى بوغوتا، فاستقللنا عربة تجرّها الخيل كتلك التي أخذناها مع السيدة ماريا عندما رحلنا عن حجرة سان كريستوفر. وفي العربة بدأنا نبكي من جديد، ربما كنتُ وإيلينا نفكّر في السيدة ماريا.

توقَّفَت العربة في شارع ضيِّق، أمام بوابة ضخمة موصدة. جذبَت رئيسة الدير طرف حبل يتدلَّى من كوة في البوابة فسمعنا رنين الجرس، تلاه صليل السلاسل، ثم المفاتيح، ثم المزاليج، ثم الأقفال، وأخيرًا انفتح الباب:

- صباح الخير يا أخوات، رئيسة الدير في انتظاركنّ. تفضَلن، تفضَلن، من هنا.

وإذا بي لا أرى شيئًا. كل شيء غارق في عتمة رهيبة.

فارعة القوام، شاحبة، تكاد تكون شفافة، يداها طويلتان للغاية، مفعمة بعذوبة وطيبة غامرتَين، مالت الأم دولورِس كاستانييدا علينا وسألت عن اسمَينا واسم بابا واسم ماما.

- لا نعرف.

- صغيرتي إيلينا، خبِّريني، فأنت رائعة الجمال، وبنت كبيرة، خبِّريني، ما اسم ماما؟ أتذكرين اسمها...؟ وماذا عن بابا؟

أجهشَت كلتانا بالبكاء.

- خبِّرينا يا أماه، هل أمكن الوقوف على أسماء أولئك

الذين تخلَّوا عنهما؟

- كلَّا.

- أو المكان الذي جاءتا منه؟

- كلَّا يا أماه، لقد ذهب السيد الكاهن إلى جميع الأسواق للحديث مع الهنود، وفي قدَّاس الأحد طلب من المؤمنين أن يحيطوه علمًا في حال عرفوا شيئًا، غير أننا لم نعرف شيئًا حتى الآن. لو تذكَّرَت الصغيرتان شيئًا، فلربما تمكَّنتا من مساعدتنا، ولكنهما كما ترين، كلَّما طُرِح عليهما سؤال أجهشتا بالبكاء، كما هو الحال في هذه اللحظة، أو خرستا عن الكلام. أقسم لكِ يا أماه أننا سنواصل التحرِّي عن الأمر، وما إن نكتشف شيئًا حتى نوافيكِ به على الفور.

بدَت الأم دولورِس كاستانييدا في غاية الانشغال.

- أجل يا أماه، أشدِّد على ضرورة ذلك وأرجو ألَّا تدَّخرن وسعًا، ليس يهمُّنا العثور على الأبوَين أو التحقُّق من هويتهما على وجه التحديد، إنما يشغلني التحقُّق مما إذا كانت الصغيرتان قد نالتا سرَّ المعمودية[19] أم لا. والتأكُّد مما إذا كانتا ابنتَين شرعيتَين أم ثمرة الخطيئة. لكُنَّ أن تتخيَلن، فليس في مقدورنا استبقاء بنتَين هما ثمرة الخطيئة تحت سقف هذا البيت المُقدَّس، فواجبنا أمام الرَّب أن نخلِّص روحَيهما. عليَّ الرجوع إلى الأسقف في ما يمكن عمله.

وإن كان في وسعي أن أعيد عليك ذلك الحديث بمثل هذه الدقة، فذلك لأننا قد سمعناه مرارًا وتكرارًا،

بالجديَّة نفسها، وعلى مدى أعوام. كانت المسألة تُطرَح مُجدَّدًا من آن إلى آخر، إما بمناسبة زيارة الأسقف، وإما بمناسبة زيارة الرئيسة العامَة للرهبانيات التي كانت تحضر من روما، وإما بمناسبة أسبوع الآلام، وإما بمناسبة أعياد الميلاد. كان يُطلَب منًا الذهاب إلى القاعة كلًما حضرَت شخصية ذات شأن من الكنيسة، وهناك نخضع للأسئلة نفسها، مدعومة بالحجّة نفسها: «علينا أن نخلِّص نفسَيهما». ظلَّت الرئيستان تتجادلان بشأن أهمية خلاص نفسَينا. وحين دقَّ الجرس، قيل لنا أن نقبِّل يدَيّ رئيسة الدير ونلقِي عليها تحية الوداع. باركَتنا العجوز والشابة بعلامة الصليب، وأحنَت كلٌّ منهما رأسها ثم خرجتا من دون أن تنبسا بكلمة واحدة. ومرة أخرى سمعنا صليل السلاسل والمفاتيح. انفتح الباب فتسلَّل إلى القاعة شعاع من الشمس، فرأينا على الأرض ظلَّ الراهبتَين وهما تبتعدان. أُقفِل الباب ليعزلنا عن العالم قرابة خمسة عشر عامًا.

عناق حار للجميع.

إيمًا

باريس، يناير 1970

---

(17) جدير بالذكر أن «ماريا» في الثقافة الإسبانية تقابلها «مريم» في الثقافة العربية. ومن هنا جاء وجه التشابه بين السيدة ماريا التي تخلَّت عن الصغيرتَين والعذراء مريم.

(18) يُلاحَظ أن لقب الكاتبة، رييس (Reyes)، يعني

باللغة الإسبانية «ملوكًا»، وهي الكلمة التي بها يُشار إلى ملوك المجوس الثلاثة الذين يقول عنهم الكتاب المُقدَّس: «وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: «أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ»». (متى 2: 1 - 2). ومن هنا جاء وجه التشابه بين لقب المُؤلِّفة وملوك المجوس.

(19) سرُّ المعمودية: أول أسرار الكنيسة ومن دونه لا تتمّ أيٌّ من باقي الأسرار. ومن طقوس المعمودية رشّ الطفل أو الشخص البالغ بالماء المُقدَّس، طبقًا للعقيدة الكاثوليكية.

الرسالة الثانية عشرة

عزيزي خيرمان،

ثلاثة رُتُج، وقفلان ضخمان، ومزلاجان ثقيلان من الخشب، وسلسلة، بتلك الأشياء كان يُوصَد أول الأبواب التي عزلَتنا عن العالم. أما الباب الثاني فلم يكُن له سوى رتاج وقفل واحد. وبين البابين الثاني والثالث، كانت أبواب قاعات الزوَّار تفضي إلى رواق. تحقَّقَت رئيسة الدير من إقفال الأبواب بإحكام، ثم أخذَت بيدَينا ومضَت بنا إلى المُصلًى عَبر دَرَج داخلي. كان تمثال ضخم للعذراء وبين ذراعَيها الطفل يتوسَّط المذبح الكبير. فأمرَتنا بأن نجثو أمام التمثال، ووقفَت خلفنا وابتهلَت إليها بصوت مسموع كي تباركنا، وتقبلنا ابنتَين من بناتها، وتغفر لنا آثامنا. وفي طريقنا إلى الخارج غمسَت يدها في جُرْن الماء المُقدَّس ورسمَت علامة الصليب على جبين كلٍّ منا. مرة أخرى نزلنا على الدَّرَج وخرجنا عَبر باب آخر صغير إلى الباحة الأولى، باحة مريم المُعينة. وهناك، فوق عمود أبيض يتوسَّط المكان، وقفَت العذراء، بيضاء هي الأخرى، والطفل بين ذراعَيها، تشبه عذراء المُصلًى. كانت الباحة بأسرها عامرةً بالنباتات والأزهار، أما الأروقة المحيطة فكانت واسعة جدًا ومرصوفة بالآجر ولها أعمدة ضخمة. ما كان يسكن تلك الباحة إلًا شخص واحد، وهي الآنسة كارميليتا. مضَت بنا رئيسة الدير إليها، وحكَت لها قصتنا كاملةً، كيف تُرِكنا وحدنا، ومرة أخرى حدَّثَتها عن انشغالها

البالغ بأن تعرف ما إذا كنَّا ثمرة الخطيئة أم لا.

- كما تعرفين حق المعرفة، فنحن لا نطلب من البنات أكثر من شهادة المعمودية لقبولهن في هذا المكان، أما هاتان فلا يُعرَف عنهما شيء، أيَ شيء. علينا أن نبتهل إلى الرَّب كي ينير بصيرتنا، ويهدينا إلى حلٍّ، ويجعل لنا آيةً، بصيصًا من نور.

وفي تلك الأثناء راحت الآنسة كارميليتا تحدّجنا من قمة رأسَينا إلى أخمص أقدامنا، ومن خلال الثياب الثقيلة جعلَت تتلمَّس ذراعَيَ كلٍّ منا وظهرها وخصرها:

- مسكينتان، إنهما هزيلتان للغاية... من الواضح أنهما لم تحصلا على تغذية سليمة، الكبرى رائعة الجمال، أما الصغرى، فهل رأيتِ ما بها؟ في عينها انحراف. وماذا نحن فاعلات بهما؟ فهما أصغر مما ينبغي، لن تقويا على العمل...

- كارميليتا، تلك مشكلة أخرى. أي عمل نعهد به إليهما وهما لا تزالان في تلك السن الصغيرة للغاية...؟ ربما استطعنا إرسالهما إلى المطبخ في أول الأمر، حيث تساعدان في التنظيف وتعبئة المياه، كما أن العناية بهما في المطبخ ممكنة.

وفيما تابعنا حديثهما، لم نحوِّل بصرنا عن الآنسة كارميليتا مرة واحدة، إذ لم نكُن قد رأينا شخصًا على ذلك القدر من البدانة قط، فكِّرْ في أبدن شخص رأيتَه في حياتك ثم ضاعفه أربع مرات.

تركَتنا رئيسة الدير معها وغابت عن بصرنا عَبر باب

خلفي. سألَتنا الآنسة كارميليتا عما إذا كُنَّا نحسن الغناء، ثم نهضَت من مقعدها بمشقة بالغة، وإذا بصوت يشبه الفرقعة يتردَّد ثلاث مرات في الهواء بينها وبين المقعد، بيب، بيب، بيب، فانفجرنا ضاحكتَيْن، وابتسمَت هي الأخرى.

لم تكُن الآنسة كارميليتا راهبة، بل إنها قد ابتكرَت لنفسها ثوبًا أسود له غطاء رأس وطرحة سوداوان أيضًا، فكانت تبدو وكأنها راهبة من رهبنة أخرى. كانت تمضي يومها جالسة على مقعد هائل الضخامة من الجلد، وبلغَت من البدانة حدَّ العجز عن الدخول إلى المُصلًّى، ما اضطرَها لسماع القدَّاس من الخارج. وفي ساعة المناولة[20] كان الكاهن يخرج إليها حاملًا القربان المُقدَّس.

كانت البنات جميعهنَّ يعرفن قصَتها، وقد لعبَت دورًا بالغ الأهمية في حياتنا. سأوضح لك رويدًا رويدًا لماذا وكيف. أما الآن فسأروي لك قصتها: كانت الآنسة كارميليتا (التي لم يعرف لقبها أحد) سليلة عائلة من أثرى عائلات ميديِّين[21] وأبرزها. وكان لها حبيب في غاية الوسامة والثراء وهي في الخامسة عشرة من العمر، فتقدَّم لخطبتها وطلب الزواج منها في غضون ثلاثة أعوام. غير أنه وضع شرطًا واحدًا: فهو لن يتزوَّج من كارميليتا ما لم تسمن، إذ يبدو أنها كانت تبلغ من الهزال حدًّا جعلها تُلقَّب بالخيط.

عرضها أبواها على خيرة أطباء ميديِّين، ولكن

كارميليتا لم تسمن، سافرا بها إلى بوغوتا، حيث عُرِضَت على أطباء جدد، وتلقَّت علاجًا جديدًا، ولكن كارميليتا لم تسمن. سمعا بأمر طبيب ألماني ذائع الصيت في بنما، فأبحرا مع كارميليتا إلى بنما، وهناك رآها الطبيب وقطع وعدًا بأن يجعلها تسمن في غضون ثلاثة أشهر، ولكنها لم تسمن، لأن عينًا حاسدة قد أصابتها. من بنما إلى كالي[22]، ومن كالي إلى كيتو[23]، حتى لم يغد باقيًا على انقضاء الأعوام الثلاثة أكثر من ستة أشهر، وكارميليتا ما زالت خيطًا. عادوا إلى ميديِّين وقد أدركهم اليأس، فنذروا نذرًا لعذراء تشيكينكيراه إن هي صنعَت معجزة مع كارميليتا وجعلَتها تسمن. بلغ اليأس بها وبأسرتها مبلغه. ظلَّ حبها لخطيبها يزيد يومًا بعد يوم، في حين ظلَّ تمسُّكه بقراره يزيد يومًا بعد يومًا، فإما تسمن كارميليتا وإما لا أتزوَّجها. وفي أثناء خروجهم من القدَّاس، يومَ أحد الشعانين على وجه التحديد، التقوا بصديقة قديمة من أصدقاء الأسرة، وتُدعَى باكيتا. أخبرَتهم باكيتا بوصول ساحر إلى پاكورا[24]، ساحر يشفي من كل داء، من كل داء، من كل داء... فتجلَّى بصيص من الأمل في عيون أفراد الأسرة جميعًا، وفي صبيحة اليوم التالي سافروا قاصدين پاكورا. حدَّق الساحر في عينَيها طويلًا وعميقًا، ثم طلب منها أن تخرج لسانها، وربَّت على ظهرها ثلاث مرات، وبعد لحظات طوال من الصمت أعلن عن إصابة كارميليتا بداءين: الديدان والحسد. ناولها عدة أعشاب

مصحوبةً بالابتهالات لعلاج الحسد، أما لعلاج الديدان فناولها قارورتَين كبيرتَين من سائل بنّيّ ضارب إلى الأرجواني:

- سترين بعينَيك يا سيدتي، فصغيرتك سوف تسمن في غضون ثلاثين يومًا ليس إلّا، ولسوف تفارقها الأرواح الشريرة لحظة تمام البدر. أما الديدان، فلسوف تُخرِجها خلال أسبوع، تفحَّصوا فضلات الصبية للاقتناع بما أقول.

لم يعرف أحد ما إذا كانت الأرواح الشريرة قد فارقت جسد كارميليتا أم لا، أما الديدان فقد خرجَت منها بالعشرات، وراحت كارميليتا تسمن وتسمن بسرعة هائلة، حتى إن خطيبها لم يتعرَّفها حين زارها. ظلَّت كارميليتا تسمن، فقال خطيبها إنه ما عاد يريدها، لأنهم بدَّلوها. عادت الأسرة إلى الساحر لتعرف ما إذا كانت الصغيرة ستظلُّ تسمن، فاضطرَ الساحر إلى الاعتراف بأنه قد أخطأ وناولها قارورتَين لتسمين البقرات العجاف. وهكذا انقطعَت كارميليتا عن العالَم واعتكفَت في الدير. لم تتمكَّن من الالتحاق بالرهبنة لأنها كانت لا تزال مغرمة بخطيبها، ولكنها تبرَّعَت بثروتها كاملة للدير لمُجرَّد أن يُسمَح لها بالعيش هناك.

عندما وصلنا إلى الدير كانت الآنسة كارميليتا قد تقدَّمت في العمر. كانت البنات والراهبات جميعًا يستغرقن في الصلاة طوال اليوم بمُجرَّد أن يبدو على كارميليتا أنها فقدَت شيئًا من وزنها، ويبتهلن من أجلها

كي تسمن من جديد. ذلك أنها، طبقًا لما رُوِي عنها، قد أصيبَت منذ أعوام بداء خطير يُدعى داء الحزام، يظهر على شكل بقعة سوداء تحيط بخصر المصاب، وبمُجرَّد أن تلتحم البقعة، أي بمُجرَّد أن يتلاقى طرفاها حول الخصر، يقضي المريض نحبه. ولذا كانت الآنسة كارميليتا تقضي يومها في الأكل. فكانت إحدى البنات العاملات في المطبخ تمضي يومها منصرفةً إلى تحضير الحساء والشوكولاتة والكعك والمربَى، كان الطعام يُحمَل إليها كل ساعة تقريبًا، لئلَّا يتلاقى طرفا الحزام المحيط بخصرها.

كانت تعيش بين الحجرتَين الوحيدتَين في باحة العذراء، حيث وُضِع في الحجرة الصغرى سريرٌ عملاق صُنِع من أجلها خصيصًا، وأحيط بستار أبيض شأن أسِرَّة الراهبات. وفي الحجرة نفسها استقرَّ طست كبير، وإبريق، ودلو. أما الحجرة الثانية فقد اشتملَت على صندوقَين ضخمَين يكسوهما الجلد المُثبَّت بالمسامير المذهَّبة. روَت البنات أن هذين الصندوقَين كانا زاخرَين بالعملات الذهبية والأحجار النفيسة. وفي أحد الأركان استقرَّ بيانو كبير، إذ كانت كارميليتا مُتيَّمة بالموسيقى، وكانت تبتكر ألحان جميع الترانيم التي نترنَّم بها في المُصلًى، وتبتكر قطعة موسيقية مصحوبة بالترانيم بمناسبة عيد ميلاد رئيسة الدير في كل عام. ورغم أن يدَيها كانتا عبارة عن كرتَين، فقد بدا لنا عزفها بديع الجمال. كانت حادة المزاج، تسيء معاملتنا بشدة،

وتسبق الراهبات إلى معرفة كل ما يجري في الدير من دون أن تغادر حجرتَيها قط. كانت تعرف اسم كل واحدة منا وقصة حياتها. وكانت رئيسة الدير ترجع إليها في كل المشكلات، الخطير منها والتافه، أما نحن فلا يحقُّ لنا لقاؤها إلَّا مساء السبت والأحد، واحدة تلو الأخرى. فكانت تجلس على مقعد من الجلد وإلى جوارها طاولة ذات دواليب، وهناك تأكل وتكتب وتؤلِّف موسيقاها. كانت تتحكَّم في مصير كل واحدة منا وهي في موضعها على ذلك المقعد خلف تلك الطاولة، في ما يشبه السحر. كانت مغالية في لطفها وجفائها على حدٍّ سواء، وإن اعتبرَتنا نملات مسكينات بائسات بوجه عام، فكانت كل لفتة من لفتاتها تنمُّ عن الازدراء الدفين الذي نبعثه في نفسها. بل إنها كانت تصنِّف الراهبات أيضًا إلى طبقتَين، سليلات الأسر الكريمة من جهة، والأخريات من جهة أخرى. فما كانت ترى أحدًا في المنزلة نفسها إلَّا رئيسة الدير، إذ جمعَت بينهما صداقة حقيقية راسخة. كانت رئيسة الدير تعزف البيانو والأرغن مثلها، الأمر الذي كان بمثابة نقطة تلاقٍ وثيقٍ بينهما. لعلَّك الآن تفهم السبب الذي جعل رئيسة الدير تقدِّمنا إلى الآنسة كارميليتا بعد أن قدَّمَتنا إلى العذراء، والسبب الذي جعل رئيسة الدير في حاجة لتأييد الآنسة كارميليتا كي تريح ضميرها المُثقَل بخرق اثنتَين من قواعد الدير: أولاهما حظر قبول البنات بغير شهادة المعمودية حظرًا مطلقًا، وثانيتهما حظر قبول البنات دون العاشرة. لم تكُن تلك

دارًا للأيتام، وإنما دارًا للبنات المعوزات، سواء أكانت لهنَ عائلة أو لم تكُن، تهدف إلى تعليمهنَ حرفة مقابل رسوم قدرها عشرة بيزو كل شهر، وإن كانت القواعد أكثر تساهلًا في تلك النقطة، نظرًا لعجز الكثيرات منا عن دفع العشرة بيزو. أما العائد الذي كان يدرُّه عملنا فكان يذهب بكامله إلى الراهبات، وأجزم لك أنه يُقدَّر بآلاف البيزوات.

لشد ما يضجرني الحديث إليك عن المنظومة، ولكني مُضطرَّة إلى التطرُّق لها شيئًا فشيئًا كي أعطيك فكرة واقعية دقيقة عن حياتنا.

جاءت الأخت ماريا راميرِس لتأخذنا من جناح الآنسة كارميليتا التي وافتها باسمَينا وبما يُعرَف عن حياتنا. صحبَتنا الأخت ماريا راميرِس إلى مهجع الطفل يسوع، مهجع الصغيرات الذي كان بابه يُقفَل بالمفتاح شأن أبواب الدار كافة. وُضِع سريرانا قرب سرير الأخت ماريا راميرِس الذي يحيط به ستار. جعلَتنا الأخت نخلع ثيابنا الرمادية التي صنعَتها من أجلنا الراهبات الأخريات، ثم فتحَت خزانة ضخمة وشرعنا نجرِّب مآزر قديمة سبق أن ارتدَتها بنات أخريات. كان لزامًا على البنات ارتداء تلك المآزر ذات الثنايا الطويلة، والأردان الطويلة، والياقة العالية، والمُربَّعات الزرق والبيض متناهية الصغر. أمرَتنا بخلع الصندل، وقالت إنه من الواجب على جميع الراهبات هناك أن يسرن حافيات في ما خلا العجائز، ولمَّا كنَّا قد اعتدنا السير حافيتَين فلم نأبه

لذلك. طلبَت منا أن نخبرها بما يعوزنا، وقالت بضرورة أن نخبرها بكل ما يجري لنا، لأنها هي التي سوف تتولَّى أمرنا. قالت إيلينا إنها لن تتركني أنام وحدي، وإن سريرًا واحدًا يكفينا، ذلك أنها تخشى فقداني وهي نائمة. فهدَّأت الأخت ماريا راميرِس من روعها وقالت إنها سوف تساعدها على الاعتناء بي.

خرجنا من المهجع الذي أوصدَته بالمفتاح من جديد وذهبنا إلى الباحة الثانية التي كانت أكبر من باحة العذراء بثلاث مرات، وإن خلَت من الأزهار والأشجار، كانت مرصوفة بالآجر وتحيط بها الأروقة والأعمدة شأن الباحة الأولى، ويطلُّ عليها الكثير من الأبواب والنوافذ، وإن كانت الأبواب مُوصَدة والنوافذ مطليَّة بالأبيض، ما يحول دون الرؤية من خلالها. ران صمت مطبق، ولم نرَ أيَّ كائن غيرنا. سألتُها أين البنات الأخريات، فقالت إنهنَّ في المشاغل. سألَتها إيلينا عما إذا كُنَّ كثيرات، فقالت الأخت ماريا راميرِس:

- كثيرات، كثيرات.

قلتُ أنا:

- كثيرات؟ كم تقريبًا؟

- كثيرات... مئة وخمسون تقريبًا.

- وكم تبلغ المئة والخمسون؟

وفي تلك اللحظة دقَّ جرس خلفنا بقوة بلغت من الشدة حدًّا جعلنا نقفز على الأرض. بعد مضي دقيقة بدأت تُفتَح جميع أبواب الطابق الثاني وتخرج منها

بنات، ثم ينزلن على الدَّرَج في جلبة شديدة، حتى بَدَوْن أقرب إلى قطيع من الأبقار. الدَّرَج... الأدراج كافة، كانت لها أبواب موصدة بالمفاتيح على الدوام، ولكن أبوابها كانت عبارة عن أسيجة لا تبلغ السقف، فيرى الناظر ما يجري على الجانب الآخر من الباب عَبر السياج الذي يشفُّ عما وراءه. هرعَت الأخت ماريا راميرِس إلى الباب، وأبرزَت من نطاقها حلقة مفاتيح ثم فتحَت باب الدَّرَج. ما كادت تجد من الوقت مُتَّسعًا لاستعادة المفتاح، إذ اندفعَت البنات إلى الخارج دفقة واحدة، وبالكاد تمكَّنَت من الوقوف بمحاذاة الجدار لئلًا يدهسنها. فبقيث وإيلينا ضائعتَين وسط عالَم من التنانير والأرجل والأقدام الحافية والأيدي التي لا يُعرَف من أي أذرعٍ تنبت. وتتابعَت المُربَّعات الزرق والبيض على مرأى منا بسرعة تبعث على الدوار. رحتُ أنادي إيلينا صارخةً، ذلك أن بنتًا بدينة، ربما كانت الوحيدة التي رأتني، حملَتني ودفعَتني إلى أحد الأعمدة، ربما فعلَت ما فعلَت لئلًا تعتصرني الأخريات. مرَّت موجة التدافع، وإذا إيلينا في أقصى طرف الباحة وأنا في أقصى الطرف المقابل. فهرعَت كلٌّ منا إلى الأخرى مدفوعةً بالغريزة، ثم تعانقنا باكيتَين. وراحت إيلينا تصرخ:

- إيمًا، صغيرتي. لن أترك يدكِ مرة أخرى، أبدًا. ماذا نفعل إن تهنا وسط كل أولئك البنات...؟

فقالت الأخت ماريا راميرِس التي كانت قد أوصدَت

باب الدَرَج من جديد:

- إن تهتما، فسوف أعثر عليكما بنفسي.

كانت البنات جميعًا قد اختفين عَبْر باب آخر في القسم الخلفي، في حين جاء صياحهنَ مسموعًا. قالت الأخت ماريا راميرِس لنا أن نتبعهنَ، أما نحن فرحنا نرتعد خوفًا.

- لا تفزعا، فأنا لن أترككما وحدكما.

عند مدخل الباحة الثالثة، وقفَت راهبة على كل جانب من جانبَي الباب، إحداهما الأخت تيريسا كارباخال، العرجاء المعنية بشؤون المطبخ، أما الأخرى فالأخت إينيس سورِّيًا التي تشرف على شؤون المغسلة، وبرفقتهما بنتان تكبراننا عمرًا، كل واحدة منهما تحمل سلَّة ضخمة، في إحدى السلَّتَين قطع من أقراص الپانيلا، تكاد تكون متساوية في الحجم، وفي السلة الأخرى أرغفة من الخبز الأسمر. كانت كلَّما مرَّت بنت أعطينها قطعة من أقراص الپانيلا ورغيفًا من الخبز الأسمر. أخبرَتهنَ الأخت ماريا راميرِس باسمَينا. بدَت البنات أكثر هدوءًا، وقد انقسمنَ إلى مجموعات، وجعلَت كل منهنَ تأكل حصتها من الپانيلا والخبز. أمسكَت كلٌّ منا رغيف الخبز وقطعة الپانيلا بيد واحدة، وبالأخرى تشبَّثنا ببعضنا بعضًا. جعلنا نأكل شاخصتَين إلى الباحة لنرى ماذا تفعل الأخريات. وجدنا بعضهنَّ يتجاذبن أطراف الحديث، والبعض الآخر يتنزَّهن، أما الصغيرات فقد انطلقن راكضات. كانت الباحة الثالثة فسيحة بقدر

الثانية، وإن رُصِفَت أرضيتها بالحجارة وغُطِّي قسم منها كي نجد لأنفسنا ملاذًا من الأمطار في أوقات الراحة. دقَّ الجرس مُجدَّدًا، فهبَّت إيلينا كالزنبرك، جذبَتني من ذراعي وانسلَّت معي خلف الباب خشية أن تدهسنا البنات مرة أخرى. فأقبلَت الأخت ماريا رامِيرِس لتخرجنا من هناك وأخبرَتنا بضرورة أن نصطفَّ في الطابور. كانت البنات يصطففن بحسب أطوالهن، اثنتَين اثنتَين. لم تقتضِ الحاجة قياس أطوالنا، إذ كنتُ وإيلينا الأقصر طولًا، فاتَّخذنا مكاننا في مُقدِّمة الطابور الأول.

عانينا كثيرًا في الأيام الأولى، فكل شيء غريب علينا، وكل ما تقوله الراهبات عصيٌّ على إدراكنا. كُنَّا نخشى البنات، ولم نتحدَّث إلى أيٍّ منهنَّ. فلم يتقرَّبن إلينا هنَّ أيضًا، بل كُنَّ يدعوننا الجديدتَين كلَّما اضطرَّت إحداهن لأن تقول لنا شيئًا أو تعلِّمنا شيئًا. في أوقات الراحة كان الجميع يشارك في شتَّى الألعاب الكثيرة، أما نحن فما كُنَّا نعرف أيَّ لعبة. في المُصلَّى كانت الأخريات يصلِّين ويرنِّمن، في حين لا نعرف نحن ما ذاك ولا ما الغرض منه. كانت الراهبات يتحدَّثن عن الخطيئة، والشيطان، والسماء، والجحيم، وخلاص نفوسنا، ونيل الغفران، والندم على خطايانا، والامتنان للعذراء لأنها أنعمَت علينا وآوتنا في بيتها. لم يكُن أيٌّ من ذلك يعني لنا شيئًا. في تلك الأيام عرفنا ما العزلة المطبقة وما الغياب التام للألفة. بذلنا جهودًا هائلة كي ندرك ذلك الذي يُدعَى باللغة المعاصرة غياب التفاهم المطلق.

بدا القلق الجاد على الراهبات. أما نحن فخفنا أن يتخلَّين عنا لأننا آثمات. تُرى، ما الإثم...؟ ومن عساه يكون ذلك الشيطان الذي يأخذ البنات الآثمات؟

عناق حار وقبلات لجميع أفراد الأسرة.

إيمًا.

---

(20) المناولة: تناوُل القربان المُقدّس عند المسيحيِّين.

(21) ميديِّين: ثاني أكبر المدن الكولومبية، وتقع في المنطقة الوسطى من جبال الأنديز.

(22) كالي: ثالث أكبر المدن الكولومبية بعد بوغوتا وميديِّين، وتقع في الجنوب الغربي من البلاد.

(23) كيتو: عاصمة الإكوادور وأكبر مدنها.

(24) پاكورا: قرية كولومبية تقع في المنطقة الوسطى من جبال الأنديز.

الرسالة الثالثة عشرة

عزيزي خيرمان،

جئنا إلى الدير من عالَم ضارب في البعد، إلى حدٍّ جعل التأقلم في غاية البطء والمشقّة. انصعنا للأوامر، أرهفنا السمع، وعلى الرغم من ذلك لم نفهم من كل ما يجري حولنا سوى أقل القليل. فحالَ عجزُنا عن الفهم والتأقلم دون القدرة على التواصل مع رفيقاتنا، أولئك اللائي شعرنا بالخوف منهنَ أكثر مما شعرنا نحوهنَ بالحب. كُنَّا لا نزال في حاجة لتعلُّم كل شيء، فاستغلَّت الأخريات جهلنا وقسون علينا. لم يكُن هناك من ينادينا باسمَينا، بل كان الكل يدعونا الجديدتَين. «فلتغسل الجديدتان الصحون، الجديدتان هما اللتان كسرَتا هذا، الجديدتان هما اللتان سرقتا ذاك»... ناهيك عن عدد المرات التي دهَسن فيها على أقدامنا وقرَصن بشرتنا وجذَبن شعرنا أو يكتفين بإخراج ألسنتهن لدى مرورهن بجوارنا. كان قد مرَّ على وصولنا إلى الدير أيام طوال، وذات يوم، في موعد الراحة، تلقَّت إيلينا من الأخت تيريسا أمرًا بكنس المخبز والمساعدة في لملمة محتويات جوال مُمزَّق من الطحين. كنت وحدي، على مقربة منها، أترقَّبها واقفة قرب الجدار، وكانت مجموعة من البنات يلعبن لعبة الحلقة، وقد أمسكَت كل منهن بيد الأخرى. لا أدري كيف وجدتُ نفسي فجأةً وسط الحلقة التي بدأت تضيق، وتضيق، في الوقت الذي انطلقن فيه صارخات:

- طفلة قذرة، غارقة في الخراء، قذرة!...

أطبِقَت الحلقة عليَّ وطَرِحتُ أرضًا ثم خلعن سروالي الداخلي الذي لم أكُن أملك سواه. كان قذرًا، بطبيعة الحال، إذ كنتُ لا أزال أرتدي السروال الداخلي الذي ألبسَتنيه السيدة ماريا عند رحيلنا عن فوساغاسوغا. كانت إحداهن بدينة، وحولاء مثلي، علَّقَت سروالي الداخلي على طرف عصا المكنسة، ثم مضَت في مُقدِّمة الموكب وهي ترفع المكنسة عاليًا، اصطفَّت البنات في طابور طويل وطفن جميع أرجاء الباحات وهن يصرخن بصوت واحد:

- سروال الطفلة الجديدة غارق في الخراء، سروال الطفلة الجديدة غارق في الخراء...

سمعَت إيلينا العبارة الأخيرة وخرجَت كالمجنونة، تجري وتناديني، في حين اختبأتُ أنا في إحدى دورات المياه، أرتجف خوفًا. ومن حسن الحظ دقَّ الجرس إيذانًا بانتهاء الراحة. سألَت الأخت تيريسا عن تلك الخرقة المرفوعة على المكنسة فأجابتها البنات بصوت واحد:

- سروال الطفلة الجديدة الغارق في الخراء.

فاستشاطت الأخت تيريسا غضبًا لأنه ليس من الاحتشام تجريد بنت من سروالها الداخلي. وفي اليوم نفسه تلقَّت الأخت ماريا راميرِس أمرًا بأن تصنع سروالَين من أجلي.

كانت قواعد الدير في غاية الصرامة، إذ رُصِدَ عمل

ثابت، محدَّد، لا يتبدَّل، لكل ساعة من ساعات اليوم. في الخامسة والنصف صباحًا يقرع جرس الاستيقاظ، فنستوي في جلستنا على الفراش ونؤدِّي أول أعمال اليوم، وذلك بتقديم جميع ما نعمل على مدار اليوم الذي ما زال في مطلعه للرَّب والعذراء مريم كي يشملانا برحمتهما اللانهائية ويغفرا لنا خطايانا، ويخلِّصانا من الموت مثقلين بالخطايا المميتة، ويهبانا النور والقوة حتى نسلك طريق الخير دون سواه، ونستحقَّ الذهاب معهما إلى ملكوت السموات. رباه!... كم من الكلمات والكلمات التي لم تعنِ لنا شيئًا على الإطلاق. كنت وإيلينا نتبادل النظرات، ونهزُّ أكتافنا ضاحكتَين.

لم يكُن أمامنا أكثر من نصف ساعة لارتداء ثيابنا، وترتيب الفراش، واستخدام دورة المياه، وقضاء حاجتنا، أشد هذه الأمور صعوبة. كان قضاء الحاجة عندنا بمثابة استعراض حقيقي للقوة. فبمُجرَّد أن تُفتَح أبواب المهاجع كُنَّا نندفع إلى الخارج كالأمهار بحق، بأقصى ما نملك من سرعة، كي نصل أولًا إلى المراحيض الخمسة الوحيدة المتاحة. لم يكُن هنالك من يحترم الآخر، وعلى الدَّرَج كانت البنات يتكالبن من أجل الوصول أولًا. وبطبيعة الحال، ما كانت الواصلات أخيرًا يجدن من الوقت مُتَّسعًا لاستخدام دورة المياه، بل يقضين النصف ساعة واقفات في الطابور حتى يجيء دورهنَّ، فيكاد يبدو مظهرهنَّ طريفًا وهنَّ يقفزن على قدم واحدة، أو «على ساق الديك» بحسب ما كُنَّا نقول

آنذاك، وذلك لكبح رغبتهن في قضاء الحاجة. وبطبيعة الحال، كنتُ أعجز عن الانتظار، وأنا التي يستحوذ عليَّ الخوف كليًا، فينتهي بي المطاف وقد تبوَّلتُ على الأرض على مرأى من البنات جميعًا، أولئك اللائي كنَّ يدعونني قذرة، عفنة... هندية همجية. علمًا أن كلمة هندية كانت تُعدُّ شتيمةً.

وفي السادسة صباحًا كان الجرس يدقُّ مرة واحدة كي تصطفَّ البنات استعدادًا للدخول إلى المُصلَّى. كنَّا ندخل اثنتَين اثنتَين، فنمرُّ من أمام المذبح الذي يتوسَّط المُصلًّى، هناك حيث يتعيَّن علينا السجود، فنثني الركبة اليمنى حتى تمسَّ الأرض مع رسم علامة الصليب في آن واحد، وخلفنا تقف الأخت تيريسا دومًا كالجندي، وهي الأشد حنقًا وقسوة ووحشية بين الراهبات جميعًا. كانت مشرفة المغسلة، ومخزن الثياب، والممرَضة، والمراقبة على الطوابير، ولذا كانت هي المُكلَّفة بالعناية بمظهرنا الشخصي، أي المعنية بالإشراف على تصفيف شعرنا، ونظافة أقدامنا (كنا نسير حافيات الأقدام دومًا، باستثناء بعض الراهبات العجائز)، وكانت تفحص مآزر القدَّاس للتأكُّد من خلوها من المواضع القذرة أو المُمزَّقة أو المُجعَّدة، وتشرف على أداء السجود بما يليق. أما البنت التي لا تثني ركبتها حتى تمسَّ الأرض فكانت الأخت تيريسا تجذبها من ضفائرها وترفعها عن الأرض ثم تأمرها بأن تكرِّر السجود ثلاث أو أربع مرات. كانت المواقع ثابتة في المُصلًّى وقاعة الطعام، وكانت

الصغيرات هنّ الأقرب إلى المذبح. أما الراهبات فلكل منهنّ كرسي صغير تجثو عليه بركبتَيها ومقعد يوضع في أحد الممرات المفضية إلى المدخل، على نحو استراتيجي، ما يتيح لهن الإشراف على كل حركة وكل لفتة نأتي بها.

كانت جميع الصلوات التي نتلوها باللاتينية، نحفظها عن ظهر قلب وإن لم يُفسّر لنا أحد معناها، فلا شيء يهمّ إلّا تلاوتها بورع وبالنبرة القوية أو العذبة المُتوسّلة أو الدرامية التي علمَتنا إياها الراهبات.

كل يوم بلا استثناء، كان يحضر لرفع صلاة القدّاس كاهن واحد لا يتبدّل إلّا في ما نَدَر. حين وصلنا، كان القسيس المُلحَق بالدير هو الأب باكاوس، هكذا كنّا ننطق اسمه. كان ألمانيًا، طويلًا نحيلًا كالمسمار، قذرًا وأشعث الشعر على الدوام، ومن جسده تفوح رائحة قوية هي مزيج من روائح صبغة اليود والمنثول والبخور والشمع المحترق. كان ذلك هو الرجل الوحيد والشخص الوحيد من العالَم الذي يحقُّ لنا أن نراه. كان الأب باكاوس يرفع صلاة القدّاس بسرعة الأعاصير، ويهرول من جانب إلى آخر حول المذبح في عجلة بالغة حتى إنه كان يلتفت إلينا عند موضع «الرَّب معكم» أو «ليبارككم الرَّب» فنحسُ - نحن الصغيرات الجالسات قرب المذبح - بالريح التي يرسلها رداؤه لدى خفقانه في الهواء. ما كان يرفع صلاة القدّاس بسرعة كبيرة وحسب، بل إنه بلغ من الخرق حدًّ أنه ما كان يمرّ يوم

إلَّا وأطاح بمزهرية أو قنديل أو كتاب الصلوات من فوق المِقرأ، أو أطاح بآنية القدَّاس التي تنسكب محتوياتها على المذبح. كان نعل الحذاء الذي ينتعله دائمًا مُفككًا، ما جعله يشتبك بالبساط في كل مرة يدخل فيها إلى المُصلَّى، بلا استثناء. كان يمسك الكأس بكلتا يدَيْه، فنراه ينحني إلى الأمام حتى يكاد يمسُّ الأرض، ولكنه يتمكَّن من فرد قامته ويستعيد توازنه في اللحظة الأخيرة دومًا. بطبيعة الحال، كُنَّا نغرق في الضحك. وبخلافنا، كان الأب باكاوس يمسُّ الأرض بركبته لدى السجود، بل إنه كان يهوي بعنف شديد يرتجف له المذبح وأكاليل القديسين لعدة ثوانٍ. كثيرًا ما طلبَت الراهبات استبدال آخر به، فكان طلبهن يُرَدّ بدعوى نقص أعداد الكهنة.

في أيام الآحاد كان يفسِّر لنا الإنجيل بألمانية ذات صبغة إسبانية، فيتحدَّث بالسرعة التي يتحرَّك بها.

في ختام القدَّاس كان يباركنا بشعاع القربان[25] المُقدَّس. كان يهزُّ المبخرة فيكاد يطيح بها إلى السقف، أما نحن فنغمض عيوننا ونحني رؤوسنا ترقُّبًا للواقعة.

وفيما هو يباركنا، كانت البنات المشاركات في الجوقة ينهضن ويتحلَّقن حول الأرغن الذي تعزف عليه المشرفة، الأخت دولورِس. كانت الترانيم باللاتينية أيضًا. كانت لحظتي الأثيرة التي لا أملك فيها إلَّا النظر إلى الخلف حتى أرى كيف يرنِّمن، فتقرص الأخت تيريسا ذراعي في كل موضع، بطبيعة الحال. ونظرًا

لأني أنا الصغرى، كنتُ أجلس بجوارها لتعلِّمني كل ما يجب عليَّ فعله.

بمُجرَّد أن تتردَّد أنغام الأرغن، كنت أعجز عن كبح دموعي المنسابة على وجنتَيَ ويدَيَ اللتين ينبغي لي عقدهما على مسند المقعد. فلطالما ذكَّرني الأرغن بالبيانولا التي كانت في مسرح فوساغاسوغا، في تلك الحقبة التي بدَت لي أكثر سعادة لأني حظيتُ خلالها بقدر أكبر من الحرية وفعلتُ ما يلذُّ لي، أما الدير فقد بدا لي أحزن مما ينبغي، ولم آبه لرفيقاتي هناك مطلقًا.

كنا نخرج من المُصلَّى في السابعة، فنبدِّل بمآزر القدَّاس مآزر العمل ونصطفّ للدخول إلى قاعة الطعام، حيث تتناول كل واحدة منا فطورها المُؤلَّف من رغيف الخبز الأسمر وفنجان من منقوع الڤانيلا البارد في معظم الأحوال. فلا تكاد الواحدة تنتهي من تناول الفطور حتى تخرج للشروع في المهمات، أي تنظيف الدار.

في مطلع كل شهر كانت تُقرأ علينا قائمة بالمهمات الواجب أداؤها. فتُكافأ البنات اللائي أحسنَّ السلوك على مدى الشهر الماضي بتولِّي أيسر المهمات: بما في ذلك كنس رواق أو درج من الأدراج الأربعة، أو تنظيف الدرابزين، أو مسح الزجاج، أو كنس مشغل التطريز أو المهاجع. وكذلك المُطرِّزات الكبيرات كُنَّ يتولَّين مهمات يسيرة لئلَّا تتأذَّى أيديهنَّ. أما المهمة التي كانت بمثابة الجائزة الأولى فهي تنظيف حجرة المُقدَّسات[26].

والمُصلَّى، المكانة التي لا تبلغها سوى الأكبر عمرًا بيننا، شريطة أن يتحلَّين بسلوك لا تشوبه شائبة. أما المهمات التي كانت بمثابة عقوبة فهي العمل في المطبخ وغسل قدور الطعام الضخمة وتنظيف حاويات القمامة ومسح بلاط الباحات والأروقة - مع الركوع على الركبتَين - ولكن المهمة الأسواء على الإطلاق، المحجوزة لأكثرنا عصيانًا للأوامر، هي تنظيف المراحيض. وكما أخبرتُك، لم يكُن هناك سوى خمسة مراحيض لما يقرب من مئتي بنت يتعيَّن عليهن استخدامها في الوقت نفسه، ذلك الاستعراض الذي أعجز عن وصفه لك. كانت دورات المياه في غاية الضيق، لا تصلها المياه الجارية، والمراحيض عبارة عن فجوات في الأرضية الإسمنتية، مُثبَّتة فوقها صناديق مُربَّعة تتوسَّطها فجوات دائرية. كانت غالبية البنات من الأرياف، ويتصرَّفن كما يفعلن في الأرياف. أما الراهبات فقد أحجمن عن تعليمنا أي شيء بهذا الصدد، غالب الظن أن يكون ذلك بدافع الحياء، ولذا فإلى جانب الفضلات، كانت تتراكم في دورة المياه أكداس من الأسمال بجميع الألوان. أجزم لك أنه أبشع ما رأيتُ مدى الحياة. وبطبيعة الحال، كانت الضرورة تقتضي جمع تلك الأسمال والأوساخ يوميًا ثم تنظيف المكان بالماء الغزير والمكنسة وإزاحة الأوساخ وصولًا إلى المصرف الواقع في الباحة المجاورة، ثم تطهير دورات المياه والباحة بدلاء المياه الساخنة ومُطهِّر الكريولين. وباستثناء تنظيف

المراحيض، كان يجب الانتهاء من مهمات الدار كافة مع دقات الثامنة، وهي الساعة المُقرَّرة للدخول إلى المشاغل. كانت المشاغل أربعة، أهمها وأربحها للدير هو مشغل التطريز اليدوي، يليه مشغل التفصيل والحياكة والخياطة على الآلة، الذي كان في الطابق الثاني أيضًا، مثله كمثل مشغل التطريز. وفي الطابق الأرضي كانت مخازن الثياب ومشاغل رتق الثياب والأنسجة مُوزَّعة على شتَّى الباحات، أما في الباحة الرابعة، على مقربة من الأرض الخلاء، فكانت المغسلة وحجرة كي الثياب.

كانت حياتنا مُكرَّسة لهدفَين لا ثالث لهما، يسيران جنبًا إلى جنب: العمل بأقصى ما يمكن لكسب قوتنا من جهة، ومن جهة أخرى خلاص نفوسنا، على حدّ قول الراهبات، وذلك بالابتعاد عن خطايا العالَم، ولكنَّ ثمن خلاص النفوس كُنَّا ندفعه بالعمل عشر ساعات يوميًا، من دون أدنى اعتبار للسن أو الإمكانيات، فالعمل مُتوفِّر من أجل الجميع دومًا. لم نرَ قط أولئك الذين كانوا يتسلَّمون نتاج العمل، إذ كانت الراهبات هن اللاتي يتحدَّثن إليهم مباشرةً. كُنَّا نعرف أسماء بعض المُشترِيات، أولئك اللاتي قالت الراهبات إنهنَّ مغاليات جدًا في مطالبهنَّ، ويتفحَّصن كل قطعة بدقة. كانت إحداهنَّ تعهد إلينا بصنع ملاءات ومفارش مُطرَّزة وتُدعَى السيدة سيبيرًا. أما خيرة المُشترِيات فهن بضع سيدات يُلقَّبن بالتركيات[27]. كُنَّ يُحضِرن لنا الكثير والكثير من أجمل صنوف الكتان حتى نطرِّز لهن

المفارش والملاءات. كان العمل الذي تعهد به إلينا التركيات هو الأكثر أهمية، وكُنَّ يُحضِرن بأنفسهن رسومًا في منتهى التعقيد، فلا يبقى من المفارش سنتيمترًا واحدًا خاليًا من التطريز. وكُنَّ يعهدن إلينا بصنع ثياب داخلية من الحرير وثياب نوم مُطرَّزة حتى الحواف، وأطقم ثياب كاملة من أجل الأعراس الفخمة المقامة في بوغوتا وكالي وميديِّين، وكذلك من أجل حفلات المعمودية الكبرى. أما الكنائس والأديرة الأخرى فكانت تعهد إلينا بصنع الأردية والتونيات وثياب الكهنوت والمفارش المُستخدَمة في المذابح. كانت واحدة من الحرف التي انفرد بها الدير هي التطريز بخيوط الذهب. لم يكُن تطويع خيوط الذهب والخرز أمرًا في غاية الرهافة والصعوبة وحسب، بل إن البنات صاحبات الأيدي اللائقة كُنَّ قليلات جدًا... وبذلك أعني أن الذهب كان يسودّ في أيدي الكثيرات، الأمر الذي كانت الراهبات يدعونه الأيدي الرديئة، ولذا كان يُحظَّر على ذوات الأيدي الرديئة لمس الذهب لئلَّا يفقد بريقه، حتى وإن كُنَّ يحسنَّ تطويعه. كان الجيش أيضًا يعهد إلينا بصنع الكثير من الرايات والشعارات من أجل الاحتفاليات والمواكب، فكل فرقة في حاجة لراية تحمل اسم الكتيبة مُطرَّزًا بالخيوط الذهب فضلًا عن الشارات التي تميِّزها. وكذلك الجمعيات الكاثوليكية من أمثال سان بيسينتي وسان أنطونيو وأخوات الكرمل وبنات قلب يسوع وبنات قلب مريم، إلخ، إلخ. كانت

تلك الجمعيات كلها تعهد إلينا بصنع الرايات من أجل المواكب. وكذلك البيت الرئاسي كان يعهد إلينا ببعض الأشغال أيضًا.

عزيزي خيرمان، قد يبدو لك الأمر برمته واضحًا كل الوضوح، أما نحن فلم نرَ من أولئك الذين كانوا يحملون نتاج عملنا ولا حتى أطراف أنوفهم، بل كُنَّا نجهل كل شيء عن كل شيء: ذلك المزيج من الأعمال، والتركيات، وضُبَّاط سلاح المشاة، وبنات قلب مريم، وزنَّار رئيس الجمهورية، وطيلسان الأسقف، وثياب النوم المُطرَّزة للسادة الدبلوماسيين، كل هذا اللغو، أضِفْ إلى ذلك الصلوات اللاتينية، وتلك العبارة الحاضرة بصفة دائمة كاللازمة الموسيقية: «في العالَم»، «مِنْ أجل العالَم»، «مِنْ العالَم»، لأن كل ما يجري في الدير لا يجري في العالَم... كلًا. فالكلُّ في العالَم إلًّانا... ولا يحقُّ لنا الاستفسار عن أي شيء، فالعالم خالٍ إلَّا من الخطيئة، وكفى. ولذا كُنَّا في صلاتنا نتلو السلام عليكِ يا مريم[28] بضع مرات عند البدء في العمل وكذلك في الليل، نتلوها من أجل المُشترين الآثمين، أولئك الذين ننتفع بما يعهدون به إلينا من أشغال حتى نتمكَّن من كسب قوتنا ونخلِّص نفوسنا.

بطبيعة الحال، ونظرًا لتلك اللجاجة في الأمر نفسه، انتهى بنا المطاف وقد اقتنعنا بأننا أسعد الكائنات وأوفرها حظًا على الإطلاق. ولذا لم يخطر لنا على بال أن نشكو حالنا أو نطالب بتحقيق العدالة. كانت حياتنا

بلا مستقبل ولا طموح سوى الخروج من الدير إلى السماء مباشرةً، من دون أن تطأ العالَم أقدامنا. وفي السماء ينتظرنا، القديسون والملائكة ورؤساء الملائكة والكاروبيم[29] بالأذرع المفتوحة والترانيم السماوية، ليمضوا بنا عَبر السحائب إلى ملكوت الرَّب والعذراء مريم، إلى أبد الآبدين.

أما عدوّنا الوحيد فهو الشيطان، ذلك الذي عرفنا عنه كل شيء، بل إننا عرفنا عن الشيطان أكثر مما عرفنا عن الرَّب نفسه، بما في ذلك جميع الحيل والسبل التي يلجأ إليها حتى يوقع بنا في الخطيئة. وكذلك الجحيم عرفناه حتى أقصى أرجائه، فتكوَّن لدينا الانطباع بأن في وسعنا اجتياز الجحيم بأعين مغمضة. عرفنا قدور الزيت المغلي حيث يغمس الشيطانُ أولئك الآثمين عرايا ثم يخرجهم وينزع عنهم الجلد نتفة نتفة، والشيطان يملك شوكات عملاقة من الحديد، يحرِّك بها الأرواح في آبار تستعر نارًا، وكأنه يحرِّك قطع اللحم داخل القدر. كما أنه يملك ملايين الأغلال التي يكبِّل بها المرء ثم يسحله على الطرقات الوعرة المفروشة بشظايا الزجاج والأشواك. والشيطان عملاق، في غاية الرشاقة، قادر على القفز عدة أمتار، ويضع ثيابًا زاهية على الدوام، حمرًا أو خضرًا، شعره شائك ومنتصب دومًا، كما أن له قرنَين كالثيران، وعينَين صفراوَين تقدحان شررًا، وأما أظفاره فخُضْر بالغة الطول، وأما أسنانه فضخمة كأسنان الحمار، يفتح فمه فتنبعث منه روائح فظيعة

كالكبريت. والجحيم حافل بالكهوف المعتمة حيث تقبع حيوانات مُروِّعة حبيسة، حيوانات لا نعرفها ولكنها تُدعَى أسودًا، وأفاعي، وتماسيح، وغيرها الكثير، كلها مُروِّعة، كبيرها وصغيرها. أما أولئك الذين يأثمون بالنظر، فيفقأ الشيطان عيونهم بإبر ساخنة، وأما أولئك الذين يأثمون بالكلام، فيقطع الشيطان ألسنتهم نتفة نتفة. لم نجهل شيئًا عن أمر الشيطان، ولا كان يُسمَح لنا بالنسيان... فإن تخلَّصنا من بقايا الخيط قيل لنا إن الشيطان سيلتقطها حتى يعذِّبنا بها في الجحيم، وبالمثل إن نحن أهدرنا شيئًا من الطعام. أما إن امتنعنا عن الاعتراف أو تناولنا من الأسرار المُقدَّسة من دون الاعتراف بخطايانا، فلسوف تستشري في أجسادنا الجروح المُتقيِّحة، ثم يحشوها الشيطان بالديدان الخضر والحمر والصفر التي من شأنها أن تلتهمنا.

كانت الأخت دولورِس كاستانييدا هي رئيسة الدير. كانت فارعة القوام، رشيقة جدًّا، لها بشرة بيضاء تكاد تكون شفافة، ويدان ربانيتان تعقدهما على صدرها دائمًا وتضغط بهما على المسيح المُتدلِّي من عنقها بسلسلة. كانت الأخت دولورِس هي التي تعزف على الأرغن في المُصلَّى. لم يحدث يومًا وأن رفعَت يدها علينا، أو صرخَت فينا، أو وجَّهَت لنا إهانة. لم تكُن الابتسامة الملائكية المفعمة بالطيبة تفارق شفتَيها قط. كنَّا نهيم بها عشقًا، بذلك الكائن الملائكي الذي يلقي علينا حديثًا أو محاضرة كل ليلة (قبل الدخول إلى المُصلَّى لتلاوة

صلاة الليل الأخيرة)، فكنًا ندعو ذلك اللقاء: «تحية الليل تلقيها المشرفة».

كانت لها مشية مستقيمة، وخطى رشيقة، وابتسامة أبدية. كانت تغادر حجرتها مُتَّجهة إلى الرواق حيث نترقَّبها كل ليلة في صفوف من ست بنات.

- مساء الخير يا أختنا الرئيسة.

كنا نصرخ بصوت واحد، فترفع هي يدها البيضاء البديعة وتباركنا. ثم تنتظر حتى يسود الصمت المطبق للشروع في المحاضرة. وفي حال اقترفَت بنت أو أكثر ذنبًا فادحًا في أثناء النهار، كانت الرئيسة تتطرَّق إلى الواقعة، فتوجِّه لهن اللوم فيما هي تسدي لنا النصح وترشدنا بطيبة غامرة. أما إن كان اليوم التالي يوافق أحد أعياد القديسين ذوي الشأن من أمثال القديس يوسف أو أنطونيوس أو إغناسيو أو دون يوحنا بوسكو، فكانت تحدِّثنا عن أولئك القديسين وتروي لنا نوادر من حياتهم. كانت تُحدِّثنا عن العذراء خلال الشهر المَرْيَمي[30]، وتخبرنا كيف وُلِد الطفل يسوع قبَيل أعياد الميلاد، وتُحدِّثنا عن آلام المسيح خلال أسبوع الآلام. أما في غير المناسبات، كما هو الحال معظم أوقات العام، فكانت تُحدِّثنا عن موضوعها الأثير: الشيطان.

أي مخيلة عجيبة! كانت تُحدِّثنا عن الشيطان على مدى عشرين دقيقة في المرة الواحدة، من دون أن تلجأ للتكرار يومًا، فتجد في كل مرة أمثالًا جديدة وأشكالًا جديدة وألوانًا جديدة لتصوير الجحيم، وتكشف لنا في

كل مرة عن المزيد والمزيد من صنوف العذاب، كل صنف أشرَ من سابقه. لا شك أنها كانت تؤثر شخص الشيطان ودوره، ذلك أن قدراتها بوصفها مُمثِّلة دراما قديرة كانت تبلغ أوجها في دور الشيطان، فكان فمها يتلوَّى في ألف اتجاه وهي تقلِّد أصوات الزئير والهدير الأشد هولًا. كانت عيناها تجحظان خارج محجرَيهما وتدوران في كل اتجاه، عيناها العذبتان عادةً، وفي صوتها تتجلَّى أدق الانفعالات، وتطول لحظات الصمت، وتتحوَّل يداها الجميلتان إلى أدوات تعذيب مُروِّعة، أما نحن فنصغي إليها من دون أن يرفَّ لنا جفن، بأنفاس شبه مقطوعة، وقلوبنا تثب داخل صدورنا من فرط الرهبة. أذكر ليلة، راحت تصوِّر خلالها الشيطان وجحيمه في واحد من عروضها الأوفر حظًّا من الشهرة، وفي أشد لحظات القصة هولًا على وجه التحديد، هرب القِطَّان اللذان يُقفَل دونهما باب المخبز دومًا، فانطلق أحدهما يلاحق الآخر بسرعة فائقة، ومرَّا من بين أقدامنا وكأن بهما مسًّا من الجنون. بطبيعة الحال، لم ترَ واحدة منا القطَّين ولم يخطر أمرهما لنا على بال، وإنما فكَّرنا جميعًا في الشيطان، فدبَّ الرعب بيننا، وألقينا بأنفسنا على رئيسة الدير في موجة تدافع شديدة، فهوَت الرئيسة أرضًا وقد فقدَت غطاء رأسها والمسيح المُتدلِّي من عنقها وتمزَّقَت أردانها، إذ انتزَعَت كل بنت من الرئيسة شيئًا لتدافع به عن نفسها في مواجهة الشيطان. ذلك أنها كانت عندنا بمثابة تجسيد للقداسة،

ولا سبيل لنا إلى النجاة إلَّا إذا التقطنا منها شيئًا. جرى الأمر برمته بين عويل وصراخ وشذرات من مختلف الابتهالات. عندما حضرَت الراهبات الأخريات لتخليص رئيسة الدير من تحت أقدامنا، كانت المسكينة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. فلم نعُد لرؤيتها على مدى ثلاثة أيام.

لا تلُمني، فإن كنتَ تحسب أن حضور الأفكار كافيًا، دعني أقُل لك إن غياب الأفكار يماثل عجزَ المرء عن كتابتها على نحو مفهوم. رأسي يشبه حجرة حافلة بالمُهمَلات العتيقة، حيث لم يعُد المرء يعرف ما تحويه من أغراض ولا الحال التي آلت إليها. لو أنني لم أضع نصب عينيَ الجائزة المُتمثِّلة في السفر إلى روسيا معكم، أقسم لك أني ما كنت لأمضي قدمًا في الكتابة. ولكن لا تحزن، فالشيطان يستغلُّ المحزونين أيضًا.

قبلاتي إلى غابرييلوتشا ولكم مني عناق حار،

إيمًا.

باريس، 28/2/1970

---

(25) شعاع القربان: إناء على هيئة شمس تنساب منها أشعة ذهبية ويُحفَظ فيه القربان المُقدَّس طبقًا لطقوس الكنيسة الكاثوليكية.

(26) حجرة المُقدَّسات (وتُعرَف بالسَّكرِستيَّة أيضًا): موضع حفظ ثياب الكهنة والزينة والأدوات المُستخدَمة في القدَّاس طبقًا لطقوس الكنيسة الكاثوليكية.

(27) جدير بالذكر أن الأتراك تسمية شائعة كان يُوصَف بها العرب الوافدون إلى أمريكا اللاتينية من سوريا ولبنان.

(28) السلام عليكِ يا مريم: صلاة تُتلَى تمجيدًا للعذراء مريم في الكنيسة الكاثوليكية.

(29) الكاروبيم: جوقة من الملائكة التي ورد ذكرها في غير موضع من الكتاب المُقدَّس.

(30) الشهر المَرْيَمي: شهر كامل تُكرِّسه الكنيسة الكاثوليكية للاحتفال بمريم العذراء.

الرسالة الرابعة عشرة

عزيزي خيرمان،

كان كل مشغل يخضع لإشراف راهبة مُتخصِّصة في مجالها. فأشرفَت الأخت كارميليتا[31]، القديسة التي لم أعرف سواها، على مشغل التطريز. كانت لها يدا ملاك، لا تصنع شيئًا إلَّا وكان مثاليًا. لم تطرأ مشكلة واحدة إلَّا وتمكَّنَت من حلِّها، كانت هي التي تبتكر الرسوم ثم تطبعها على الأنسجة، فنتسلَّمها مُعدَّةً للبدء في التطريز. ثم إنها ابتكرَت حروفًا رائعة الجمال والأناقة لتطريز الملاءات والمناديل وثياب النوم. كانت الواحدة منا ترتكب خطأ في أثناء التطريز أو تمزُّق الغرز، كما كان يجري في مرات كثيرة، فتصلح هي الخطأ. كانت تعرف أكثر من ثلاثمئة غرزة مختلفة، فتنتقي الغرزة الملائمة لأشكال الرسوم وجودة النسيج بحسب ما يتطلَّبه الأمر. كنَّا نتسلَّم النسيج مرفقًا بالرسم المطلوب، ونظرًا لجهلنا بالقراءة، كانت ترفق كل رسم بالغرزة المُراد عملها، مرسومة باللون الأزرق. بعد أعوام طوال تولَّيتُ بنفسي جميع مهماتها، لأن المسكينة أشرفَت على العمى. أما مشغل التفصيل والحياكة فقد تولَّت إدارته الأخت ترينيداد، ابنة مدينة أنتيوكيا[32]، القوية كالثيران، الفظَّة، القاسية إلى درجة تكاد تبلغ الوحشية. كانت تلك هي الأشد إساءة لنا، لأننا من بنات الشارع، فقيرات، غبيات، كائنات دنيئة جديرة بالشفقة. إلَّا أنها كانت مُصمِّمة ثياب فائقة البراعة، ولها تفضيلاتها بطبيعة

الحال، شأنها شأن الجميع.

أما الأخت تيريسا، الأكثر سوقيةً وفظاظة بين الجميع، بروحها التي تليق بجلَّاد، فكانت تشرف على مخزن الثياب والمغسلة. كان العمل في المغسلة هائلًا، وهو الأكثر ربحًا بعد التطريز. كانت المغسلة تتلقَّى مئة وخمسين جوالًا من الثياب لغسلها وكيِّها ورتقها كل أسبوع، بما في ذلك الكثير من ثياب الكهنوت المرهفة أو المفارش اللازم كيّها وتنشيتها على أكمل وجه. كانت الأخت تيريسا هي المسؤولة عن الإشراف على كل ما يمتُّ للثياب بصلة، أما مشغل الكيِّ فقد تولَّت شؤونه الأخت ماريا راميرِس، الراهبة التي أحببتُها كما لم أحبَّ سواها. كانت المكاوي التي تعمل بالجمر مُتوفِّرة بالأحجام كافة، بعضها في غاية الثقل والضخامة، وبعضها الآخر صغير إلى حدٍّ يجعلها تبدو كالألعاب. وقد استقرَّ على طاولة من الأسمنت ما يزيد على العشرين مكواة بصفة دائمة، كلها ساخن، ومُعَدٌّ للاستخدام.

أما في الباحة الثانية فكان مشغل الأنسجة والرتق والترقيع، الذي تولَّت الإشراف عليه الأخت إينيس، تلك المسكينة التي لم نأخذها على محمل الجد يومًا، بل كُنَّا نُعِدُّ أنفسنا أندادًا لها، ولذا لم يكُن هناك من يطيع لها أمرًا. بل وحتى الراهبات ما كُنَّ يبدين لها احترامًا، إذ يبدو أنها كانت من عائلة في غاية التواضع من مقاطعة بوياكا، ذلك أن التفاوت الطبقي بين الراهبات كان واضحًا إلى حد فظيع.

أما الأخت أونورينا فكانت هي تسليتنا، تلك الإيطالية التي تتحدَث الإسبانية بمنتهى الركاكة. كانت عجوزًا بعض الشيء، وإن بلغَت من التوتُّر وخفَّة الحركة حدًا جعلها تبدو كالنحلة الدوارة. كانت دائمة الاضطراب، ذات مزاج عكر، على الرغم من طيبتها وإنسانيتها الغامرتَين. كان أول شيء بدا لنا طريفًا بشأنها هو اسمها، أونورينا، يليه لسانها وهزلها، إذ كان شخصها ينطوي على شيء جدير بمُهرِّج من نابولي. كانت تشرف على المطبخ والمخبز، حيث تعمل تحت إمرتها خمس عشرة بنتًا بصفة دائمة. وكانت هي الوحيدة التي تخرج إلى العالَم للتسوُّق برفقة عجوزتَين مضى عليهما في الدير ثلاثون عامًا، ثلاثون عامًا مضَت وهما في المطبخ. لم تكُن العجوزتان تُعتَبران منا، ولم تتَّبعا القواعد أو تشاركا في أي شيء، وقد نزلَتا في حجرة لهما وحدهما، فوق المخبز. وما كُنَّ يتحدَّثن إلى البنات قط.

وفي غمرة المهمات المُتنوِّعة التي لا تنتهي، كانت الراهبات يتوصَّلن في النهاية إلى طريقة لتوظيف كل واحدة منا، كما تفهم، فمهما بلغت الواحدة من البلاهة، يمكن الانتفاع بها دائمًا، وإن اقتصرَت فائدتها على النفخ في جمر المكواة، وحلِّ الخيوط والأنسجة، وتمرير الخيوط في الإبر، وعصر الغسيل، وتنحية الثياب غير النظيفة جانبًا. أذكر بنتًا كانت في عمر مبهم، شبه مصابة بالداء المنغولي، أمضَت عشرة أعوام في الدير وهي تصنع كرات الصابون طوال عشر ساعات يوميًا.

كان يُستخدَم في غسيل الثياب صابون أسود يُدعَى صابون الطين، وآخر أصفر يُدعى صابون الصنوبر، يُمزَج كلاهما وتُصنَع من المزيج كرات بحجم قبضة اليد.

كانت أول مهمة عُهِد إليَّ بها إزاحة الأكوام المتراكمة من زبد الصابون بمكنسة صغيرة، تلك التي كانت تتجمَّع في مصارف المغسلة وتحول دون انسياب المياه. وعلى مدى شهور، كنتُ أمضي عشر ساعات يوميًا وأنا أتنقَّل من مصرف إلى آخر، محرومةً من الحق في الجلوس لحظة واحدة. كان يُعهَد بالعمل في المغسلة إلى البنات الأقوى بدنًا من جهة، والأكثر تأخُّرًا من جهة أخرى. أما ثاني المهمات التي عُهِد إليَّ بها، والتي جاءت بمثابة ترقية، فكانت في مشغل التطريز، حيث كنتُ أقضي يومي وأنا أمرِّر الخيوط في الإبر من أجل المُطرَّزات، فلا يقُلن لي أكثر من عشرة، أو ستة، أو ثمانية، أو ثلاثة، أو الدودة الصغيرة، أو الروح، أو الطرقات، إذ تشير كل كلمة منها إلى صنف مُحدَّد من صنوف الخيط. كنتُ أعشق تلك المهمة، حيث أمضي وقتي جالسةً على مقعد صغير، أمام طاولة مُمتدَّة، تُرتَّب فوقها جميع الخيوط بنظام لا تشوبه شائبة، فضلًا عن وسادة زرقاء تُرشَق فيها ألف إبرة من شتَّى الأحجام، لأن كل خيط تلائمه إبرة بعينها، أصغر أو أكبر حجمًا. كنتُ أخِز أصابعي بالإبر وأنزف دمًا، فتقول لي الأخت كارميليتا إن روحي ستفارقني من خلال موضع الوخزة، ما يبثُّ في نفسي خوفًا مُروِّعًا.

تبدأ مسيرة المُطرِّزة بتعلُّم تمرير الإبرة. أما القطع المرهفة المُطرَّزة بخيوط الذهب أو الفضة، المصنوعة من الساتان، ولا سيما القطيفة أو حرير المواريه، فما كان يُسمَح بلفِّها حول النول وإلَّا تجعَّدَت، بل كان من الضروري شدّها بكامل حجمها الطبيعي. وبطبيعة الحال، لا تذهب عيون المُطرِّزات وأذرعهن إلى أبعد من أربعين سنتيمترًا ابتداءً من حافة النسيج، ما يضطرّهنّ للوقوف على أقدامهنّ والاستعانة بإحدى البنات لتمرير الإبرة من منتصف النسيج. وكانت تُثبَّت أسفل النول بضعة صناديق حيث تستلقي البنت في وضع أفقي تمامًا، ورأسها تحت الموضع الجاري تطريزه على وجه التحديد، فتتلقَّى الإبرة وهي في ذلك الوضع، وتترقَّب إشارة من المُطرِّزة التي تلجأ إلى إبرة أكثر سمكًا لتحديد الموضع الذي ينبغي للبنت معاودة تمرير الإبرة من خلاله بدقَّة. كانت مهمَة شاقَة على نحو فظيع، وتتطلَّب تركيزًا مُستمِرًا. فكانت الواحدة تخرج من تحت النول بعد أربع أو خمس ساعات من العمل، فإذا هي تترنَّح كالسكارى في الحانات. كانت تلك ثالثة المهمَات التي تولَّيتُها. وإن شاء حظي العاثر أن أتقِن هذا العمل إلى حدٍّ سمح لي بالاستغناء عن الإشارة لتلقِّي الإبرة، إذ تعلَّمتُ تطريز النسيج بالعكس، الأمر الذي كان بمثابة نقلة هائلة في العمل. ولذا لم أفلح في تولِّي مهمة أخرى على مدى أعوام. وبطبيعة الحال، أدَّى ذلك العمل إلى تدهور عينيَ بشدة، وأنا الحولاء منذ الصغر.

فما عاد أحدٌ يدري إلى أي جانب أنظر بعينَي.

وبعد أن تباحثَت الراهبات في الأمر غير مرة، اتَّخذن قرارهن بعلاج إصابتي بالحَوَل، فوضعن نظارة على عيني، نظارة من صنعهن، بطبيعة الحال. صنعَتها المشرفة بنفسها من أجلي، فكانت في غاية البساطة، لها مُربَّعان من الورق المُقوَّى الأسود، المتين إلى حد ما، تصل بينهما أسلاك معدنية، ويتوسَّط كلًّا من المُربَّعَين ثقب واحد صُنِع بالإبرة، ما يضطرّني إلى النظر من خلال الثقب إن أردت الرؤية، وإلَّا فما كنتُ أرى شيئًا.

كان علاجًا رائعًا. وأسعدني شعوري بالاختلاف عن الأخريات. تحمَّلتُ الورق المقوَّى على أنفي على مدى أربعة أعوام، ولا أحسب طبيب عيون واحد في العالم بأسره كان سيعالجني بأفضل من ذلك.

كان الحديث في أثناء العمل ممنوعًا منعًا باتًّا، ولا يُسمَح لنا بأكثر من طرح أسئلة مُتعلِّقة بالعمل وبصوت خفيض للغاية. وكانت بنت واحدة تتولَّى مسؤولية كل نول أو نسيج مهم، وتوجِّه مُساعِداتها في أثناء العمل.

ما كان يُسمَح لنا إلَّا بتلاوة الصلاة بصوت مسموع. فكان في مقدور أي منا أن تتلو صلاة المسبحة أو الصلاة على الأرواح في المطهر[33]، أو صلاة الساعة المُقدَّسة. ولمَّا كُنَّا مثقلات بالديون كعهدنا دومًا، فلقد سعينا إلى الإكثار من الصلاة بقدر الإمكان في أثناء العمل، وهنا كانت الآنسة كارميليتا تلعب دورًا أكثر أهمية في حياتنا. إذ كانت جميع هدايانا الكثيرة مُتمثِّلةً

في باقات روحية، لأننا لم نكُن نملك نقودًا، فباقة بمناسبة عيد ميلاد المشرفة، وباقة بمناسبة عيد ميلاد القسيس... وباقة تُرسَل إلى بابا روما بمناسبة عيد القديس بطرس، وأخرى بمناسبة عيد ميلاد الراهبة التي نعمل معها، وأخرى من أجل العذراء بمناسبة الشهر المريمي، وأخرى من أجل الطفل يسوع بمناسبة أعياد الميلاد، وأخرى من أجل شفيعنا القديس دون يوحنا بوسكو، ومشرفة الرهبانية العامة الأم كارولينا ميوليتّي، والأسقف بمناسبة عيد ميلاده، وصديقاتنا بمناسبة أعياد ميلادهنَ... أي إننا، ما كان يمرَ علينا شهر واحد إلَّا واضطررنا لتقديم باقة روحية. لم تكُن بيننا أكثر من عشر بنات يُجدن الكتابة، بحسب اعتقادي، أما الأخريات فكنَّ جميعًا من الأميَّات. وكانت الآنسة كارميليتا على وجه التحديد هي الشخص الوحيد القادر على مساعدتنا. ذلك أنها في حلٍّ من أي التزام تجاه الدير، ووقتها بالكامل ملك لها. لا أدري متى تولَّت هذه المهمة، فقد كانت سكرتيرة ومحاسبة لكل واحدة منا. فإذا تعيَّن علينا تقديم هدية، كنَّا نقصدها في أوقات الراحة، ونلتقي بها واحدة تلو الأخرى بحسب الترتيب الهجائي لأسمائنا. كانت تأبى اللقاء باثنتَين في آن واحد. وعلى مقربة منها، كانت تحتفظ بدفاتر الحسابات الضخمة فوق طاولة دومًا، كما تحتفظ بأوراق مُلوَّنة بشتَّى الألوان في علبة من الصفيح، أوراق تدوَّن لنا فيها الباقات أو الرسائل من أجل القديسين أو الطفل يسوع

بمناسبة أعياد الميلاد. فكانت صيغة الباقات الروحية كما يلي:

أنا إيمًا رييس،

أهدي بكل المحبة والتقدير الباقة الروحية الآتية إلى الأخت رئيسة الدير (أو لأي شخص) بمناسبة عيد ميلادها:

	(هنا يُدوَّن العدد)
❋ القُدَّاسات	
❋ المناولات	50
❋ ساعات الصمت	20
❋ صلوات المسبحة	20
❋ الصلوات الجنائزية على أرواح الموتى	100
❋ الأضحيات	25
❋ أعمال التواضع	25

أما الباقات الروحية المُقدَّمة إلى الطفل يسوع بمناسبة أعياد الميلاد فكانت مختلفة، إذ وجب علينا صنع الثياب من أجل الطفل يسوع لئلَّا يصل إلى العالَم عاريًا. وكانت صيغة هذه الباقات كما يلي:

أنا إيمًا رييس،

أهدي إلى الطفل يسوع بمناسبة ميلاده ما يلي:

* ستة أقمصة من الصوف أدفع ثمنها بحضور ستة قُدَّاسات.

* دزينة من الحفاضات أدفع ثمنها بالتناول من

الأسرار المُقدَّسة اثنتي عشرة مرة.

* قلنسوة من الصوف الأزرق (كانت لنا حرية اختيار العدد والخامة ونوع الثياب) أدفع ثمنها بالتزام الصمت عشر ساعات.

* زوجَان من الجوارب ذات الشُرَّابات الزرق والوردية أدفع ثمنها بتقديم عشرين عملًا من أعمال التواضع...

وهكذا حتى نفرغ من الطاقم كاملًا.

وكنا نذيِّل كل باقة بالتوقيع التالي: «ابنتك المتواضعة»، أو «ابنتك غير الجديرة بك، إيمًا رييس».

كنا نفرغ من الباقة، فتطوي الآنسة كارميليتا الورقة أربع مرات وتناولها لنا كي نقدِّمها للشخص المعني. ثم تتناول أحد الدفاتر الكبيرة الواردة فيها أسماؤنا وتدوِّن الأعداد، وتجري حساباتها، وتسألنا كم سندفع لها.

- عشرة قُدَّاسات.

- عشرة قُدَّاسات؟ غير معقول، فأنتِ مدينة بثلاثمئة قدَّاس، لن تنتهي من سداد الدين أبدًا على هذه الوتيرة. وماذا أيضًا؟

- خمس عشرة صلاة مسبحة.

- حسنًا.

- ومئة صلاة جنائزية... لا أكثر.

- ماذا تعنين بلا أكثر؟

- وساعات الصمت وأعمال التواضع...

وعند ذاك يندلع التقريع الأشد هولًا، فإذا هي تشتمنا، وتنعتنا بالغشَّاشات السارقات، وتقول إن التقاعس في

الوفاء بديننا إلى الرَّب أفظع صنوف السرقة الممكن اقترافها.

- في المرة القادمة، إما تسدِّدين دينك لي (لم نعُد مَدينات للرَّب، وإنما لها هي) وإما لا أتولّى حساباتك بعد الآن.

غير أنها ما كانت تنسى في المرة التالية وحسب، بل كانت هي التي ترغمنا على تقديم المزيد عند إعداد الباقة الروحية، وتنعتنا بالبخل والأنانية، من دون أن تنقصها النعوت التي ترمينا بها.

كانت فتاة من توليما[(34)] قد التحقَت بالدير منذ اثنين وعشرين عامًا، وبلغ دَينها من الضخامة بحيث إن الآنسة كارميليتا قد أفردَت دفترًا من أجلها وحدها. حان عيد ميلاد المشرفة فذهبَت الفتاة إلى الآنسة كارميليتا لإعداد الباقة الروحية. فإذا الآنسة كارميليتا تستشيط غضبًا وتقول لها ألَّا تعود مرة أخرى، فهي غشَّاشة، كاذبة، تسرق ما للرَّب، وقالت إنها سوف تشكوها لدى الأخت رئيسة الدير. مسكينة كونسويلو، كانت فتاة طيبة ترنِّم ترنيمًا بديعًا، وحازت حب البنات الأصغر على وجه الخصوص لأنها كانت تبدي لنا من الأمومة قدرًا عظيمًا. كانت المسكينة تقضي يومها باكيةً، فقرَّر الجميع إهداءها جميع ما نتحصَّل عليه من قدَّاسات ومناولات وصلوات مسبحة وساعات صمت على مدى أسبوع، كل شيء للوفاء بدَين كونسويلو. وكانت بنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر

مُتعلِّقة بها، ولا تفارقها طوال أوقات الراحة. كانت تُدعَى إينيس پينيا.

ذات يوم دوَّت الفضيحة، فوُجِّهَت لإينيس أصابع الاتهام وشكَتها رفيقاتها اللائي يشاركنها المقعد لدى رئيسة الدير زاعمات أنهن قد رأينها تنهض لتناول القربان المُقدَّس مرَّتَين في الأسبوع الماضي. كانت المسكينة قد فعلَت ما فعلَت لمساعدة صديقتها على الوفاء بدَينها وتسديد الآلاف من المناولات التي تدين بها. وإذا الراهبات يصحن: «انتهاك للمُقدَّسات! انتهاك للمُقدَّسات!». فحرمنها من التواصل مع الأخريات وحبسنها في حجرة غارقة في الظلام الدامس تقع تحت الدَّرَج، هناك حيث أُشيع أن يدًا كثيفة الشَّعر قد أخفَت بنتًا آثمة منذ سنوات طوال مضَت.

هناك ظلَّت إينيس حبيسة لما يزيد على عشرة أيام، حتى جاء الأسقف برفقة الأب باكاوس. مضى الأسقف والقسيس إليها يحملان مبخرة وصليبًا ضخمًا، وجاءت في أثرهما الراهبات، فناداها الأسقف ثلاث مرات. حبسَتنا الراهبات في الباحة الخلفية، ولكن الأخت ماريا راميرِس أخبرَتنا بكل شيء عن تلك الطقوس. ناداها الأسقف ثلاث مرات ثم صرخ فيها باسم الرَّب وأمرها بأن ترقد على الأرض. ظلَّ الباب مُوصَدًا. وتُلِيَت بضع صلوات في حين سُكِب الماء المُقدَّس على الباب. وحين بلغَت الصلاة ختامها، فتحَت رئيسة الدير باب الحجرة، ثم أمِرَت البنت بالاقتراب من الأسقف جاثيةً على

ركبتَيها، فوضع الأسقف صليبه على رأس إينيس وبصوت حازم أمر الشيطان بالخروج من جسد إينيس. وحين تراءى لهم أن الشيطان قد رحل عنها، رَشَّ عليها الماء المُقدَّس، وأُمِرَت بأن تقبِّل المسيح، ثم أخذ الأسقف بيدها واقتادها إلى المُصلَّى حيث استمع إلى اعترافها بنفسه. أما البنت المسكينة فلم تبقَ في الدير طويلًا، فقد أُمِرَت بأن تكتب إلى خالتها، القريبة الوحيدة التي لم يكُن لها سواها، فجاءت الخالة وأخذَتها. ولك أن تتخيَّل أي عبرة كانت لنا جميعًا في ما جرى.

لا أملك الزعم بأننا كنَّا نحبّ الآنسة كارميليتا، بالعكس، إذ كنَّا نعرف أنها تشي بنا إلى الراهبات في الكثير مما نفعل، وأن لها مريداتها اللائي يحملن لها النمائم كافة.

كانت كل واحدة منا تملك سببًا شخصيًا يمنعها من حب الآنسة كارميليتا. وعلى الرغم من ذلك، كان يداهمنا كدر شديد بمُجرَّد أن نعرف بمرضها أو فقدانها الشهية أو إعراضها عن الطعام، فنبتهل جميعًا ونتلو مسبحة تلو مسبحة لئلَّا تسمح العذراء بأن يلتقي طرفا الحزام حول خصر الآنسة كارميليتا. لأنها لو قضَت نحبها، فالكل يعلم أن أحدًا لن يتولَّى حساب ديوننا إلى الرَّب سواها.

عناق حار

إيمًا

باريس، مارس 28/1970.

---

(31) يُرجَى التفريق بين الأخت كارميليتا المشرفة على مشغل التطريز والآنسة كارميليتا البدينة التي ورد ذكرها آنفًا.

(32) أنتيوكيا: مقاطعة كولومبية تقع في الشمال الغربي من البلاد.

(33) المطهر: طبقًا للعقيدة الكاثوليكية فإن المطهر مكان تُطَهَّر فيه النَّفْس بعد الموت بعذاب له أَجَل مَحدود.

(34) توليما: مقاطعة كولومبية تقع في منطقة الأنديز.

الرسالة الخامسة عشرة

عزيزي خيرمان،

قضينا ما يزيد على العامَين ولقب الجديدتَين لا يزال عالقًا بنا، حتى جاء يوم وصلَت فيه جديدةٌ أخرى. في اليوم نفسه استعدنا اسمَينا.

كُنَّا قد بدأنا نألف الحال، ولكن بمُجرَّد سماع اسمَينا اللذين كانت تنادينا بهما السيدة ماريا وبيتسابيه طرأ علينا تغيُّر تامّ. بدأتُ أتجرَّأ على الافتراق عن إيلينا والتحدُّث إلى بنات أخريات. ومن خلال الأشهر الطوال التي أمضيناها في المراقبة، تكوَّنَت لدينا فكرة عن طباع رفيقاتنا، وعرفنا مَنْ الأكثر خبثًا بينهن، ومَنْ الأكثر لطفًا، ومَنْ الأكثر جفاءً معنا.

ومن بين مجموعات البنات كافة، كانت مجموعة إستير هي الأحب لنا. كُنَّ ست بنات، يكبرن إيلينا قليلًا، بدَوْنَ لنا لطيفات وأقل سوقية وفظاظة من الأخريات. لم تكُن أيٌّ منهنَّ قد كلَّمَتنا يومًا، أو أساءت إلينا بأي شكل من الأشكال. ويوم خلعَت البنات سروالي الداخلي لم تكُن لأيٍّ منهنَّ يدٌ في ما جرى. كُنَّ مفعمات بالبهجة الغامرة على الدوام، يمضين حياتهنَّ في ابتكار الألعاب الجديدة. ورغم أنها قائدة المجموعة، فلم تكُن إستير هي الكبرى بينهنَّ. ربما كانت في الحادية عشرة من عمرها. كانت جميلة، شقراء، رمادية العينَين، في غاية النظافة دومًا، وتتقن كل ما تصنع. كانت هي الأكثر مهارة في قفز الحبل، واللعب بالكرة. كانت حسنة

الترنيم، عذبة الصوت، لطيفة لطفًا غامرًا، ذات وجه ينمُ عن الشقاوة، تضحك فيبرز طرف لسانها دائمًا. كان أبوها بحَّارًا فرنسيًا لم تتعرَّف به، أما أمها فشابة من سانتا مارتا قضَت نحبها غرقًا في البحر وإستير لا تزال في الثالثة من العمر. انقطعَت أخبار أبيها إلى الأبد، فأخذَتها أسرةٌ إلى الدير في مدينة بوغوتا. ذات يوم شاء حظي أن يُعهَد إليَّ بالعمل معها على القطعة نفسها. كان مفرشًا كنائسيًا غنيًا بالزخارف المُفرَّغة، فعُهِد إليَّ وإستير بتمرير الخيوط منها. ذات يوم تجرَّأت وقلتُ لها إني أودُ الانضمام إلى مجموعتها، وسألتُها عما إذا كانت تقبلني هي ورفيقاتها في المجموعة. وفي اليوم نفسه، خلال الراحة، تحدَّثَت إلى الأخريات وقبلن بانضمامي إلى المجموعة بعد أن أقسمت باسم الرَّب ألَّا أخونهنَ، نزولًا عند طلبهنَ. لم أكُن أعرف على وجه التحديد ما يعنيه ذلك، ولكني جثوتُ في ركن من الأركان وأقسمتُ ألَّا أخونهن. في حين نشأت صداقة بين إيلينا وبين فتاة تُدعَى باربارا، تكبرها كثيرًا.

أما رفيقات إستير فهن: إستيلا، التي كانت لها أختان يكبرانها كثيرًا في مجموعتَين أخريين، وقيل عنهن إن أباهن رجل في غاية الثراء من توليما، بينما كانت أمهن خادمة في بيت ذلك السيد. كانت إستيلا على قَدرٍ من الغطرسة والخيلاء، برغم سلوكها الحسن وذكائها الحاد. أما روساريو، فكانت بنتًا عادية تمعن الراهبات في إهانتها لأن أمها تبيع الخضر في كشك بساحة السوق،

ولأنها بلا أب، شأن الأخريات. أما تيريسا فكانت بلهاء المجموعة، والأكثر طرافةً بيننا، كانت بدينة، ممتلئة، ما جعلنا ندعوها البرميل. كانت أمها تعمل في مخبز كبير وترسل إليها جوالات ملآنة بالخبز كل أسبوع، فتوزِّع الخبز الشهيَ المُقدَّس على جميع أفراد المجموعة. أما إينيس فكانت هي الرومانسية، الهائمة في الأحلام دومًا، الوحيدة التي التحقَت بالمدرسة وتعلَّمَت القراءة من بين أفراد المجموعة، كانت تروي لنا كتب الأقاصيص التي قرأتها بذاكرتها الإعجازية، صفحة تلو أخرى. ما كانت ترويها، بل تتلوها علينا بالأحرى. ما كان يُعرَف عنها شيء على الإطلاق. كانت الوصية عليها سيدة مرموقة من بوغوتا، لقب عائلتها أوريبي، وكانت تزورها مرتَين أو ثلاثًا كل عام، فتحمل إليها الثياب، ولكن لم تعرف إينيس مَن هو أبوها ولا مَن هي أمها. ومن جهتي أخبرتهن بما اتَّفقتُ عليه مع إيلينا: لا أعرف مَن أبي ولا مَن أمي، ولا أذكر من الماضي شيئًا. فنحن لم نُفضِ بسرِّنا يومًا، كما قلتُ لك.

لا أدري كم من الوقت قد مضى على وصول الجديدة. على كل حال، كنتُ قد أصبحتُ عضوًا فعَّالًا من أعضاء المجموعة، وبدأت أكشِّر عن أنيابي على حد قول الراهبات، أي بدأتُ أدبِّر الشيطنات مع رفاقي في المجموعة.

أما الجديدة، فمثلها كمثل الجديدات جميعًا، ظلَّت وحيدة، ولم تتبنَّاها أيَ مجموعة. كانت أحزن طفلة

رأيتُها في حياتي: في العاشرة من العمر تقريبًا، نحيلة جدًا، شاحبة كالشمع، رأسها كبير جدًا بما لا يتناسب وجسدها الهزيل، وشعرها في غاية الكثافة والتجعيد، تنسدل خصلاته المُجعَّدة على كتفَيها، لم تفلح الراهبات في تضفير شعرها كالأخريات، إذ كان ينحلُّ ويتجعَّد مُجدَّدًا في كل مرة. كانت لها عينان واسعتان، لا أدري لِمَ ذكّرتاني بعينَيِ الطفل، سوداوان، هائلتان، تظلِّلهما أهداب طويلة للغاية. تركَت عيناها في نفسي انطباعًا بأنهما تريان أبعد مما ترى عيون الأخريات، وأقصى، وأعمق. كانت تسير وكأنها طافية في الهواء، وكأنها لا تخطو على الأرض بقدمَيها، وعلى ثغرها يتجلّى كل ما يعتمل في نفسها من حزن. لا أدري...

لا أملك القدرة على تفسير الأمر لك، كان لها ثغرٌ يطلب العون، تبدو عليه أمارات الألم الدفين دومًا. كثيرًا ما أمعنتُ النظر إليها، إذ كان موقعها في المُصلّى قريبًا مني، كي تعلِّمها الأخت تيريسا الآداب الواجب اتباعها في المُصلّى، كانت في طولي تقريبًا رغم أنها تكبرني عمرًا.

لم نكُن نُعفَى من مهماتنا إلَّا مساء السبت، وذلك حتى نتمكّن من العناية بثيابنا. كان ذلك هو اليوم الذي نغسل فيه ثيابنا ونرتقها ونكويها. وكانت الأخت تيريسا تهدينا أسمالًا بالية أو ثيابًا مهترئة، لا أدري من أين تأتي بها، فنرتقها ونهيّئها للاستخدام. كان الجميع يرتدي المآزر المُوحَّدة نفسها، تصل الواحدة إلى الدير فتتسلَّم اثنَين،

مئزرًا جديدًا ينحصر استخدامه على المُصلًى والأعياد، وآخر عتيقًا، في غالب الأحوال، نرتديه يوميًا ونغسله يوم السبت لارتدائه مرة أخرى يوم الأحد، أي إن السبت هو اليوم الوحيد الذي يسعنا فيه التجوّل من دون مئزر مُوحَّد، بل كُنَّا نرتدي الأسمال البالية التي تهديها لنا الراهبات. بطبيعة الحال، كانت للكثيرات منا عائلات أو أوصياء يحملون لهنَّ الثياب، أما نحن اللواتي لم يكن لنا أحد، فقد تولَّت الراهبات أمر ثيابنا، وكُنَّ يعطيننا مما يجود به عليهنَّ «المحسنون إلى الدير»، بحسب المُسمَّى الذي أطلقَته عليهم الراهبات.

ذات سبت ألقَت الأخت تيريسا بجوال زاخر بالثياب البالية من الطابق الثاني كي تأخذ كل واحدة ما يعوزها ثم ترتقه. وبطبيعة الحال، انقضَينا على الجوال كما تنقضُّ النسور على الجيف، ونشبَت معارك طاحنة تنازعنا فيها على مِزَقٍ بالية قد تصلح لترقيع سروال داخلي أو قميص نوم. كان يومًا مفرط البرودة والرمادية. شعرنا بعاصفة تلوح في الأفق. وإذا السماء تبرق وترعد وطوفان حقيقي ينهمر فجأةً. أحسسنا بالرعد يخدش سقف الدير. ومع الأخذ في الاعتبار التربية التي تلقَّيناها، تلك التربية القائمة على الخوف من الجحيم والموت والخطيئة والشيطان، كانت العواصف تملأنا رعبًا.

رحنا نبتهل بصوت مسموع ونرسم علامة الصليب كلَّما دوَّى الرعد، وسارعنا ملتجئات إلى الباحة المغطاة

الوحيدة، وهي باحة صغيرة للغاية تقع تحت مشغل التطريز. هناك كانت الخزائن التي فيها احتفظنا بحقائب التواليت، حيث كانت تُعلَّق الحقائب على مسامير وقد دُوِّنَت عليها أسماء البنات، وتُوضع دلاء بائسة من الصفيح على الألواح، نغسل فيها وجوهنا وأقدامنا.

فزعتُ من الرعد إلى حدٍّ جعلني أهرول وسط أرجل الجميع وأرمي بنفسي داخل إحدى الخزائن. فكانت مفاجأتي هائلة حين وجدتُ البنت الجديدة وقد استقرَّت داخل الخزانة، واتَّسعَت عيناها اللتان تدفَّق منهما سيلٌ من الدموع، من دون أن يغمض لها جفن. فرُحتُ أمسح بيدي على رأسها مدفوعة بالغريزة، وبطرف مئزري جعلتُ أمسح دموعها المتساقطة. وفي تلك اللحظة وقعَت صاعقة في الأرض الخلاء التابعة للدير، فشعرنا جميعًا بالدار ترجف، وإذا بلسان من اللهب الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر يغمر كل شيء بضيائه. تعانقتُ والجديدة بقوة، وتلاقى وجهانا. امتزجَت دموعنا، لا أدري كم لبثنا متعانقتَين، ربما طال عناقنا، لأن العاصفة ظلَّت تهدر بالشدّة نفسها. هدأت العاصفة رويدًا رويدًا، ولكن المياه غمرَت الباحات حتى فاضت كالبحيرات. طلبَت منا الراهبات أن ننتظر ريثما ينخفض منسوب الماء. طفقتُ أتحدَّث إلى الجديدة. سألتُها عن اسمها. كانت تُدعَى ماريا، وأخبرَتني أنها بلا أب، ولكنْ لها أمٌّ وشقيقة تزوَّجَت وأنجبَت ابنَين، وشقيقتها تكبرها في العمر كثيرًا. كما أخبرَتني أنَّ لها

أخًا صغيرًا. سألتُها عن أخيها فأجهشَت بالبكاء. جعلتُ أمسح على رأسها مرة أخرى، كنت أعشق لمس خصلات شعرها المُجعَّدة. وفجأة بدَت عليها أمارات الجدية وسألَتني بصوت حازم للغاية:

- هل أنتِ صديقتي؟

فأجبتُها:

- أجل، أنا صديقتك وأحبك.

- لو حكيتُ لكِ شيئًا، أتقسمين ألَّا تخبري أحدًا؟

- أجل، أقسم لكِ.

- وبمن تقسمين؟

- لا أعرف، أقسم لكِ بالعذراء... أجل، أقسم بالعذراء مريم ألَّا أخبر أحدًا بما ستحكيه لي الجديدة...

فقاطعَتني الجديدة قائلة:

- كلا، بل ماريا.

- أقسم بالعذراء ألَّا أخبر أحدًا بما ستحكيه لي ماريا.

قالت:

- قبِّلي الصليب.

فرسمتُ صليبًا بإصبعي وقبَّلته.

- اقتربي مني... هنا... أكثر... هكذا... وقرِّبي أذنك من وجهي. هكذا، الآن سأخبرك. أخبرتُكِ بأن لي أخًا صغيرًا. حسنًا... لقد جئتُ بذلك الأخ الصغير إلى الدير، وهو الآن معي.

- وأين أخفيتِه؟

- انتظري، دعيني أحكِ لكِ. وُلِد أخي صغيرًا، صغيرًا،

حتى إن ماما لم ترَه حين وُلِد، فسرقته أنا منها. ومن ذلك الحين أحمله معي دومًا. ولكن منذ التحقث بالدير والمسكين جائع طوال الوقت، لأن الطعام الذي أحصل عليه لا يكفي كلينا، وهو إن لم يأكل لا يخرج إلى العالَم، وإن لم يخرج إلى العالَم لا أعرف شيئًا عن ماما ولا عن أختي المُتزوِّجة، ولا عن أصدقائي في العالَم. هلًا ساعدتِني؟ خبّريني، هلًا ساعدتِني على إطعام تازَازُوزًا؟

- ومن هو تازَازُوزًا؟

- أخي الصغير.

- ولكني أودُ رؤيته. أين هو؟

- هنا، هنا، انتظري.

بدأت ترفع المئزر، فبدا جراب من المخمل الأحمر مشدودًا على خصرها. أخذَت الجراب وفتحته ببطء شديد، وأخرجَت منه دمية في منتهى الضآلة، لا يزيد حجمها على خمسة سنتيمترات، مصنوعة من البورسلين الأبيض، ومُثبَّتة في جسدها ساقان وذراعان. كانت الدمية قد اهترأت حتى غدَت بلا أنف ولا فم، أما عيناها فكانت تتوسَّط كلًا منهما نقطةٌ دقيقة.

- انظري إليه، ألمسيه، ولكن برفق لئلًا تؤذيه. سوف أسأله إن كان يريدكِ صديقةً لنا.

وبرفق بالغ وضعَت تازَازُوزًا قرب أذنها، تحت خصلات شعرها الجميلة، فارتسمَت على شفتَيها ابتسامة. وإذا وجهها يتبدَّل كليًا، ويشرق، وعيناها تلتمعان، فبدتا وكأنهما شاخصتان إلى ما وراء الجدران.

راحت تهزُّ رأسها من آن إلى آخر وقالت:

- أجل، أجل، طبعًا، سأخبرها، ولكن بشرط واحد، أن تعدنا بالخروج من النافذة كل ليلة في أثناء نومنا، وتعدنا بالذهاب إلى العالَم والعودة إلينا مُحمَّلًا بالكثير من الأخبار. أجل، عليك أن تحكي لنا كل ما يجري في العالَم. ماذا؟ تريد الذهاب إلى التواليت؟ ولكن المطر يتساقط، ليس في وسعي أن آخذك إلى هناك، لا يُسمَح لي بعبور الباحة. أجل، أعدك بأن آخذك بمُجرَّد أن يُسمَح لي بذلك، أجل. والآن سأردُّك إلى مكانك، نَمْ حتى أتمكَّن من اصطحابك إلى التواليت.

انتهى الحديث. وبالهدوء نفسه، والحركة الوئيدة نفسها، ردَّت تازَّاژورًا إلى الجراب الذي عاودَت ربطه حول خصرها ثم أسدلَت المئزر وسوَّت ثناياه واحدة تلو الأخرى. أما أنا فقد استحوذَت عليَّ الفتنة والدهشة معًا، وبدأ شعوري بالإعجاب والحب نحو البنت الجديدة وأخيها يجتاح كل فكري. لم أرِد فقدانهما كما فقدتُ إدواردو، والطفل، وبيتسابيه، والسيدة ماريا. فعقدتُ العزم على حمايتهما، والاحتفاظ بهما لنفسي.

- خبِّريني، ماذا يأكل تازَّاژورًا؟

فأجابتني بهدوء:

- يأكل كل شيء.

- كل شيء، كل شيء؟

- أجل، كل شيء، كل شيء، إلَّا أنه يأكل كثيرًا. فيقضي يومه وهو يطلب مني الطعام.

- سوف أساعدكِ، أعدكِ بأن أعطيه بعض حصتي من الغداء والعشاء، وإن لم يكفِه ذلك ولم يرغب في الخروج إلى العالَم، فعلينا أن نحكي القصة لصديقاتي طلبًا للمساعدة. نحن ست بنات، تعرفين الأخريات.

- أجل، رأيتهن معكِ. ولكن، هل تظنين أنهن لن يخبرن أحدًا؟

- أؤكِّد لك، لأننا أقسمنا جميعًا ألَّا نحكي شيئًا عن مجموعتنا للأخريات.

- وماذا لو أن الأخريات لم يرحِّبن بي في المجموعة؟ وماذا لو لم يرحِّبن بتازَّازُورًا؟

- أؤكِّد لكِ أنهن سيغرمن به، سترين، سأتحدَّث إلى إستير، لو وافقت إستير وافق جميع أفراد المجموعة.

- ولكن هلَّا أعطيتني شيئًا من عشائك الليلة من أجل تازَّازُورًا، ريثما تتحدَّثين إليها؟

- أجل، أقسم لكِ، انتظريني بعد الخروج من قاعة الطعام، هنا، هنا، أمام الخزانة.

فقالت:

- كلَّا، في الطابور أمام دورة المياه أفضل، لأن تازَّازُورًا لا يستطيع أن يأكل على مرأى من الأخريات. وعليَّ إقفال باب دورة المياه حتى أناوله الطعام.

- حسنًا، سأبحث عنكِ أمام دورة المياه. معي جراب النسيج، سأضع فيه الطعام ثم أناولكِ إياه.

فأومأت برأسها موافقةً ثم خرجَت مهرولةً إلى دورة المياه.

كان الطعام الذي يُقدَّم لنا بائسًا إلى حدٍّ بعيد. فدائمًا كانت تُقدَّم لنا يخنة ماساموزًا سادة بالخضروات، على العشاء والغداء أيضًا، ومعها ملعقة واحدة من الأرز لكل بنت، وقطعة تعسة من اللحم القاسي المغلي مع الماساموزًا - كنا ندعوها نسيلة اللحم، إذ لم تكُن تفوق الجوزة حجمًا - وحبتا بطاطس مصابتان بالديدان في كثير من الأحيان، وأخيرًا موزة خضراء. ليلتها أخفيتُ حصتي من اللحم والموز كي أعطيها للبنت الجديدة. وجدتُها في انتظاري أمام دورات المياه، بحسب الاتفاق، فأخذَت الجراب وأوصدَت باب دورة المياه. أما أنا فهرعتُ أبحث عن إستير، وانزويتُ بها في أحد الأركان، قرب حاويات القمامة، وحكيتُ لها كل شيء عن تازَازُوزًا. وإذا هي مفتونة مثلي. فمضينا إلى الجديدة وطلبنا منها أن ترينا تازَازُوزًا. لم تأذن لنا بلمسه قط، كانت ترينا إياه وهو في يدها، ولا تتركه لنا، ما كانت تسمح لنا إلَّا بلمس رأسه الصغير بأطراف الأنامل، وبمنتهى الرفق. تحدَّثَت إستير إلى المجموعة فقبل الجميع مساعدة تازَازُوزًا بالطعام لئلَّا يحتضر جوعًا، ولا سيما كي يتمكَّن من الخروج إلى العالَم والعودة مُحمَّلًا بالأخبار. فكانت كل واحدة تحمل جرابًا صغيرًا تضع فيه بعضًا من طعامها وتناوله للبنت الجديدة، أمام دورات المياه دومًا.

كانت عادة حمل جراب النسيج شائعة للغاية، فأغلب البنات لا يلعبن خلال الراحة، بل يغتنمن الفرصة لإنجاز

أعمال صغيرة لحسابهنَ الشخصي. كثيرًا ما كُنَّ يصنعن عيّنات من شتَّى غرز التطريز، بما في ذلك الغرز المتقاطعة، وعيّنات الزخرفة المُفرَّغة، والحروف ذات الغرز المتقاطعة التي بها تُطرَّز الثياب، أو الكروشيه، أي إن حمل الجراب كان أمرًا شائعًا، ولذا لم يفطن أحد إلى الحيلة التي لجأنا إليها. كانت الجديدة تأخذ الجراب ثم تغيب عن العيون في دورة المياه، بينما نترقَّب وصولها في الباحة جالسات على الأرض. كُنَّا نراها آتية بخطاها الوئيدة وكأنها طافية في الهواء، باسمة، بعينَيها الواسعتَين الشاخصتَين إلينا. كانت تجلس وسطنا، فنتحلَّق حولها في دائرة مقفلة، وفي تلك اللحظة تروي لنا ما قد رآه تازَازُورَا في العالم ليلًا. فكان ذلك مدهشًا. ما عدتُ أذكر أيًا من قصصها على وجه التحديد، ولكني أذكر مدى الدقة المدهشة التي كانت تصف بها بيتها، حيث يعيش قط أسود يتصيَّد الفئران ويلتهمها وهي حية. كانت تحكي لنا عن بقرة الجيران التي ولدَت بقرةً صغيرة جميلة، جميلة، أُطلِق عليها اسم جرس، طبقًا لما رواه تازَازُورَا. وحكَت لنا أن تازَازُورَا قد وجد أختهما وهي تلهو في السرير مع الشرطي الذي يسكن على الناصية، وإذا هما عاريان تمامًا، وكلاهما يتحسَّس حمامة الآخر. كانت تحكي قصصًا مسهبة عن أصدقاء أمها وحديقتهم. بطبيعة الحال، كانت تقطع سرد الحكاية غير مرة، فتمسك بتازَازُورَا قرب أذنها في ما هي تروي لنا الحكاية وتقطعها إذا تحدَّث إليها. كان

يطلب منها الذهاب إلى دورة المياه أحيانًا، ويطلب منها الإمساك عن إخبارهم بقصة بعينها أحيانًا، فتقول إنها لن تواصل الحكاية. وفي أحيان أخرى ما كانت تحكي شيئًا، لأن تازَازُوزًا لم يخرج إلى العالَم بسبب شعوره بألم في ضرسه أو بمغص في معدته. كان تازَازُوزًا عندنا كائنًا حيًا يأكل وينام وتؤلمه أسنانه ويشعر بالمغص ويستطيع الخروج إلى العالَم ورؤية ما لا نملك رؤيته بأنفسنا. ولذا كنَّا على أهبة العيش له ومن أجله.

ذات يوم أخبرَتنا الجديدة أن تازَازُوزًا لا يرغب في أكل المزيد من البطاطس لأنها تصيبه بالمغص، والأفضل أن نعطيه المزيد من الموز والخبز واللحم. فأطعناها على عمى. ذلك أن السعادة التي كنَّا نشعر بها لدى الإنصات إلى الجديدة وهي تحكي لنا ما يهمس به تازَازُوزًا لها كانت تستحقُّ جميع التضحيات. لم تُكرِّر علينا الحكاية نفسها يومًا. وكانت المغامرات التي يخوضها تازَازُوزًا في العالَم مدهشة. أحيانًا كان يدخل إلى بيوت الأثرياء، حيث الفناجين والصحون كلها من الذهب أو الفضة، على حدّ قوله، وكان يصف لنا السيدات والسادة الأثرياء بما لهم من ثياب بديعة مصنوعة من المخمل والقطيفة. أعتقد أننا لم نعاود التفكير في الشيطان ولا الخطيئة ولا الجحيم طوال تلك الفترة، وحدها حكايات تازَازُوزًا ملأت حياتنا.

أذكر أنه كان يوم أحد، فأمضينا النهار ونحن نراجع تعاليم الكنيسة والتاريخ المُقدَّس في قاعة الحفلات،

كدأبنا كل يوم أحد. تعلَّمنا في درس التاريخ المُقدَّس أن الرَّب قد طرد آدم وحواء من الفردوس، طردهما عاريَين تمامًا، لا يعرفان إلى أين هما ذاهبان، والملائكة كلّها تدفعهما إلى الرحيل بسيوف من نار، لأنهما قد عصيا أمر الرَّب وأكلا تفاحة الرَّب، التفاحة التي حظر عليهما المساس بها، لأن الفردوس كان عامرًا بأشجار الفاكهة، ولأن الرَّب قد سمح لهما بالأكل من جميع الثمار، جميع الثمار، إلَّا التفاح. لم تسبق لهما رؤية الرَّب غاضبًا كما رأياه يومذاك، ومن ذلك اليوم بدأ البشر يقترفون الخطايا.

خرجنا من الفصل في الثانية عشرة، وقلق حقيقي يساورني بشأن آدم وحواء، إذ رحتُ أتخيَّلهما عاريَين، يسيران ويسيران عَبر الحقول وهما لا يعرفان لنفسيهما وجهة. خرجنا من الدرس إلى قاعة الطعام مباشرةً، فاحتفظتُ بحصتي من اللحم لتارَّازُورَا، وإن كنت جائعة للغاية حتى إنني لم أستطِع الاحتفاظ بثمرة الموز أيضًا. خرجتُ إلى دورة المياه مباشرةً، حيث كانت الجديدة في انتظاري. كانت إستير قد أعطَتها جرابها. وجاءت روساريو وتيريسا في أثري بجرابَيهما، تليهما إستيلا، وأخيرًا إينيس وخوليا. ولكن واحدةً منا لم ترَ الأخت رئيسة الدير قرب العمود الذي أمام دورات المياه على وجه التحديد. وعندما اجتمعَت بين يدَيِ الجديدة كل الأجربة، توجَّهَت إلى دورة المياه وشرعَت تفتح الباب، ولكن يدًا قبضَت على ذراعها. كانت يد رئيسة الدير. لم

تنبس بكلمة واحدة أمامنا. أخذَت منها الأجربة كافة، ثم أخذَتها من يدها ببطء شديد، وهي لا تنبس بكلمة. رأيناهما تعبران الباحات الثلاث، وتغيبان وراء الباب المفضي إلى الباحة حيث تسكن الآنسة كارميليتا.

كانت تلك آخر مرة نرى فيها الجديدة. في اليوم نفسه أخذَتها الأخت أونورينا إلى أمها. فلم يخبرننا بشيء عنها، لا رئيسة الدير ولا أي من الراهبات. أما نحن فظللنا نترقَّب كل يوم أن تستدعينا المشرفة، أو تُنزِل بنا العقاب، حتى نحن عجزنا عن التحقُّق مما إذا كان ما فعلناه خيرًا أم شرًا. أما وقد طُرِدَت الجديدة من الدير كما طُرِد آدم وحواء من الفردوس، فقد دار بخلدنا أننا ربما نكون قد اقترفنا خطيئة. ورغم أن أحدًا لم يقُل لنا شيئًا، ولا نحن قلنا شيئًا لأحد، فإن حياتنا لم تعُد إلى سابق عهدها قط. برحيل الجديدة رحلَت قطعةٌ منا، وإن لم نعرف لها كنهًا، وكأننا تقدَّمنا في العمر فجأة... أجل، وكأن طفولتنا قد انتهَت برحيل تازَازُوزًا. مضَت شهور طوال، وما عدنا نتحدَّث عن تازَازُوزًا، لأن كلًّا منا قد حفظَته في ذكريات الطفولة الأكثر حميميَّة. ظلَّت مجموعتنا مرتبطة بأواصر قوية، وقد اجتمعنا على التواطؤ والعزلة المطبقة وخواء حياتنا.

مضى على طرد الجديدة خمسة أشهر أو ستة، بحسب اعتقادي، وكما جرَت العادة، اجتمعنا في الرواق لسماع تحية الليل قبل تلاوة صلوات الليل الأخيرة في المُصلًى. فبدَت رئيسة الدير قلقة أو في مزاج عكر.

بدأت حديثها عن عيد القديس يوسف. حدَّثَتنا عنه فقيرًا، متواضعًا، نجَّارًا، ينشر ألواح الخشب، ويدقُّ المسامير كما يفعل أي عامل، وهو الذي أصْطُفِي حتى يكون أبًا ليسوع بالتبنّي. قالت لنا أن نحذو حذوه في التواضع. ثم طال سكوتها.

وبعد ذلك أردفَت:

- وغدًا، نرفع قدَّاسًا جنائزيًا. أسألكن رفع القدَّاس على روح رفيقةٍ لكم قضَت نحبها أمس، رفيقة لم تعرف الغالبية منها إلَّا شكلها، حتى اسمها لم تعرفنه، إذ كنتن تنادينها بلقب الجديدة. ولكن بينكن مجموعة صغيرة جدًا تعرف من كانت ماريا. ماريا الشاحبة، الشفافة، النحيلة، الهزيلة. حين جاءت بها أسرتها إلى الدير، أخبرَتنا بأن البنت مريضة. كانت المسكينة مصابة بمسٍّ من الجنون، فخُيِّل إليها أن الدمية التي كانت تحملها دومًا أخوها الصغير. منذ يومَين اصطحبَتها الأسرة في نزهة إلى نهر بوغوتا. كانت تريد أن تحمِّم الدمية، فانزلقَت من يدها واستقرَّت في قاع النهر. وحين انتبهَت الأسرة إلى ما يجري، كانت ماريا قد ألقَت بنفسها إلى البحر رأسًا لإنقاذ دميتها، وهي بكامل ثيابها. للأسف، لم يفلحوا في إنقاذها. بالأمس فقط عُثِر على جثتها، عُثِر عليها وقد أطبقَت يدها بقوة، أطبقَت بقوة، على دميتها...

وداعًا.

لكم مني تحيَة وعناق.

إيمًا.

الرسالة السادسة عشرة

عزيزي خيرمان،

ليلةَ أخطرَتنا رئيسةُ الدير بالميتة التراجيدية التي لقيها تارّاژورًا والجديدة... في الليلة نفسها بلَّلث فراشي وأنا نائمة، الأمر الذي لم يسبق أن عانيت منه قط. كانت السيدة ماريا قد أحسنَت تربيتنا في ما يتعلَّق بذلك، كما أن الراهبات قد سمحن لي بالاحتفاظ بمبولة تحت فراشي دومًا. كانت أبواب المهاجع تُوصَد بالمفاتيح ليلًا، فتُضطَرَ الواحدة لطلب المفتاح من الراهبة التي تنام في المخدع إن شعرَت بأنها ليست على ما يُرام. ونظرًا لخوفنا الشديد من النزول وحدنا واجتياز الدير من أوله إلى آخره، ما لم تكُن الحالة حرجة فعلًا، كنَّا نتماسك إلى أن يدقَّ الجرس. ولكن نظرًا لكوني الأصغر عمرًا، فقد حظيث بامتياز الاحتفاظ بالمبولة الليلية طوال الأعوام الثلاثة الأولى. كانت جميع الأسِرَّة مصنوعة من الخشب، ومُؤلَّفة من ألواح تعلوها مراتب محشوَة بالقش ومُغطَّاة بنسيج ثقيل جدًا يختلف لونه من مهجع إلى آخر. فكان لون المراتب في مهجع مريم المُعينة أزرق، أما في مهجع دون يوحنا بوسكو فأصفر، وأما في مهجع سانتا تيريزا فأخضر، وأما في مهجع الطفل يسوع، حيث أنام أنا، فلون النسيج أحمر. عندما بلَّلث فراشي بهت لون النسيج ولطَّخ كل شيء. لم أنبس بحرف، ورتَّبث الفراش سريعًا لئلَّا ترى الراهبةُ الملاءة المُلطَّخة، ولكني حين سجدتُ في المُصلَّى لمحَت

الأخت تيريسا ساقَيّ مُضرَّجتَين بالأحمر تمامًا. لم يكن ذلك الأمر قد خطر لي على بال، وفي عتمة الخامسة والنصف صباحًا لم ينتبه أحدٌ لما جرى، لا إيلينا ولا صديقاتي. أحسستُ بالأخت تيريسا تجذبني من ضفائري:

- اذهبي وانتظريني في الخارج.

خرجتُ وركبتاي ترتجفان خوفًا. دخلَت البنات جميعًا فخرجَت الأخت تيريسا، ومن دون أن تترك لي الوقت الكافي لأفتح فمي، انهالت عليَّ صفعًا ولكمًا في كل موضع، ثم جذبَتني من أذني وسحبَتني خلفها بخطى واسعة، حملَتني إلى المخدع وأمرَتني بنزع الأغطية عن السرير، وإذا رائحة القش الممزوج بالبول تخترق أنفي، والأخت تيريسا تجذب ضفائري وتمرِّغ وجهي في الفراش، كما يفعلن بقطط المخبز كلما قضَت حاجتها خارج الصندوق. وعندما دخلنا إلى المُصلَّى كان القدَّاس قد بدأ، فالتفتَت إليَّ الرؤوس جميعًا تراقبني، أما أنا فظللتُ أبكي طوال القداس. وبعد الفطور أرسلَتني الراهبات لإخراج المرتبة والأغطية ثم نشرها في الأرض الخلاء حتى تجفَّ. ساعدَتني إستير وتيريسا[35] على ذلك، وعلى تنظيف ساقَيَّ المُضرَّجتَين بالليف والصابون.

ولكن الأمر تكرَّر في الليلة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة. بذلتُ جهودًا مستميتة لئلَّا أخلد إلى النوم، وإن كان النعاس يغلبني في كل مرة، فلا أكاد أنام حتى

أبلِّل فراشي. ظلَّ اللون الأحمر ينساب من الفراش وأمسَت رائحة القش لا تُطاق. كنتُ أحسُّ بتلك الرائحة تلاحقني طوال اليوم، وأحملها معي، فلا أتمكَّن من نسيان شقائي. كنتُ أحسُّ بقرب الليل فيتملَّكني ذعر حقيقي، وأتوسَّل إلى الطفل يسوع والعذراء لينعما عليَّ برحمتهما كي لا أبلِّل فراشي. ولكن قديسًا واحدًا لم يسمع توسلاتي، بل كانت الراهبات يضاعفن العقاب. في أول الأمر فرضن عليَّ حضورَ القداس جاثيةً على ركبتَيَ، وحيدة، في منتصف المُصلًى، محرومةً من الحق في الوقوف. كانت تُنصَب منصة واطئة من الخشب أمام كل مقعد، يجثو فوقها المُصلَون، وذلك أفضل كثيرًا من الركوع مباشرةً على الأرض. في اليوم الثالث بدأتُ أشعر بالدوار وأسقط على الأرض مُمدَّدة كجثة هامدة، وجبيني يتفصَّد عرقًا باردًا. غالب الظن أن قواي قد خارت من فرط الكدر والجهود المضنية التي كنتُ أبذلها لمقاومة النوم ليلًا. لم يكُن الوقت كافيًا حتى يجفَّ الفراش، ما يضطرَني إلى النوم على رطوبة القش. بدأت الإغماءات في المُصلًى تتكرَّر يوميًا، فقرَّرَت الراهبات تبديل العقوبة بأخرى. فصرن يأمرنني بحمل المرتبة على رأسي طوال أوقات الراحة، ويحظرن على الأخريات الحديث إليَّ أو الاقتراب مني، فلم أُحرَم من الحق في اللعب أو الحديث إلى رفيقاتي فحسب، بل أصبحَت الأخريات، الخبيثات، أي الغالبية، يتسلَين بتوجيه الشتائم إليَّ وسد أنوفهن إذا مررن على مقربة

مني. ما عدتُ أتحمَّل المزيد. هزلتُ وما عدتُ قادرة على العمل في تمرير الإبر، بسبب الدوار والألم الرهيب الذي كنتُ أشعر به في عينَيَ إثر البكاء طوال اليوم. لم يُجدِ أيٌّ من تلك العقوبات نفعًا، فظللتُ أبلِّل فراشي كل ليلة. وبدأ القلق يتملَّك المُشرِفة التي استدعَتني إلى مكتبها يومًا. فقدَّمت لي الحلوى (لم أكُن قد رأيتُ قطعة حلوى منذ عهد السيدة ماريا). لا أذكر عمَّا حدَّثَتني، ولكنها ربَّتت على رأسي وداعبت وجنتَيَ وأهدَتني قلادة تجسِّد الطفل يسوع واقفًا على كرة. قالت إن تلك الكرة هي العالم. وبشريط من الحرير الأسود وضعَت القلادة حول عنقي ثم طلبَت مني الذهاب إلى العيادة، فالأخت تيريسا سوف تناولني دواء لعلاج ذلك الداء المخزي. فصارت الأخت تيريسا تناولني قدحًا كبيرًا من شراب يشبه الحساء الأسود، ثلاث مرات يوميًا. كان على قدر يسير من الدسامة، وإن خلا من الملح، وشاب مذاقه قليل من المرارة. فضلًا عن ذلك، كانت الأخت ماريا راميرِس تدثِّرني من الخصر نزولًا بغطاء ثقيل من الصوف.

مضَت أيام طوال من دون أن يؤتي العلاج ثماره، بل صار مذاقه في فمي يسوء يومًا بعد يوم. ذات يوم سألتُ الأخت تيريسا عن مكونات الحساء فأجابتني بجديَّة بالغة وقالت إنه حساء فئران.

- فئران؟ تلك الحيوانات السود التي تجري على أرض المخبز والمطبخ؟

فقالت:

- أجل. تلك الحيوانات السود التي تجري على أرض المخبز والمطبخ.

فرحث أتقيَأ قبل أن تفرغ حتى من جملتها. ظللث أتقيَأ على مدى ثلاثة أيام، ولكني لم أبلِّل الفراش من ذلك الحين. ومكافأةً لي على ذلك، أهديث مرتبة جديدة من النسيج الأحمر شأن المرتبة القديمة. ومن ذلك الحين أشعر بعطف غامر تجاه الفئران.

كانت التمارين الروحية تقام في شهر سبتمبر. ولذا كُنًا نعلِّق جميع الأعمال على مدى خمسة أيام، في الموعد نفسه من كل عام. وعلى مدى الأيام الخمسة كُنًا نُحرَم من الحق في النطق ولو بكلمة واحدة، وحتى أوقات الراحة كُنًا نقضيها في صمت ولا يُسمَح لنا باللعب خلالها. في تلك الأيام كان يحضر كاهن جديد، هو غالبًا الأب بيلتران، الذي لم يكُن حديثه رائعًا وحسب، بل كان جماله يقطع الأنفاس أيضًا. أعتقد أنه لم تبقَ فتاة واحدة، كبُرَت أو صغُرَت، إلَّا وهامت به عشقًا. كان فارع القوام، نحيله، له عينان خضراوان تقطعان الأنفاس، وصوت جهير يعلو وينخفض فيشملنا كالسحائب. كان الأب باكاوس العجوز يحضر لرفع القدَّاس، أما الجميل فيلقي علينا الدروس مرَّتَين يوميًا، في الحادية عشرة صباحًا والخامسة مساءً. كان الموضوع الرئيسي هو الخطيئة، والهدف الرئيسي من التمارين الروحية هو تقديم اعتراف شامل ومُفصَّل بكل

ما اقترفناه من خطايا طوال العام. وعلى مدى الأيام الخمسة كان علينا التنقيب في الأرجاء الأشد عتمة من ضمائرنا بحثًا عن الخطايا التي توارت عن أعيننا، بينما تنصبُ مهمة الأب بيلتران على مساعدتنا في العثور عليها.

وفي كل يوم، كان يتطرَّق إلى الوصايا العشر صباحًا ومساءً، فيتناولها بالتحليل طولًا وعرضًا. كان يخصُّ الوصية السادسة بالنصيب الأوفر من الشغف، وهي تحديدًا أشقَ الوصايا على مداركنا. «ما الزنى؟»، كنًا نسأله بأصوات صارخة، وتعلو أصوات الأصغر سنًا بيننا، فيجيبنا بابتسامة خبيثة قائلًا:

- كل الخطايا المُخِلَّة بالعفاف. على سبيل المثال، خلع الثياب أمام الرفيقات، أو إظهار أجزاء من الجسد على مرأى منهن.

ثم ينطلق في الحديث عن الشغف ويقارن بينه وبين العواصف البحرية. وُلِد الأب بيلتران على مقربة من البحر، فكان يصفه لنا بعنف بالغ، حتى غرس في نفوسنا فكرةً هي الأشد وحشيةً وهولًا عن البحر، نحن اللائي لم نعرفه يومًا. كانت تلك الدروس مصدر سعادة حقيقية عندنا، فذلك الكاهن النابغة يقلِّد الأصوات، وتغريد الطيور، وعواء الشياطين في الجحيم. وكان يبلغ من الجمال حدًا أدخل السعادة إلى نفوسنا وإن لم نفهم مما يقصده شيئًا.

كنا نقضي يومنا كاملًا في المُصلَّى، فلا نخرج سوى

لتناول الطعام والتنزُّه عشر دقائق في الباحة، ولكن مع التزام الصمت. أما الشيء الذي لم يستهوِني فهو الساعة المُقدَّسة. كانت المشرفة هي التي تتلوها بنفسها، بصوتها بالغ العذوبة. كانت تحسن التلاوة، وإن ورَدَت في النصوص أمورٌ مُروِّعة ما زالت تبثُّ الرعب في نفسي كلَّما خطرَت لي على بال. كان ذلك وصفًا مُفصَّلًا لكل موضع في أجسادنا لحظة الموت، إذ تفقد عيوننا الزائغة بصرها... وترتجف شفاهنا الضاربة إلى الزرقة... ويسري الخدر إلى أقدامنا الباردة... وهكذا كانت تسترسل في وصف لحظة الموت كل يوم بألفاظ مروِّعة حقًّا.

أما اليوم الرابع فكان بمثابة مراجعة شاملة استعدادًا للاعتراف. يومذاك يحقُّ لنا الذهاب إلى الآنسة كارميليتا كي تكتب لنا خطايانا الأساسية على ورقة لئلَّا ننساها. أما تلك الورقة فكنَّا نناولها للأب عَبْر كوة صغيرة ساعة الاعتراف. وهكذا يسير الاعتراف بسرعة أكبر، لأن الأب بيلتران المسكين كان يُضطَرّ لسماع اعترافاتنا جميعًا في يوم واحد وحسب، اليوم الخامس، وكان ينتهي المسكين من مهمته في الثامنة ليلًا وهو يكاد يحتضر من فرط الإعياء، أما نحن فكنَّا نخترع التساؤلات بكل صنوفها، والخطايا التي لم نقترفها، رغبةً في الحديث إليه أطول وقت ممكن على كرسي الاعتراف، فيوضح لنا المسكين مُضطرًا أن تلك ليست خطايا. كان الاعتراف يبدأ بالكبيرات وينتهي بالصغيرات.

كان قد مرَّ علينا في الدير ثلاثة أو أربعة أعوام من دون أن تجد الراهبات لمشكلتنا حلًا. لم يفلحن يومًا في التحقُّق مما إذا كنَّا قد نلنا سرَّ المعمودية أم لا، ولذا فقد بقينا محرومتَين من سرِّ التثبيت[36] وسرِّ المناولة. وحدهن أربع بنات حُرِمن من المناولة في الدير، الأختان سانتوس وأنا وإيلينا. أما الأختان سانتوس فقد سبقتانا إلى المناولة الأولى[37]، إذ تسنَّى لهما الحصول على شهادة المعمودية. ولكني عجزتُ عن التسليم بحرماني من الاعتراف كالأخريات، ذلك أن الفرصة الوحيدة السانحة للحديث إلى الأب بيلتران على انفراد، على انفراد، بدَت لي أمرًا رائعًا. كانت الصغيرات آخر من يدلي باعترافهنَ، وفي تلك الساعة يكون التعب قد أدرك الراهبات من الاعتناء بنا، ولذا فقد أرسلن الأخت أونورينا الإيطالية التي طالما بدَت لنا مُسلِّية. جلسَت العجوز على مقربة من كرسي الاعتراف ممسكة بكتاب الصلوات، حتى غلبها النعاس، فتسلَّلتُ أنا من ورائها وجثوتُ أمام كرسي الاعتراف وأنا أرتعد. وفجأة سمعتُ صوتًا خفيضًا للغاية يمرُّ من فوق رأسي:

- أدلِي بخطاياكِ يا بنيتي.

فرفعتُ عينَيَ وأدركتُ أني لن أتمكَّن من الحديث إليه ما لم أقف، لأني لا أبلغ الكوة الصغيرة الفاصلة بيننا وأنا جاثية على ركبتَيَ.

- سامحني يا أبتِ لأني بلَّلتُ فراشي مرات كثيرة خلال العام الجاري.

ومن بين الفتحات الصغيرة في الكوة رأيته يضع يده على فمه ويتنحنح.

- سامحني يا أبتِ لأني لم أتلقَّ المناولة الأولى، فالأخوات لا يعرفن ما إذا كنَّا ابنتَيِ الرَّب أم الشيطان... سامحني يا أبتِ لأني أدلي إليك باعترافي من دون إذن الراهبات.

فلم يتمالك نفسه وانفجر ضاحكًا:

- هل أنتِ البنت ذات النظارة السوداء؟

- أجل يا أبتِ.

- ما اسمكِ؟

- إيمًا.

- إيمًا ماذا؟

- إيمًا رييس (ملوك)، كملوك المجوس.

- كم عمركِ؟

- لا أحد يعرف، ولكني أعتقد أن عمري يزيد على العشرة أعوام.

- اذهبي واطمئني يا بنيتي، سأتحدَّث إلى الأخت المشرفة لنرى كيف يمكنكِ تلقِّي المناولة الأولى. سأتولَّى الأمر. فليباركك الرَّب.

نهضت وإذا بثلاث راهبات واقفات ورائي. الأخت تيريسا والأخت ماريا راميرِس والأخت أونورينا التي أفاقت من سباتها. قبضَت الأخت تيريسا على ذراعي، فتشبَّثت بكرسي الاعتراف وجذبت الستار القرمزي من دون وعي مني، فانتبه الأب بيلتران إلى ما يجري وأطلَّ

برأسه وقد ارتسمَت على وجهه أمارات الغضب العارم، ثم قال:

- من فضلكنَ يا أخوات، لا تعاقبن هذه البنت، فقد شعرَت بالحاجة إلى الحديث معي، وأحسنَت صنعًا بمجيئها إلى كرسي الاعتراف. دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ! (38)

فذابت الراهبات ابتسامًا ولم يقلن لي شيئًا من ذلك الحين.

كان اليوم الأخير من التمارين الروحية يوافق يوم أحد في كل مرة، فيقام احتفال ضخم بتلك المناسبة، يتكرَّر في عيد ميلاد رئيسة الدير، أي مرتَين وحسب من كل عام. يومها كان يُزيَّن المُصلَّى وتُبسَط المفارش الفاخرة ويمتلئ المذبح بالمزاهر ويُضاء القديسون جميعًا ويُضاعَف عدد الشموع المُضرَمة. كان الأب بيلتران هو من يرفع قُدَّاس الختام، فتزيده الزينة جمالًا على جمال. كان يلقي علينا موعظةً استعدادًا للمناولة، فيقول إنه يرى أكاليل النقاء تحيط برؤوسنا بعد التمارين العظيمة التي أنجزناها، وإنه ينتظر منا الحفاظ على أرواحنا نقيَة طوال العام، نقيَة بقدر ما كانت يومذاك، ثم يناولنا، فنرنِّم جميعًا بنفوس مفعمة بالحماسة، ونتلو ترنيمة المجد للرَّب، حمدًا له على ما وهبنا من عطايا. كان ذلك هو اليوم الوحيد على مدى العام الذي تتناول فيه الراهبات فطورهنَ برفقة الأب في قاعة مُعَدَّة خصيصًا لذلك، في حين يُسمَح لنا

بالحديث على الفطور المُؤلَّف من شوكولاتة خفيفة جدًا - ولكنها شوكولاتة برغم كل شيء - وقطعة من الجبن ورغيف إضافي من الخبز الأسمر. أيُّ يوم رائع! بعد خمسة أيام من الصمت، كُنَّا ننطلق صارخات كالمجانين، مفعمات بالانفعال. وبطبيعة الحال، كان الموضوع الرئيسي هو حديث الأب بيلتران إلينا خلال الدروس، ما ألطفه، ما أجمله، فتتردَّد الضحكات المقتضبة المنفعلة في كل أرجاء قاعة الطعام، ونُعفَى من مهماتنا يوم الأحد الذي نحظى به لأنفسنا.

---

(35) يُرجَى التفريق بين تيريسا صديقة إيمًا ورفيقتها في المجموعة، المقصودة في هذا الموضع، وبين الأخت تيريسا الراهبة.

(36) سرُّ التثبيت: من أسرار الكنيسة الكاثوليكية، ويقابله في الكنائس الشرقية سرُّ مسحة الميرون، حيث يُدهَن المؤمن بزيت مُقدَّس علامة على توطيد علاقته بالكنيسة وثباته في الإيمان.

(37) المناولة الأولى: من طقوس الكنيسة الكاثوليكية، وغالبًا تُقام للأطفال ما بين السابعة والثانية عشرة من العمر. في حين لا تحدِّد كنائس أخرى سنًا بعينها للبدء في التناول.

(38) إشارة إلى الآية التالية من الكتاب المُقدَّس: «أَمَّا يَسُوعُ فَدَعَاهُمْ وَقَالَ: دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ، لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ اللهِ». (إنجيل لوقا 18: 16)

الرسالة السابعة عشرة

عزيزي خيرمان،

كنا قد فرغنا من التمارين الروحية منذ قرابة أسبوعَين، فدعَتنا رئيسة الدير إلى الاجتماع في الباحة الأولى ذات يوم، في موعد الراحة، وذلك لتقدِّم لنا راهبة جديدة جاءت كي تشغل منصب أمينة الصندوق، المنصب المُستحدَث آنذاك. فحتى ذلك الوقت كانت المشرفة هي المسؤولة عن الحسابات، والأخت أونورينا هي المسؤولة عن التسوُّق والمشتريات.

قالت لنا المشرفة أول ما قالت إن الأخت إبانخيلينا پونسيه دي ليون من أعرق عائلات كولومبيا وأرقاها. وإنها قد زهدَت في الثراء والجاه كيما تكرِّس نفسها لحياة الرهبنة المتواضعة. ولذا فمن واجبنا أن نحمد العذراء لأنها قد أرسلَت إلينا راهبة بارزة مثلها لتولِّي تلك المسؤولية التعسة المُتمثِّلة في مراعاة المصالح الاقتصادية لدارنا المتواضعة.

كانت الأخت إبانخيلينا پونسيه دي ليون مُتوسِّطة القوام، على قدر يسير من البدانة، شاحبة بلون شموع الكنيسة، وجميع قسمات وجهها مشدودة إلى الأسفل. كانت لها عينان كستنائيتان مُرتخيتان، وأنف معقوف إلى الأسفل يشبه الخطاف، وشفتان رقيقتان مشدودتان إلى الأرض، وحده صدرها القوي كان مشدودًا إلى الأعلى، وكذلك عجيزتها الممتلئة، وكأنها بذلك تشقّ لنفسها طريقًا وتضع مسافةً بينها وبين الأخريات. كان

كل ما لها من خيلاء يتجلَّى في هذين الموضعَين من جسدها. كانت أسنانها ناصعة البياض، ومعوجّة إلى الأسفل أيضًا، ما يجعلها تبدو وكأنها على وشك أن تبصق أسنانها إن تكلَّمَت. أما يداها فكأنها تنتهي بالبراثن، بما لها من أصابع طويلة جدًّا وبارزة العظام. كانت تتحدَّث ببطء شديد، مرفوعة الرأس للغاية على الدوام، وترمقنا بنظراتها من أعلى. أما إذا اضطُرَّت للمسنا كي تُبدِي إلينا ملاحظة أو تشقَّ لنفسها طريقًا وسط الصفوف أو في المشاغل، ما كانت تلمسنا إلَّا بطرف السبَّابة، كمن يلمس شيئًا قذرًا أو مُعديًا. كانت الراهبات ينادينا على الملأ أو على انفراد بقولهن «يا بنات». أما الأخت إبانخيلينا فكانت تنادينا بقولها «أيتها الفتيات»، أما إن غضبت فتنادينا بقولها «أيتها الصغيرات التعسات».

عندما قدَّمَتها لنا المشرفة، حدَّثَتنا الأخت إبانخيلينا هي الأخرى، فوعدَتنا بإدخال عدة تغييرات على الطعام وتوزيع العمل حتى نتمكَّن من ربح المزيد من المال.

- لا تنسين أنكنَّ هنا من باب الإحسان، وأن العمل واجب عليكن لدفع ثمن الطعام الذي تتناولن، لا تحسبن العالَم يهدينا الطعام الذي نطعمكن إياه، كلا. بل ينبغي لنا دفع ثمنه نقدًا، وينبغي لنا جميعًا الحصول على تلك النقود بالعمل.

وعدَتنا بأن الراهبات قد يصنعن زيَ أعياد جديدًا من أجلنا في العام المقبل.

- ولقد رأينا مع الأخت رئيسة الدير أن من واجبنا الاهتمام بتعليمكن بقدر أكبر. فتعلُّم القراءة والكتابة واجب عليكن جميعًا، وإن اقتصر الأمر على أسمائكن فحسب. ولسوف نعلِّمكن شيئًا من الحساب، فمن الضروري أن يعرف المرء الحساب في الحياة. والجغرافيا، كم واحدة بينكن تعرف ما الجغرافيا؟ ولا واحدة على الأرجح. يجب عليكن العودة إلى العالَم يومًا ما، والجغرافيا مهمَة جدًا في العالَم.

في الشهر التالي بدأت الدروس. كانت الأخت إبانخيلينا تحضر إلى المشاغل نصف ساعة يوميًا، ومن دون تعليق العمل بدأت في تحفيظنا الأرقام. فعلَّمَتنا أول ما علَّمَتنا الأعداد حتى العدد عشرين، ثم علَّمَتنا أن مجموع واحد زائد واحد يساوي اثنين، ومجموع اثنين وواحد ثلاثة، ومجموع ثلاثة وواحد أربعة، وهكذا حتى العدد عشرين. كانت تلك العملية تُدعَى الجمع، ثم إنها علَّمَتنا الضرب أيضًا، فحاصل ضرب اثنين واثنين أربعة. بدا لي الجمع والضرب شيئًا واحدًا، فسيَّان عندي إن قلنا «مجموع اثنين واثنين أربعة» وإن قلنا «حاصل ضرب اثنين واثنين أربعة». كنَّا نتلقَّى دروس الحساب أيام الإثنين، ونردِّد أسماء الحروف من A إلى Z أيام الثلاثاء. علَّمَتنا أن الحروف لا تتكرَّر مرتَين متتاليتَين في اللغة الإسبانية عدا حرفَي الـ L والـ R. أما دروس الجغرافيا فكنَّا نتلقَّاها أيام الأربعاء، كانت الأخت إبانخيلينا تعشق الجغرافيا. علَّمَتنا ما النهر، وما الفارق

بين النهر والبحيرة، والفارق بين البحيرة والبحر، وبين الجبل والربوة. قالت إن المدن مثلها كمثل الأشخاص، فكل مدينة تحمل اسمًا. وعلَّمتنا أسماء أهم المدن الكولومبية.

أما في أيام الخميس فكانت تعلِّمنا تاريخ الوطن. حدَّثتنا عن سيد يُدعَى سيمون بوليفار[39]، أبو الوطن. وعلَّمتنا نشيدًا عن بوليفار كلماته كالتالي:

«منذ مئة عام خلَت، رحل البطل الحزين حزنًا جارفًا، رحل عنا وهو على مشارف البحر. إن بوليفار لنا أبٌ، ووطنٌ، وأمَّةٌ».

علَّمَتنا الصلاة التي تلاها أتاناسيو خيراردوت[40] حين صعد إلى الجبل وسط رصاص العدو:

«ربَّاه، هبْ لي أن أرفع هذه الراية على قمة الجبل، وإن شئت أن تفيض اليومَ روحي، فلسوف ألاقي الموت سعيدًا».

وفجأةً، بوووم!... اخترقَت قلبه رصاصة، فخرَّ قتيلًا، وقد أحاطت به راية الوطن.

كانت راية الوطن مُقسَّمة إلى ثلاث قطع من النسيج تُخاط ببعضها بعضًا، قطعة صفراء، وأخرى زرقاء، وأخرى حمراء. أما الأصفر فيرمز إلى ذهب أرضنا وثرواتها، وأما الأزرق فإلى مياه المحيطات التي يطلُّ عليها بلدنا، وأما الأحمر فإلى الدماء التي نزفها أبطالنا في ميادين القتال.

أما درس الجمعة فكانت تلقيه علينا في الباحة

الكبرى، خلال موعد الراحة، حيث نصطفُّ جميعًا في طوابير من عشر بنات. كان ذلك درس التربية البدنية، حتى نقوى ونتخلَّص من الهزال. كنَّا نرفع أذرعنا بقوة عاليًا، ونفتحها على هيئة صليب، ونمدُّها إلى الأمام، ونثنيها على الصدر، ونعيد رفعها، ونعود بها إلى الوراء بحركة سريعة، ونعيد مدَّها إلى الأمام، وفي خاتمة المطاف نسدل الأذرع بمحاذاة الجسد، مع فتح الأيدي. كنَّا نؤدِّي تلك التمارين مصحوبة بالأناشيد، فنرفع عقيرتنا بصوت واحد:

«الهمَّة يا بنات،

إياكنَّ والكسل،

بالعمل عن طيب خاطر،

سرعان ما نتحلَّى

بالقوة اللازمة

لنكون بنات

جديرات بالشرف».

للأسف، لم تذهب ثقافتنا إلى أبعد من ذلك. فقد مرضَت الأخت إبانخيلينا ولم تلقِ علينا المزيد من الدروس، لا هي ولا غيرها. في أول دروس التربية البدنية التي تلقَّيناها على يدها، خرجَت إلينا الأخت إبانخيلينا من مسكن الراهبات برفقة الأخت أونورينا التي مضَت في أثرها وهي تحمل كرسيًا من الخشب، مُنجَّدًا ومُوسَّدًا بالمخمل الأحمر. فأشارت الأخت إبانخيلينا بإصبعها إلى الموضع حيث ينبغي وضع

الكرسي من أجلها، ثم اتَّكأت على كتف الأخت أونورينا بأطراف أناملها ووقفَت على الكرسي. فما كان ذلك يسمح لها برؤية آخر بنت في الصف وحسب، بل وبمخاطبتنا من أعلى إلى أسفل أيضًا. جاء موقعنا في الصف الأول كعادتنا دومًا، نحن الصغيرات. كنتُ أتقدَّم الصف، وإلى جواري الأختان سانتوس، تليهما الأختان تيريسا باكا وأسونسيون باكا، تليهما إيلينا. لم ترفع الأخت إبانخيلينا عينَيها عن إيلينا طوال درس التربية البدنية. وبانتهاء الدرس رفعَت يدها ببطء، وبإشارة من السبَّابة أمرَت إيلينا بالاقتراب. رأيتُها تخرج عن الصف وعلى وجهها أمارات ذعر تليق بالأوقات العصيبة.

- اقتربي أيتها الفتاة.

ومن مكانها بالأعلى نظرَت إلى رأسها وسألَتها عما إذا كانت مصابة بالقمل. فأنكرَت إيلينا وقالت إن أختها الصغيرة هي المصابة بالقمل (وقد صدقَت في ما قالت، إذ كان القمل يطاردني بلا هوادة). فاتكأت بيدها على رأس إيلينا لتنزل عن كرسيها، وبإشارة من السبَّابة أمرَتها بأن تحمل الكرسي وتتبعها. ومن ذلك اليوم غدَت إيلينا جاريةً لدى الأخت إبانخيلينا، فأصبح لزامًا عليها أن تتبعها طوال اليوم وهي تحمل الكرسي عنها، وفي الحجرة كانت إيلينا تؤدِّي كل المهمات نيابةً عنها، بما في ذلك تلميع حذائها، والتخلُّص من دلو المياه القذرة، وإحضار المياه النظيفة، والذهاب إلى المطبخ ألف مرة كي تحضر إليها الشاي والحساء والمدفأة المُزوَّدة بالجمر

الوهّاج لتدفئة قدمَيها.

وفي باحة الأزهار الواقعة خلف المُصلَّى، هناك حيث تسكن الآنسة كارميليتا، كانت الأنسجة والزينة تُخزَّن في ثلاث حجرات ضخمة، ولكن الأخت إبانخيلينا أمرَت بإخلائها واتَّخذَت منها بيتًا لنفسها. لم تكُن ملتزمةً بقواعد الدير شأن باقي الراهبات، بل إنها حظيَت بكل الامتيازات الممكنة، حتى كادت تتفوَّق على رئيسة الدير نفسها، إذ كانت الرئيسة تأكل في مسكن الراهبات شأنها شأن الأخريات. وحدها الأخت أونورينا كانت تأكل معنا في قاعة الطعام. أما الأخت إبانخيلينا فغالبًا ما كانت تأكل وحيدة في جناحها، حيث تحمل إيلينا الطعام إليها. على مدى الشهور الأولى، الشهور التي تخلَّلَتها الدروس، ظلَّت إيلينا تنام في مهجع الطفل يسوع، حيث أنام أنا الأخرى، ولكن حين مرضَت الأخت إبانخيلينا أمرَت إيلينا بأن تحمل المرتبة إلى جناحها وتنام على الأرض قرب فراشها، وبذلك يتسنَّى للأخت إبانخيلينا أن تنادي إيلينا في أي وقت لتناولها قدحًا من الماء أو الدواء أو غير ذلك مما قد تحتاج إليه. كانت صديقات الأخت إبانخيلينا وقريباتها يحضرن لزيارتها مساء كل أحد، وهو اليوم الوحيد الذي لا تستبقي إيلينا معها خلاله، فكانت ترسلها إلينا بعد الغداء.

كانت إيلينا تحكي لي وصديقاتي أن الأخت إبانخيلينا تحسن إليها كثيرًا، وتناولها نصف طعامها الشهي جدًا، وأنها قد أعدَّت من أجلها ثوبَي نوم

جديدَين، وأنها تلقي عليها الدروس يوميًا. فأصبحَت تتقن العدَّ حتى العدد ألف وتحفظ جدول الضرب حتى العدد عشرة. كما علَّمَتها القراءة على أكمل وجه وجعلَتها تقرأ سِيَر القديسين وآلام المسيح. ذات يوم حكَت لنا أنهما كانتا تقرآن سيرة قديسة بارعة الجمال في مقتبل العمر، اقتُلِعَت عيناها بالسكين وبُتِر نهداها، ثم وُضِع كل ذلك على صحن كبير من الفضة وقُدِّم إلى رجل واسع النفوذ وفي غاية الثراء، ولكن الملائكة نزلَت من السماء ليلًا وحملَت القديسة إلى الفردوس. أما الرجل الثري الشرير جدًا فقد ابتلاه الرَّب بالعمى عقابًا له على ما اقترف. وفي مرة أخرى قالت لنا إن الأخت إبانخيلينا قد أهدَتها كتابًا يُدعَى القارئ الكولومبي يشتمل على الكثير من القصص، ولكن الأخت لم تكُن تسمح لها بأن تأخذ معها شيئًا عند لقائها بنا.

في مايو، تلقَّت الأختان سانتوس المناولة الأولى لهما بمناسبة عيد العذراء. لا أدري من أعطاهما الثوبَين بهذه المناسبة، كانا طويلَين، لونهما أبيض، في منتهى الجمال، وعلى رأس كل منهما استقرَّت طرحة مشغولة وشفافة، ومُثبَّتة في تاج من أزهار دقيقة باللونَين الأزرق والوردي. كانت البنتان شقراوَين ولهما عينان صافيتان، فبدتا في منتهى الجمال، وسُمِح لهما بارتداء الثوبَين والتنقُّل من قاعة إلى أخرى طوال اليوم كي نعرب لهما عن إعجابنا. أما أنا فرحتُ أرنو إليهما وأتحسَّس ثوبَيهما وقد استحوذ عليَّ شعور فظيع بالغيرة، ودار في

مخيلتي أن ملائكة الرَّب التي في السماء تشبه الأختَين سانتوس.

ذات يوم جاءت إيلينا تبحث عني في مشغل الحياكة لأن رئيسة الدير تودّ الحديث إلينا. ذهبنا إلى مكتبها فتركَت لنا مفتاح المهجع حتى نذهب لارتداء مئزر القدَّاس، ونغسل أقدامنا وأيدينا ووجهَينا ونصفِّف شعرنا. وفيما إيلينا تجدل ضفائري حضرَت الأخت إبانخيلينا وأمرَتني بخلع تلك النظارة السوداء البشعة وقالت إننا ذاهبات للقاء الأسقف، ولذا فمن واجبنا أن نجثو ونقبّل يده بمُجرَّد الاقتراب منه.

كان الأسقف يترقَّب وصولنا برفقة رئيسة الدير، في القاعة نفسها التي ذهبنا إليها يوم وصلنا إلى الدير، حين أخذَتنا الراهبتان إلى هناك. جثوث أمام الأسقف فرأيث أن رداءه أحمر اللون، وجواربه حمراء أيضًا، فأجهشث بالبكاء من دون أن يعرف أحد لبكائي سببًا، حاول الأسقف أن يلمسني بيده فما كان مني إلَّا أن التصقت بالجدار. عند ذاك بدأت المشرفة تحكي كيف تخلَّى عنا هنديان في محطة القطار فأخذَتنا راهبات أخريات ومعهن أب كاهن ومضوا بنا إليهن. وأخبرَته أن ليس هناك ما يُعرَف بشأن أسرتنا، والأخطر من ذلك أن أحدًا لا يدري ما إذا كُنَّا قد نلنا سرَّ المعمودية أم لا. استمرَّ الحديث بينهما طويلًا، ثم بدأت تصل راهبات أخريات، جميعهن كنَّ في غاية الاضطراب. رأتني الأخت كارميليتا أبكي فدنَت مني وسألتني عن سبب بكائي.

- لأنكن سوف تتخلَّين عنا للشيطان.

- أي شيطان؟

- هو...

وبإصبعي أشرتُ إلى الأسقف. خرسَت كلُّ الراهبات، بينما سألني الأسقف في غاية العذوبة عن السبب الذي دفعني إلى التفكير بأنه هو الشيطان.

- ... عرفتُك من ردائك الأحمر.

فأغرقن في الضحك جميعًا، فيما عدا إيلينا التي صفعَتني على فمي، إذ كانت تعرف ما تعنيه كلمة أسقف.

أخذونا إلى المُصلَّى حيث تلقَّينا من الأسقف سرَّ التثبيت، ثم أهدى كلًا منا قلادة فضية تحمل صورة العذراء. كما أعطى الأخت إبانخيلينا ورقة مالية وطلب منها أن تشتري لنا شيئًا مما يعوزنا. فاشترَت لنا الأخت إبانخيلينا نسيجًا أبيض لتصنع لنا منه السراويل كما صنعَت صدارًا من أجل إيلينا، إذ بدأ نهداها في البروز وأصبح شدُّهما ضروريًا وإلَّا بدَت بمظهر يفتقر إلى الاحتشام.

كانت الأخت إبانخيلينا هي التي تولَّت أمر تجهيزنا للمناولة الأولى. فكانت إيلينا تمرُّ بي كل يوم بعد الحادية عشرة وتصحبني إلى جناح الأخت إبانخيلينا التي كانت تجلس على مقعد ضخم من القطيفة الخضراء الداكنة وتسند قدمَيها على الكرسي الصغير المُوسَّد بالمخمل الأحمر الذي تضعه إيلينا من أجلها. كنَّا

نجلس على الأرض، إيلينا على مقربة منها، وأنا على مسافة أبعد.

كانت تلك هي الحقبة التي أدركتُ فيها أن الأخت إبانخيلينا تحبُ إيلينا حبًا جمًا. كانت تثقل كاهلها بالعمل كالجاريات، غير أنها كانت تحبّها، فتربّت على رأسها طوال الوقت، وترى كل ما يصدر عن إيلينا بالقول أو بالفعل رائعًا. أما أنا فيكاد يقتلني الضجر خلال دروس تعاليم الكنيسة وتفسير الأسرار المُقدَّسة والوصايا العشر - مرة أخرى - والخطايا والقربان المُقدَّس وتناول جسد المسيح ودمه. لم أكُن أفهم شيئًا مما تفسِّره لنا معظم الوقت. أصبحَت إيلينا تتقن القراءة وتستطيع دراسة تعاليم الكنيسة، أما أنا فكنتُ مُضطرَّة لحفظ كل شيء، ولكن الضجر كان يتملَّكني، ويشرد ذهني، فلا يعلق في ذاكرتي شيء.

كانت لإيلينا ذاكرة قوية وقدرة إعجازية على التعلُّم. قالت عنها الأخت إبانخيلينا إنها أذكى وأجمل طفلة في الدير بأسره. فترك تفوُّقُ إيلينا في نفسي عقدةً حقيقية. وكرهتُ كل ما يمتُّ للتعلُّم بصلة، ولم يستهوِني شيء عدا ابتكار القصص والأشياء من نسج الخيال. فبدلًا من تعاليم الكنيسة والحساب كنتُ أؤثر لو سُمِح لي بالعزف على البيانو والأرغن، والذهاب إلى الأرض الخلاء وتسلُّق الأشجار، كنت أفضِّل التفكير في قصص تارَّازُورَا، لا قصص التاريخ المُقدَّس. وقد استهواني التطريز لأنه يتيح لي ابتكار غرز جديدة وطرائق جديدة لصنعها.

ولذا كنتُ الأثيرة لدى الأخت كارميليتا التي قالت عني إني الوحيدة القادرة على أن تحلَّ محلها لاحقًا. لا أدري إن كانت جادة في ما تقول، فلقد شاء القَدَر لقولها أن يتحقَّق، لأن المسكينة أشرفَت على العمى.

وبالعودة إلى حديث المناولة الأولى، لم تقوَ الأخت إبانخيلينا على تحمُّل غبائي أكثر مما فعلَت، وشعرتُ بأنها تمقتني بصدق. قالت لي ذات يوم:

- ما عدتُ أتحمَلكِ، لا تعودي إلى هنا. أمقتُ القبيحات والغبيات، وأنتِ قبيحة وغبية معًا.

فكانت الأخت ماريا راميرِس هي التي تولَّت إعدادي من أجل المناولة الأولى. في حين تابعَت إيلينا تجهيزها مع الأخت إبانخيلينا.

لو سألتَني عن الحب الأول في حياتي، لوجب عليَّ الاعتراف بأنها الأخت ماريا راميرِس. كان ذلك حبًا نادرًا كل الندرة، وكأنها أمي، وأبي، وإخوتي، وحبيبي. وجدتُ فيها كل ألوان الحب وصنوف الحنان. كانت فارعة القوام، نحيلة للغاية، حركتها رشيقة أنيقة، ولها بشرة ضاربة إلى السمرة، وعينان سوداوان، ثاقبتان، تطلُّ منهما مسحة من الحزن. كانت جميع قسمات وجهها مثالية، وكأنها متوازنة، غير أنها لم تكن قسمات أنثوية ولا ذكورية. يسعني القول بأنها كانت بلا جنس، كان ذلك هو الجمال والتوازن المثالي الذي يسمو على الجنس. كانت تبدو على قدرٍ يسيرٍ من القسوة أو الذكورية تارة، وعلى قدرٍ هائلٍ من العذوبة والحنان تارة

أخرى. لعلَّها لم تكُن في غاية الثقافة أو الذكاء. وإن دلَّ تولِّيها مشغل الكي على شيء فقد دلَّ ذلك على مستواها الثقافي. فضلًا عن ذلك، فقد أخبرَتني بأنها من أسرة فقيرة للغاية، وبأنها الثالثة عشرة بين ثمانية عشر أخًا. وقد وُلِدَت في بلدة صغيرة على مقربة من كالي. ونظرًا لعملي في مشغل التطريز، مشغل صاحبات الامتيازات، فما كنتُ أراها إلَّا في ما نَدَر. كانت تنام في مهجعنا، ولكن لم يكُن شيء يجمعني بها عدا صلاة باكر.

لم يبدأ شعوري نحوها بالحبِّ حتى بدأت تُعِدُّني من أجل المناولة. كنتُ أنزل مساء كل يوم إلى مشغل الكيِّ، وأخرج معها في نزهة عَبر أرجاء الباحات والأرض الخلاء، فكانت تأخذ هي بيدي، أو أتعلَّق أنا بخصرها. ليس الأمر أني تعلَّمتُ معها أكثر مما تعلَّمتُ مع الأخت إبانخيلينا، كلا، ولكن بدا لي حديثها أيسر وأوضح لأنها كانت تخاطبني بقدر أكبر من البساطة، وكذلك لشعوري بأنها تحبّني.

استمرَّ الإعداد للمناولة الأولى شهرَين. كانت تُحضِر لي شيئًا كل يوم، تخفيه في جيوبها، قطعة حلوى أو ثمرة فاكهة أو صورة قديس. أما أنا فكنتُ أسرق الأزهار من الأرض الخلاء، الأزهار الأصغر حجمًا، وأودعها بين يدَيها طالبةً منها أن تحتفظ بها في جيبها طوال الوقت لتتذكَّرني وأنا لستُ برفقتها. أما إذا عرَّجنا على باب أو مكان نثق بأن أحدًا لن يرانا فيه، فكانت تعانقني بقوة وتمطر وجهي بالقبلات، بينما أقبِّل أنا عينَيها وأطراف

أناملها، واحدًا تلو الآخر. كنتُ أراها في غير ساعات الدروس وهي تطوي الباحة أو القاعة أو ببساطة تدخل إلى المُصلَّى أو تذهب للتناول في أثناء القداس، فإذا قلبي يثب وأنفاسي تنقطع. كانت تغيب عن عينيَّ، فأمضي وقتي كاملًا في حديث ذهني معها وأبتكر القصص كي أرويها لها. على مدى أعوام طفولتي، كانت هي الوحيدة التي أخبرَتني بأني في غاية الذكاء، فلم أصدِّقها بطبيعة الحال، اعتقادًا مني بأن إيلينا وحدها ذكية.

قرَّرَت المشرفة أن خير موعد لإقامة المناولة الأولى لنا هو قدَّاس عشية عيد الميلاد، في ساعة ميلاد الطفل يسوع نفسها. قلتُ للأخت ماريا إنها يجب أن تساعدنا في الحصول على ثوبَين لونهما أبيض مثل الأختَين سانتوس، لأني لا أودُّ تلقِّي المناولة الأولى ما لم أرتدِ الثوب الأبيض. فحزنَت حزنًا جارفًا وقالت إن ليس في وسعها شيء، فذلك أمر لا يقدر عليه سوى المشرفة والأخت إبانخيلينا. يومذاك أدركتُ أن البشرية تنقسم إلى طبقات اجتماعية، وأن السلطة لا يملكها سوى أبناء الطبقات صاحبة الامتيازات، أدركتُ ذلك في الدير بوضوح، كما أدركتُه في العالَم لاحقًا.

لم يكُن في وسع الأخت ماريا راميرِس أن تعيش حياة الأخت إبانخيلينا. بل إنها عاشت مثلنا غافلةً عما يجري بين الأخت إبانخيلينا والآنسة كارميليتا والمشرفة، فهي مُجرَّد جارية لدى الأخريات، مثلها كمثل

الأخت أونورينا والأخت إينيس والأخت تيريسا، وتلك هي الرؤية التي أخذَت تتَّضح وتتأكَّد لي يومًا بعد يوم. كانت أولئك السيدات الثلاث يمثِّلن الطبقة الأرستقراطية، أما نحن الباقيات فكنَّا نمثِّل العامَة.

لم أكُن قد رأيتُ إيلينا منذ أيام طوال، ولكني قرَّرتُ الذهاب إلى الآنسة كارميليتا لتكتب عني رسالة سريعة للطفل يسوع، رسالة أطلب فيها الثوبَين، إذ كان ذلك موعد تقديم الباقات الروحية والرسائل التي نخطر فيها الطفل يسوع برغباتنا بمناسبة أعياد الميلاد. كتبَت الرسالة من دون أن تدلي بتعقيب واحد. أما أنا فتسلَّلتُ عَبر دَرَج الراهبات المحظور علينا، وذهبتُ إلى المُصلَّى كي أودع الرسالة قرب المذبح للطفل يسوع. كنتُ قد أودعتُ الرسالة حين التفتُ ورأيتُ المشرفة تصلِّي جاثيةً على كرسي السجود. نظرَت إليَّ ولم تقُل شيئًا، فهرولتُ خارجةً.

مرَّت الأيام واقتربَت أعياد الميلاد وما زال الطفل يسوع لم يرسل لنا الثوبَين. وقبل ثلاثة أيام جاء الأب بيلتران كي نعترف أمامه. قلتُ له إني كتبتُ رسالة إلى الطفل يسوع طلبتُ منه فيها ثوبًا أبيض، فلم يصل الثوب ولم يعُد أمامنا إلَّا ثلاثة أيام، وقلتُ إني لا أرغب في تلقِّي المناولة الأولى ما لم أرتدِ الثوب الأبيض. فاستشاط غضبًا وقال إني قد وقعتُ في خطيئة الكبرياء، وطلب مني التوبة عما اقترفت والإمساك عن التفكير في الأمر من جديد، فالشيء الوحيد الذي يجب

أن يكون أبيض ليس ثوبي، وإنما روحي. صبيحة عيد الميلاد أقبل الأب بيلتران مُجدَّدًا كي نعترف أمامه مرة أخيرة استعدادًا للمناولة. كنتُ حزينة وفي مزاج عكر، أعتقد بأني لم أسمع شيئًا مما قال. وفي السادسة مساء مرَّت بي الأخت تيريسا، فذهبنا إلى المغسلة حيث يقع حوض هائل يبلغ طوله خمسة عشر مترًا وعرضه مترَين، وتحيط به أحواض صغيرة تُغسَل فيها الثياب. لم يكُن هناك من يغسل الثياب آنذاك. وصلَت الأخت إبانخيلينا مع إيلينا. طلبَتا منا خلع ثوبَينا وارتداء قميصَين طويلَين رماديَّين. غسلَت الأخت إبانخيلينا شعر إيلينا، في حين غسلَت الأخت تيريسا شعري أنا. طلبَت الراهبتان منا فرك الوجه والقدمَين والذراعَين والساقَين بالليف، ثم شرعتا في سكب دلاء من المياه المُثلَّجة على جسدَينا. ظننتُ أني مشرفة على الموت من فرط البرودة، وعجزتُ حتى عن التقاط أنفاسي. جفَّفتا شعرنا جيِّدًا ومضَتا بنا إلى المهجع حيث أُمِرنا بالنوم ونحن لم نأكل شيئًا. قالتا إن المناولة عند منتصف الليل، ولذا لم يكُن في وسعنا أن نأكل شيئًا إلَّا بعد قدَّاس منتصف الليل. قالتا إنهما سوف تحضران لإيقاظنا في الحادية عشرة ليلًا. أوصدتا باب المهجع بالمفتاح ورحلَتا. أجهشتُ بالبكاء حزنًا على الثوب فقالت لي إيلينا إني طفلة بلهاء، لأن الفقيرات لا يتلقَّين المناولة الأولى في ثيابٍ بيضٍ.

- وماذا عن الأختَين سانتوس؟ أهما ثريتان؟

- كلًّا، ولكنهما في حماية الأثرياء.

أشحتُ عنها بوجهي وخلدتُ إلى النوم.

وفي الحادية عشرة جاءت الأخت تيريسا لإيقاظنا. تردَّدَت صيحات بنات أخريات كُنَّ في راحة ترقُّبًا لموعد القدَّاس. كدتُ أحتضر من فرط النعاس. ارتدينا مآزر القداس وخرجنا من المهجع. أما الأخت إبانخيلينا فكانت تنتظرنا في الرواق.

- تعاليا معي.

أخذَت بيد إيلينا، في حين مضيتُ في أثرهما. وصلنا إلى جناحها فرأيتُ على الفراش ثوبَين أبيضين رائعَين، أجمل وأفخم كثيرًا من ثوبَي الأختَين سانتوس. اغرورقَت عيناي بدموع السعادة.

- الثوبان لابنتَي أختي، وقد استعرتُهما من أجلكما. رجاء محبة، لا تتلفاهما أو تلوِّثاهما.

وصلَت الأخت تيريسا مهرولةً فتعاونتا على إلباسنا. وراحت الأخت تيريسا تتحدَّث عن جمال ثوبَينا طوال الوقت، لم يكُن التاجان من الأزهار فحسب، بل واللآلئ البرَّاقة أيضًا. وفيما هما يساعداني وإيلينا على انتعال حذاءينا، انفجرتُ ضاحكةً، إذ كان ذلك أول حذاء أنتعله في حياتي، وكان أكبر كثيرًا مما ينبغي، أما حذاء إيلينا فأصغر مما ينبغي، ما اضطرَّ المسكينة للسير كالعرجاء، في حين سرتُ أنا أجرجر قدمَيّ لئلَّا ينخلع حذائي. فرغنا من ارتداء ثوبَينا بمساعدتهما، فدقَّ جرس القدَّاس. طُلِب منا الصعود إلى المُصلَّى عَبر دَرَج

الراهبات، ثم دخلنا عَبر الباب الذي تجلس الآنسة كارميليتا على أعتابه لسماع القدَّاس. رأتنا الآنسة كارميليتا فأشارت لنا بالاقتراب وقالت إن الثوبَين في غاية الجمال. وفي وسط المُصلًى، على مقربة من المذبح، وُضِع كرسيان للسجود من أجلنا. ما إن دلفنا إلى المُصلًى حتى سمعنا البنات جميعًا يصحن «أوه!!!»، إلَّا أني فقدتُ فردة حذائي وأنا أسجد، فأغرق الجميع في الضحك، وضحكتُ أنا الأخرى.

بدأ القدَّاس في تمام الثانية عشرة ليلًا. رفع الأب بيلتران الستار الذي يغطِّي الطفل يسوع المُمدَّد على مهد من القطيفة الوردية بين سحائب من القطن. كان المُصلًى بأسره مُضاء وحافلًا بالأزهار. قامت المشرفة واقتربَت طالبةً منا أن نجثو عند منتصف طاولة المناولة. جاش صدري بالمشاعر وأعتقد بأنني في تلك اللحظة أحببتُ الطفل يسوع حقًّا، ذلك الذي كنتُ على وشك تناول جسده من خلال القربان المُقدَّس. وفي أثناء القدَّاس أنشدنا ترانيم أعياد الميلاد وعزفَت المشرفة على الأرغن عزفًا جميلًا.

انتهى القدَّاس فقمنا لنخرج من الباب نفسه مع رفيقاتنا، ولكن يد الأخت إبانخيلينا استوقفَتنا، فأمرَتنا بالخروج من الباب الذي دخلنا منه والنزول من الدَّرَج الخاص، ثم أخذَتنا إلى جناحها وأمرَتنا بخلع الثوبَين. ارتدَت كلٌّ منا مئزرها القديم، وخلعَت الحذاء أيضًا. ثم قالت لنا الأخت إبانخيلينا أن نذهب إلى القاعة مع

الأخريات لنأكل شيئًا. أما أنا، فلم أذُق شيئًا سوى أدمعي.

عيد قيامة سعيد.

إيمًا.

---

(39) سيمون بوليفار (1783 - 1830): عسكري وسياسي لعب دورًا محوريًا في تحرير الكثير من بلدان أمريكا اللاتينية الواقعة تحت الحكم الإسباني.

(40) أتاناسيو خيراردوت (1791 - 1813): ثائر وقائد حارب في صفوف سيمون بوليفار.

الرسالة الثامنة عشرة

كانت تفصل بيننا وبين عيد القديس بطرس ستة أشهر، فاجتمعَت الأم رئيسة الدير بالراهبات في جناحها كعادتها كل عام لتقرِّر أي هدية ترسلها إلى بابا روما يوم عيده. فوافقن جميعًا على صنع تونية مُطرَّزة من أجله. والتونية هي ذلك القميص الطويل الذي يصل إلى الأرض ويضعه الكاهن تحت الرداء لرفع القدَّاس. فوقع اختيارهنَّ على قطعة من الساتان في منتهى الرهافة، بيضاء كالسحاب.

أمضَت الأخت كارميليتا ما يزيد على شهر وهي تُعِدَ الرسم، حيث كانت الزخرفة الأساسية على هيئة سنابل القمح وأغصان العنب، أما القسم الأمامي فتتوسَّطه كأس كبيرة يطلُّ منها القربان المُقدَّس الذي تتساقط منه الأشعة، وفوق الأشعة حمامة تفرد جناحَيها تمثِّل الروح القدس، أما القسم السفلي فيشتمل على عدة زخارف مُفرَّغة على شكل الدانتيل وينتهي بحاشية مصنوعة بخيط الكروشيه، أما الأردان فمُطرَّزة حتى المرفق، والياقة غنية بقدر هائل من دقائق التفاصيل، وكذلك الكتفان.

أعتقد بأن الأم رئيسة الدير لم تبالغ حين قالت إنها ستكون التونية الأجمل في العالم بأسره.

كانت فترة حافلة بالكثير من العمل. فالتركية، خيرة مُشترِيات الدير، قد حملَت إلينا ثلاثة مفارش من الكتان لتطريزها، مفارش من أجل طاولة تتسع لأربعين فردًا،

مُرفقة بمناديل بقياس متر واحد، طولًا وعرضًا. عُهِد إلينا بتطريز كل مفرش وتزيينه بزخارف على هيئة سلال، بمجموع أربعين سلَّة في كل مفرش. فكانت سلال المفرش الأول حافلة بالأزهار، أما الثاني فبالفاكهة، أما الثالث فبالطيور والفراشات المُحلِّقة فوق أغصان البنفسج. كان الرسم يدور حول المفرش على هيئة جديلة مُعلَّقة بالأشرطة، وكل مفرش تتوسَّطه الحروف التالية M. G. R. مطبوعةً بحجم هائل ومحاطةً بالأزهار.

كان مشغل التطريز حافلًا بالأنوال التي تراصَّت أحدها لصق الآخر، حتى بات على الواحدة منا الخروج زحفًا على أربع من بين أرجل الأخريات كلَّما أُضطرَّت إلى غسل يدَيها أو الذهاب إلى دورة المياه. وانهمكَت البنات جميعًا في العمل على مفارش التركية ومناديلها، البارعات في التطريز وغير البارعات على حدٍّ سواء. وزيدَت ساعات العمل ساعة واحدة كانت تُقتطَع من ساعات راحتنا. كان يُعهَد بكلِّ نول لمُطرِّزة واحدة من البنات الكبيرات، فتشرف على العمل وتُعلِّم الأخريات وتتولَّى مسؤولية الخامات. كان من واجبها الإشراف على نظافة الأيدي لئلَّا يتلوَّث النسيج أو الخيط بالعرق، إذ كان البعض يتفصَّد عرقًا إلى الحدِّ الذي يجعل الإبرة تصرُّ كلَّما مرَّت من خلال النسيج. أما تلك الحالات فكان علاجها مسح الأيدي الرطبة على الجدار المُكلَّس حديثًا قرب الحوض، الأمر الذي يسفر عن نتيجة رائعة.

كان أصعب شيء على المُتعلِّمات هو الإحجام عن وضع الأصابع في الأنف أو الأذن أو حكّ الرأس أو لمس القدم أو وضع اليد في الجيب القذر خلال العمل، وتلك أصعب أشكال الانضباط على المبتدئات. على سبيل المثال، كانت إلبيرا كوبِيُوس مُطرِّزة بارعة وتعمل بسرعة كآلة الحياكة، ولكن عابها أن ريقها يسيل على القطعة المُطرَّزة. فكُنَّا نُضطرّ لربط منشفة على فم المسكينة وعنقها، ما يحول دونها ودون القدرة على الكلام. وفي نهاية اليوم كانت المنشفة تتشبَّع بريقها إلى حدّ يجعل عصرها ممكنًا. أما أولئك اللواتي يسيل مخاطهنّ فالمشكلة أشدّ عسرًا، إذ كان يتعيَّن عليهنّ حكّ الأنف بالجزء العلوي من ردن المئزر من آن إلى آخر.

وقع اختيار الأم رئيسة الدير والأخت كارميليتا عليَّ أنا لتطريز تونية البابا، فالشيء الوحيد التي طالما توسَّمَته فيَّ الراهبات كوني أفضل المُطرِّزات، ربما كان ذلك لأني تعلَّمتُ التطريز منذ الصغر، فما كنتُ أعرف جميع الأسرار والحيل التي يتطلَّبها كل نسيج فقط، ولا كنتُ أعرف جميع صنوف التطريز وطرائق استخدام كل خيط بما يلائم سمكه وحسب، بل إني كنتُ أمتلك موهبة الرسم وحدي دونًا عن الأخريات، فما كنتُ أحيد عن الرسم في أثناء التطريز، بل كنتُ أحسِّنه، المزية التي طمأنت الراهبات من ناحيتي، فلم يغدن في حاجة للوقوف ورائي ولا الإشراف على عملي، إذ كنتُ كلَّما أنجزتُ عملًا خرج على أكمل وجه تقريبًا.

كانت التركية تدفع بسخاء وتكلِّف الدير بالكثير من العمل، ولكن تونية البابا أهم من كل ما عداها، ولذا كان لزامًا أن تتولَّى خيرة الأيادي صنعها. الأمر الذي كان بمثابة جائزة وتكريم أيضًا. فالعمل من أجل البابا يكاد يضمن للواحد الذهاب إلى السماء، كما أن سلوك من يعمل من أجل البابا كل عام لا يمكن أن يكون هو نفسه سلوك من يعمل من أجل التركية، تلك التي كانت الراهبات ينعتنها بالملحدة، بل وكثيرًا ما طلبن إلينا الصلاة من أجلها كل يوم عند الشروع في العمل حتى ينير الرَّب نفسها ويغمرها بنور الإيمان المسيحي.

كنتُ أعرف ما ينتظرني إن تولَّيتُ ذلك العمل، وعند أدنى خطأ كان يخطر البابا على بالي، أنا التي لا تستحقُّ العمل من أجله، الآثمة التي لا يسعها أن تمسَّ بيدَيها ثوبًا سوف يضعه البابا على بدنه. فالبابا صورة المسيح المُجسَّدة على الأرض. وكل ما هو للبابا مُقدَّس شأن قربان المناولة... الخطبة التي نحفظها عن ظهر قلب هي وغيرها من الخُطَب، الأمر الذي لم يمنع تكرارها مُجدَّدًا في الموعد نفسه من كل عام.

كانت الأخت كارميليتا قد رسمَت زخارف التونية كاملة على الساتان. وبمساعدتها نصَبنا النول العملاق في القسم الخلفي من المشغل، من حيث لا تمرَ البنات الأخريات، لا تلافيًا لوقوع الحوادث وحسب، بل وتأكيدًا على أنها ليست كغيرها من القطع المُطرَّزة. فلم يُسمح لأحد بالمرور من حول ذلك النول سوى الراهبات والبنت

أو البنات اللائي يعملن عليه. نسخَت الأخت كارميليتا الرسم على الجزء السفلي من التونية، أي الجزء الأكثر أهمية، أما أنا فنسختُ الرسم على الأردان والكتفَين والياقة، فغطّينا كل شيء بالورق الشفاف ثم لففناه حول عود حتى لم نترك منه إلّا جزءًا يبلغ عرضه مترًا واحدًا، ثم شددناه على النول. غطّينا كل شيء بالملاءات، حتى لم نترك سوى قطعة واحدة مكشوفة يبلغ طولها عشرين سنتيمترًا ويبدو عليها الجزء الأول من الرسم. أعددتُ الخيوط مُرتَّبةً بحسب سمكها، وكذلك الإبر، والمقصّات، والمخارز، والورق، لإضفاء لمعة على التطريز. بات كل شيء مُعَدًا، فذهبَت الأخت كارميليتا لتنادي الأم رئيسة الدير التي أقبلَت تحمل دلوًا من الفضة يحوي ماء مُقدَّسًا جيء به من المُصلَّى، فباركَت النول وجعلَت تنثر الماء المُقدَّس من حوله فيما نحن نتلو الصلاة الربانية عشر مرات من أجل حياة البابا وصحته. ثم جعلَتني أجثو على ركبتَيّ وباركَتني، وبتلك الشعائر سُمِح لي بالشروع في العمل.

بقيتُ وحدي والنول الكبير على مدى شهرَين، وكأنني ملكة. فتزامنَت تلك الحقبة وأزمة روحانية مُتعلِّقة بحبي للأخت ماريا. فأنا لم أحبّ يسوع يومًا أكثر مما أحببتُه آنذاك. أحببتُه صغيرًا حديث الولادة، أحببتُه وهو يساعد القديس يوسف في أعمال النجارة، أحببتُه وهو يكلِّم التلاميذ، أحببتُه على الصليب، وفي القيامة، وفي السماء. كنتُ أقترب من المذبح للتناول فيرتعد كل

جسدي حبًا. وكنتُ أظلُّ شاخصة إلى القلب المُقدَّس[41] خلال القدَّاس حتى تراءى لي أنه يحرِّك شفتَيه أو يبتسم لي أكثر من مرة. ذات يوم جاء الكاهن حتى نعترف أمامه، فجثوتُ على ركبتَيَ قرب المذبح ورحتُ أفتِّش بعناية في أعمق أعماق ذهني عن كل ما اقترفتُ من آثام خشية أن أنسى منها شيئًا. رحتُ أتوسَّل إلى القلب المُقدَّس وأطلب منه أن يغفر لي آثامي ويساعدني لأكون أكثر صلاحًا، وأتقرَّب إليه أكثر، شاخصة إليه طوال الوقت. سالت على وجنتَيَ الدموع، وشعرتُ بأن ذنبي عظيم. مرة أخرى تفوَّهتُ بالأكاذيب، مرة أخرى شعرتُ بالكراهية نحو الأخت تيريسا، مرة أخرى خضتُ شجارًا في أثناء الراحة لأن إحداهن حاولت أن تأخذ الكرة مني، مرة أخرى أخرجتُ لساني للأخت إينيس لأنها لم تسمح لي بتسلُّق الأشجار. داهمَتني رغبة جارفة في التقوى إلى حدٍّ جعلني أفكِّر بأن الأمر قد يكون أيسر لو التحقت بالرهبنة، بل وربما صرت قديسة مثل سانتا تيريزا. في دقيقة واحدة اتَّخذتُ قراري. أجل، سأترهبن. ذهبتُ إلى كرسي الاعتراف واعترفتُ عن آثامي للأب الكاهن، وحين انتهى من تكليفي بصلاة الغفران، قلتُ له إني قد عقدتُ العزم على الالتحاق بالرهبنة، وطلبتُ مساعدته، علمًا مني أن التبرُّع بهبة للدير من شروط الرهبنة، وأنا لا أملك من المال شيئًا.

وإذا الأب بيلتران يقفز على كرسي الاعتراف وكأن

حية قد لدغَته، فأخذ يسعل ويحكُ أنفه من أسفل إلى أعلى، ويحكُ أذنه، ويدسُ فيها خنصره ويقترب بوجهه كثيرًا من كوة كرسي الاعتراف، ثم قال:

- يا بنيتي، أرى أنه عليك نزع تلك الفكرة من رأسك. وأنا الذي آمرك بذلك، لا تعاودي التفكير في الأمر مُجدَّدًا.

- ولكن، يا أبتِ، أعرف أن الرهبنة هي الشيء الوحيد الذي أطمح إليه. هل ذلك لأني لا أملك من المال شيئًا؟

- كلا يا بنيتي، ليس المال هو السبب، فلا بد أن يكون للواحدة أب وأم كي تصير راهبةً، ويجب التأكُد أنها وُلِدَت في أسرة مسيحية.

- يا أبتِ، أخبرَتني بنت بأن الواحد لا يولَد كالأزهار التي تنمو من باطن الأرض، ونهَتني عن العودة إلى الزعم بأني بلا أب ولا أم، لأن أحدًا لا يُولَد بغير أب وأم.

- صديقتكِ على حق يا بنيتي. لكل واحد منا أب وأم، ولكنه ما لم يعرف من هما، فلا فارق بين ذلك وبين الولادة من باطن الأرض كالأزهار. وإن وُلِد الواحد على تلك الحال، فلا يسعه أن يلتحق بالسلك الديني. أكثري من الصلاة يا بنيتي، ولا تعاودي التفكير في الأمر. فأنتِ قادرة على الخدمة حتى وإن لم تصبحي راهبة.

- ولكني أودُ أن أصبح راهبة.

- يا بنيتي، الواحد لا يحقِّق جميع ما يريده هو، بل ما يريده الرَّب.

- إذًا، أيكون هو الذي أراد لي أن أولَد في الخطيئة؟

وألَّا أصبح راهبة؟

تظاهر بأنه لم يسمعني وشرع يباركني.

وفي الليلة نفسها تحدَّثث إلى الأخت ماريا راميرِس في موعد الراحة. فقالت إن الأب الكاهن على حق، وإنها سوف تصلِّي من أجلي هي الأخرى. ولكني لم أرِد تصديق أي منهما. وفي أثناء العمل دار في خلدي أني لو كنث أتقن الكتابة لكتبت رسالة إلى البابا وأخفيتها في ردن التونية ليعثر عليها إذا ارتداها. ورحث أكتب له رسائل في ذهني، كنث أمضي يومي كاملًا في كتابتها، رسائل أحكي له فيها كل شيء عن حياتي، وأحدِّثه عن الطفل، وإدواردو، والسيدة ماريا، وأختي، وأخبره بأن الراهبات يسئن معاملتنا، فنحن نتعرَّض للضرب على أيديهن ونتضوَّر جوعًا، ولكني كنث أقول له إن الأخت ماريا راميرِس هي الوحيدة التي تشبه الملائكة بينهن. وفي مرات أخرى كنث أتخيَّل البابا وقد تلقَّى رسالتي وأرسل إليَّ ردًا. كنث أتخيَّل شتَّى الردود. وفي مرات أخرى يدور في خلدي أن البابا سوف يحضر إلى الدير، ويخبر الأم رئيسة الدير برغبته في الحديث إليَّ، فأتخيَّل آثار المفاجأة البادية على وجوه الراهبات جميعًا. ولكنه لم يعدْ أن يكون حلمًا، إذ كنث أعرف جيِّدًا أن البابا حبيس في دير مثلنا، ولا يسعه الخروج إلى العالَم. وهكذا مرَّت الأيام والشهور حتى بدأ التعب يتسلَّل إلى رأسي من فرط التفكير، وشيئًا فشيئًا نسيث رغبتي في الرهبنة، كما طلب مني الأب بيلتران، ونسيث

شغفي بيسوع أيضًا.

ذات يوم جاءت رئيسة الدير لمتابعة سير العمل فأدركَت أن الوقت لن يسعفني للانتهاء من التونية وحدي، فالنسيج أرهف مما ينبغي، والتطريز أدقُّ من أن ينتهي في الوقت. وبعد حديث مُطوَّل مع الأخت كارميليتا أصدرَت رئيسة الدير أمرًا بأن تبدأ خمس مُطرِّزات ماهرات في العمل معي على التونية بدلًا من مفارش التركية، بل وأمرَتنا بالعمل خلال ساعات الليل أيضًا. فكان ذلك بمثابة حفل صاخب عندنا، فالعمل في ساعات الليل يعني ألف امتياز وامتياز، أولها أننا لم نعُد مُضطرِّين لحضور القدَّاس عدا أيام الأحد. وكنَّا نأكل وحدنا في قاعة صغيرة ملحقة بمشغل الحياكة، وزِيدَت حصتنا من الطعام، وأصبحنا نتناول اللحم ونشرب كوبَين من الحليب كل يوم، ولكن أقصى درجات السعادة عندنا كانت الشوكولاتة المُقدَّمة لنا مع الخبز عند منتصف الليل، قبل أن نأوي إلى الفراش. فما كانت الشوكولاتة تُقدَّم لنا سوى مرة واحدة من كل عام، بمناسبة عيد رئيسة الدير، أو في الحالات الاستثنائية التي تُضطَرُّ فيها الواحدة إلى السهر ليلًا بغرض إنجاز عمل على وجه السرعة.

أما القطرة التي أفاضت كأس سعادتي، فكانت اختيار الأخت ماريا رامِيرِس للعناية بنا ليلًا. أعتقد أنها كانت أسعد أيام قضيتها على مدى أعوامي في الدير، فبلغتُ من السعادة حدًّا جعلني كالمُهرِّجة. لا أذكر مما كنتُ

أقول أو أفعل شيئًا، ولكني أذكر أن الأخت ماريا راميرِس ورفيقاتي كُنَّ يضحكن إلى حدِّ البكاء. لم يكُن في وسع الراهبات مطالبتنا بالتزام الصمت في أثناء العمل ليلًا، على عكس ما يُفترَض بنا في النهار. إذ كُنَّا نستيقظ في الخامسة والنصف صباحًا ونعمل ثماني عشرة ساعة كل يوم. ولذا كُنَّا سنتساقط كالذباب الميِّت ويغلبنا النعاس على النول ما لم نتجاذب أطراف الحديث. ولكن من حظنا العاثر أننا أحدثنا صخبًا أكبر مما ينبغي ذات ليلة. إذ وقفَت إستير على كرسي وراحت تقلِّد الراهبات جميعًا وتقلِّد الأب باكاوس في أثناء رفع القدَّاس، وإذا المقعد يتهشَّم وإستير تسقط أرضًا وتجذب معها أسلاك المصابيح التي تضيء النول. وبطبيعة الحال، رأى الجميع الكارثة صبيحةَ اليوم التالي، إذ تهشَّمَت المصابيح كافة وتطايرت شظايا. استدعَتنا رئيسة الدير إلى جناحها، واحدة تلو الأخرى، فقرَّرت اثنتان منهنَّ أني وحدي الملومة، وهما الأختان سانتوس اللتان كانتا تضمران لي الكراهية بعد أن ضربتهما ذات يوم حين سرقتا مني موزة ورغيفًا تركَتهما لي إستير نظرًا لإصابتها بمغص في المعدة. فتمكَّنت من إحكام يدَيّ حول عنقَيهما وضيَّقت الخناق عليهما لصق الجدار حتى جعلتهما تلفظان رغيفي وموزتي، الأمر الذي لم يكُن يسيرًا لأنهما أكبر مني عمرًا، ولكني باغتُّهما وهما جالستان أرضًا. فعاقبتني المشرفة بإرغامي على الاكتفاء بالعمل نهارًا، والعودة إلى المهجع

في الوقت نفسه شأن الأخريات. كان مهجع سانتا تيريزا يخضع لإشراف الأخت ترينيداد. كنَّا نرفع أصواتنا بالصلاة ونحن نخلع ثيابنا، طالبين من الرَّب أن يشملنا برحمته، وألَّا يقبض أرواحنا ونحن نائمات، وأن يرحمنا إن هو قبض أرواحنا، وألَّا يسدَ أبواب السماء في وجوهنا.

وفي تلك الأثناء كانت الأخت ترينيداد تجوب المكان خافضةً عينَيها لئلَّا ترانا، وإلَّا خاطرَت باقتراف الخطيئة المُتمثِّلة في كشف مواضع من أجسادنا إن شاء الحظُّ العاثر وانحسرَت الأقمصة عن أكتافنا. وما إن تأوي كلٌّ منا إلى فراشها، كانت الأخت ترينيداد توصد الأبواب دوننا بالمفتاح ثم تدخل إلى صومعتها كي تخلد إلى النوم، مع مراعاة وضع المفاتيح تحت وسادتها خشية أن نختلسها منها وهي نائمة. كنتُ أعرف كل ذلك ولم أفكِّر في إمكانية الاستحواذ على المفاتيح بالتأكيد. كان سريري يقع أمام باب من الزجاج، مُوصَد بعشرين قفلًا بطبيعة الحال، ويفضي إلى الرواق الذي تلقي فيه علينا رئيسة الدير تحية الليل. في ذلك الرواق عُلِّقَت الساعة الكبيرة ذات البندول التي كانت تصدر صوتًا يشبه خفقان قلب البقرة وهي تركض.

ما كان ذلك الباب يُفتَح قط، وإن كان زجاجه مُثبَّتًا بعدد كبير من المسامير الدقيقة جدًا التي تشبه الإبر. ترقَّبتُ طويلًا، حتى ما عادت بنت واحدة تتحرَّك في فراشها تحت الأغطية. ومن دون أن أخلع قميص النوم

أو أبرز رأسي من تحت الأغطية ارتديث المئزر والسروال، ثم انسللث من مكاني ورحث أزحف تحت سريري حتى اقتربت من النافذة. وبأنفاس شبه مقطوعة شرعث أنزع المسامير بالمقص، واحدًا تلو الآخر، حتى انخلع الزجاج. لم تكُن الفتحة كبيرة للغاية، ولكن كافية حتى أتسلَّل من خلالها وأنا أتلوَّى كالدودة. اشتدَّ خفقان قلبي حتى كاد يبلغ قوة دقَّات الساعة. وبأقصى سرعة قطعث الباحتَين وتمثَّلث على أعتاب مشغل التطريز كما لو كنث طيفًا. أما الأخت ماريا راميرِس، التي كانت ترفو جوارب الراهبات كعادتها، فقد شحبَت حتى بدَت كتونية البابا. في حين انفجرَت البنات ضاحكات، حتى الأختان سانتوس بدا عليهما التسلِّي بجرأتي.

أرادت الأخت ماريا راميرِس أن توبِّخني، ولكن حبها لي كان أقوى. ومع ذلك فقد جعلَتني أتعهَّد بألَّا أكرِّر فعلتي يومًا. رأيث عينَيها محزونتَين، وعرفث أن ذلك العقاب قد نزل بها هي الأخرى. وددثُ لو ألقي بنفسي بين ذراعَيها وأقبِّل وجهها وعينَيها وفمها وأقول لها إني شقيث بذلك العقاب أنا الأخرى وإني أحبُّها أكثر مما لو كانت أمي وأختي معًا. في تلك اللحظات أحببثها بجنون. جثوثُ أمامها وقبَّلثُ يدَيها، أما هي فوخزَت طرف أنفي برقَّة بالإبرة التي في يدها. طلبث منها أن تحني رأسها وهمسث في سمعها بأني سأعود إلى المهجع حبًا فيها.

فسارعَت هي قائلةً:

- كلا، كلا، فها أنا نازلة إلى مسكن الراهبات لإعداد الشوكولاتة. تعالي معي أولًا ثم اذهبي إلى فراشك. سأعدُّ الشوكولاتة من أجلك أنتِ أيضًا.

وفي أثناء نزولنا على الدَرَج، طوَّقَت الأخت ماريا رامِيرِس كتفَي بذراعها، بينما تعلَّقتُ أنا بخصرها. وفي تلك اللحظة أدركتُ كم كانت كبيرة.

خطرَت لي صورةٌ صفراء قذرة أطلعَتني عليها إينيس روسو، البنت التي وُلِدَت في السيرك. كانت تبدو في الصورة وقد تعلَّقَت بقائمة الفيل، أما عينا الفيل فقد ظهرتا مثقوبتَين. وقالت لي إنها هي التي ثقبَت عينَي الفيل بالإبرة حين تملَّكها الغضب ذات يوم لأن أمها أحبَّت الفيل أكثر مما أحبَّتها، وإلَّا كان الفيل هو الذي التحق بالدير لو أحبَّتها أمها أكثر مما أحبَّته. في صمت قطعنا الباحتَين ومررنا بالمغسلة، وحين وصلنا إلى باب مسكن الراهبات طوَّقَتني بذراعَيها وضمَّتني إلى صدرها بقوة وراحت تمطر وجهي بالقبلات في كل موضع، بسرعة كبيرة، وكأنها في عجلة بالغة من أمرها. أما أنا فلم يسعني إلَّا طبع قبلة على إحدى عينَيها وحسب.

- انتظريني هنا، أرغفة الخبز والفناجين جاهزة، لا ينقصني إلَّا تسخين الشوكولاتة.

ما كان يُسمَح لأي بنت بالدخول إلى مسكن الراهبات قط، كبيرة كانت أو صغيرة. ونظرًا لجهلنا بالمكان، فقد ابتكرنا عنه القصص بكل صنوفها. كنَّا نتخيَّله كما

نتخيَّل الفردوس، فكل ما يمثِّل السعادة عندنا محفوظ في مسكن الراهبات: فمنه يصلنا الخبز والموز والڤانيلا، ومنه تصلنا هدايا بابا نويل، ومنه تصل الثياب التي تُهدَى إلينا، ومنه تأتي الراهبة التي نحبُّها. وكانت لكل منَّا راهبتها الأثيرة كما أن لكل راهبة فتاتها الأثيرة.

كانت تلك ليلة سوداء قاتمة كرداء الكاهن الجديد، خلَت سماؤها من كل نجم. هبَّت ريح مُثلِّجة فانتفخ قميص النوم الذي أمسكته بكلتا يدَيَ لئلَّا ينحسر. أما الباحة الهائلة المرصوفة بالآجر عن آخرها فكانت رطبة، وشعرتُ بباطن قدمي يكاد يتجمَّد. استغرقَت الأخت ماريا راميرِس أطول مما ينبغي، ربما كان الجمر قد انطفأ واضطُرَّت لإضرامه من جديد. سمعتُ دقات الساعة، ربما كانت تشير إلى تمام الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة. وإذا بدفقة من الريح، أقوى من سابقاتها، تجعلني ألتفت إلى الوراء.

وفي تلك اللحظة رأيته: كان في القسم الخلفي من الباحة، لصق الجدار العالي الذي يفصل بين العالَم وبيننا. في البدء كان ساكنًا، ثم أخذ يتقدَّم نحوي ببطء مادًّا ذراعَيه إلى الأمام. لم أرتَب في الأمر لحظةً واحدة، عرفتُ أنه هو، تحديدًا كما وصفَته لنا الأم رئيسة الدير ملايين المرات في محاضراتها. طويل، طويل جدًّا، له عينان هائلتان تقدحان نارًا، وشعر أخضر، شعر يتلوَّن بشتَّى درجات الأخضر في آن واحد، أما قرناه فأكبر مما قد خُيِّل إليَّ، وأما أسنانه فهائلة، بيضاء، كما لو كانت

تسبق فمه، وأما يداه وأظفاره فطويلة جدًا، وتنطلق من أطرافها ألسنة اللهب. مضى إلى الأمام، قدماه لا تمسَّان الأرض، يلفُّه وشاح ضخم من النار الحمراء والأرجوانية والخضراء، وفوق رأسه سحائب من الدخان الأبيض والأزرق. وقفتُ منتصبة القامة وقد تحجَّرتُ في موضعي، وراحت تصطكَ ركبتاي. وددتُ لو أصرخ، فلم يصدر عني صوت. أما قلبي فما عاد يخفق، وإنما يعدو كما تعدو الخيل، وسال عرقي باردًا تحت ذراعَيَ وخلف أذنَيَ. وتحجَّرَت معدتي. في حين مضى هو قدمًا من دون أن يصدر عنه صوت واحد. شعرتُ بقشعريرة تسري من رأسي إلى ظهري. وبدا لي الوقت الذي استغرقه في اجتياز الباحة كالأبدية، كنت أعرف أنه آتٍ ليأخذني، أما البقية فقد جرَت في لحظة واحدة. أصبحتُ على مقربة منه إلى حدٍّ سمح لي برؤية الشعر الطويل البارز من ذراعَيه. لا أدري كيف ندَّت عني أول صرخة، ولا كيف تمكَّنتُ من استعادة الحركة. لم أركض، كلَّا... بل طرتُ من دون أن تلمس قدماي الأرض، لا أدري كيف قطعتُ الباحتَين، ولا كيف صعدتُ الدَّرَج، ولا كيف تسلَّلتُ من فتحة الباب التي كنتُ قد نزعتُ عنها الزجاج.

على يمين فراشي كانت تنام دولورِس باكا، تلك التي كنتُ أمقتها لما اشتهرَت به من قداسة. وحين عدتُ إلى الحياة، لم أكُن على فراشي وإنما على فراش تلك الباكا[42] التي تعلَّقتُ بعنقها ورحتُ أصرخ:

- ما دمث مع باكا فلن يأخذني الشيطان، ما دمث مع باكا فلن يأخذني الشيطان.

أخذَت تجاهد باستماتة كي تخلِّص نفسها مني. أما صراخي فلم يكُن صراخًا، وإنما عواء حيوان جريح. لم تبقَ واحدة إلَّا وأفاقت على صراخي، بنتًا كانت أو راهبة، بل وحتى الحارسة التي كانت تنام في أقصى الطرف المقابل من الدير. عمَّت الفوضى، وهرعَت البنات إلى أبواب المهاجع ورحن يثبن من فوق الأسِرَّة ويتصادمن ويدهسن بعضهنَ بعضًا. أما الراهبات فخرجن من صوامعهنَ بثياب النوم. لم يعثر أحد على مفاتيح أبواب المهاجع، فانطلق البعض يصرخ، والبعض الآخر يبكي، والكل يسعى إلى الهرب وهنَ لا يعرفن ماذا جرى. سقطَت الأم رئيسة الدير مغشيًا عليها، أما الآنسة كارميليتا فسقطَت عن الفراش ولم يتمكَّن أحد من مساعدتها على النهوض لحين طلوع النهار. وعندما أفلحن في إبعادي عن تلك الباكا، رأيث الأخت ماريا راميرِس قرب النافذة وقد غطَّت وجهها بيدَيها. كانت هي التي لاحقتني، وليس الشيطان. لم يغد الدير إلى أجوائه الطبيعية حتى موعد القدَّاس. أما الطامة الكبرى فلم يكتشفها أحد إلَّا بعد الفطور.

لم يبقَ من تونية البابا إلَّا ثلاث فجوات هائلة، إذ مرَّت البنات من فوق النول سعيًا إلى الهرب. جعلَت الأخت كارميليتا تنتحب وهي تربِّت بأناملها على حواف الفجوات التي أحدثَتها البنات في التونية، وكأنها في

انتظار أن تلتئم بفعل معجزة. وفي التاسعة صباحًا دقَّ جرس الدير مرة واحدة، ما يعني أن رئيسة الدير تستدعي الراهبات جميعًا على وجه السرعة. لم يستمرَ الاجتماع طويلًا، فرأينا رئيسة الدير بعد مرور عشر دقائق وقد جاءت برفقة الجميع فيما عدا الأخت ماريا راميرِس. جاءت وعلى وجهها أمارات القسوة والصرامة. وقفنا جميعًا، كما هو دأبنا كلَّما حضرَت إلى أحد المشاغل. كنث على مقربة من نول التونية حين نادَت اسمي.

- اقتربي.

قطعتُ المشغل بهدوء. لم يكُن في وسعي المشي بطريقة أخرى، لأن جسدي كله صار أشبه ببكرة الخيط، وتراءى لي أن شيئًا ما عاد يهمني، مطلقًا. كنث أعرف أنها لم تنادِني لتهنئتي. وحين أخبرَتني بالعقاب الذي تقرَّر من أجلي، بدا لي أمرًا طبيعيًا للغاية. حُرِمتُ من التواصل مع الأخريات شهرًا، فحُظِر على الجميع أن يتحدَّثن إليَّ، راهبات كُنَّ أو بنات، علاوة على شهر من العمل في المطبخ. شهر أمضيته في غسل القدور والأرضيات وحمل الماء. شهر كنث أنام خلاله في حجرة الأثاث العتيق بجوار حجرة الطاهية العجوز. شهر كنث أسمع خلاله القدَّاس جاثيةً على ركبتَيَ في منتصف المُصلَّى، وحدي، محرومةً من الحق في الجلوس. وحُذِف اسمي من قائمة بنات مريم. وأُرغِمتُ على ارتداء قميص طويل خشن بلون الحزن بدلًا من

المئزر المُوحَّد، وطُلِب مني ربط القميص على الخصر بشريط. وفي المطبخ أيضًا خرِمتُ من الحق في الكلام إلَّا إذا اقتضَت الضرورة القصوى من أجل العمل. لم يرتَب أحدٌ في أن الشيطان قد جاء ليأخذني، لا البنات ولا الراهبات، ولذا فلم يشقَّ عليهنَّ الامتناع عن الحديث إليَّ، لأني كنتُ أمثِّل الخطيئة والجحيم. وبمضي شهر، حين خرجتُ من المطبخ، لم تعُد الأخت ماريا راميرِس في الدير. لم يعرف أحد إلى أين أُرسِلَت. وإن قالت الأخت ترينيداد لإحدى البنات إن الأخت ماريا راميرِس، وفق ما تعتقد، قد أُرسِلَت إلى أغوا دي ديوس[43] لرعاية مرضى الجذام.

في ذلك العام لم يتلقَّ البابا هديتنا، والذنب في ذلك ذنب الشيطان.

إيمًا.

باريس، 1972.

---

[41] القلب المُقدَّس (وأحيانًا تُسمَّى قلب يسوع): أيقونة تجسِّد يسوع واضعًا إحدى يديْه قرب موضع قلبه الذي يظهر في الصورة زاهيًا مُضيئًا.

[42] جدير بالذكر أن باكا Vaca تعني بقرة باللغة الإسبانية.

[43] أغوا دي ديوس: بلدة كولومبية تقع في المنطقة الوسطى من البلاد.

الرسالة التاسعة عشرة

إلى خيرمان أرسينييغاس،

ذات يوم، في موعد الراحة، قالت لنا الراهبة التي تعتني بالحديقة إنها قد رأت عشَّ طائر صغير فوق القزمة صبيحة ذلك اليوم: والقزمة هو الاسم الذي لقَّبنا به الشجرةَ الأقل ارتفاعًا والأكثر كثافةً في الحديقة بأسرها. وبيدها أشارت إلى موضع ذلك العش الذي رأته من فوق السُلَّم، حيث استقرَّت أربع بيضات صغيرة. لم أكُن قد رأيث البيض الصغير قط، ولذا فما إن ذهبَت الراهبة إلى المسكن حتى قلت لصديقاتي إني سوف أتسلَّق الشجرة، فتسلَّقتُ القزمة كالقرود. أردتُ لمس البيض الصغير بيدي، فتشبَّثتُ بالفرع بقوة حتى إني كسرتُه وسقطتُ ليرتطم جسدي ووجهي بالأرض. أما الصدمة الشديدة فقد تلقَّيتُها في معدتي. كانت القزمة محاطة بقليل من الأعشاب والأزهار الصغيرة، إلَّا أنها لم تُجدِ نفعًا ولم توفِّر لي الحماية عند السقوط.

استمرَّ شعوري بالمغص طوال اليوم. ثم أفقتُ في اليوم التالي وقد اشتدَّ عليَّ الألم. ونزلتُ عن الفراش فتملَّكني الرعب إذ رأيت ساقي والملاءات مُضرَّجة بالدم. هرعتُ إلى الراهبة المُمرِّضة باكيةً وقلتُ لها:

- لقد تمزَّقَت معدتي، سقطتُ عن القزمة فتمزَّقَت معدتي، سأموت.

فطلبَت مني الاستلقاء على فراش عتيق وفحصَت جسدي كاملًا بما في ذلك صدري. أما أنا فصمَّمتُ على

أن معدتي هي التي قد تمزَّقَت. وحين فرغَت من لمس جسدي قالت ضاحكةً إنه ليس شيئًا ذا بال، وإنما هو أمر طبيعي يجري للنساء جميعًا. وطلبَت مني العودة في الخامسة لأن لديها من العمل الكثير. ثم أخذَت لفافة من سلَّة ضخمة وطلبَت مني وضعها بين فخذَيَ لامتصاص الدم لأنه سوف يستمرُّ في الخروج.

- ولكن لا تفزعي، فذلك أمر طبيعي يجري للبنات جميعًا.

سقوطي من فوق القزمة وقصَّة الدم وكل ما قيل لي... الحق أنني لم أفهم الأمر برمته، ولا حتى نصف ما أخبرَتني الراهبة من كون ذلك أمرًا طبيعيًا يجري للبنات جميعًا ويستمرُّ مدى الحياة وغير ذلك الكثير. فلم يبدُ لي جليًا سوى شيء واحد، أن ما جرى سوف يتكرَّر كل شهر مدى الحياة، وأن الأطفال يأتون من ذلك الدم، وأني أنا الأخرى قد وُلِدتُ من الدم. تركَتني قصص الدم والأطفال مريضة تمامًا. تملَّكني الإحساس بالمرض حتى إني شعرتُ بالأسى لحالي. لم أجد من أتحدَّث إليه، استحياءً من جانبي، ولم أشعر برغبة في اللعب، ولذا هرعتُ إلى المُصلَّى، وجثوتُ أمام تمثال العذراء المُعينة، أو عذرائنا كما كُنَّا ندعوها. كانت جميلة، باسمة، ورأيتُ وفي عينَيها أنها ترنو إليَّ أيضًا. لم تكُن وحدها، فقد حملَت على ذراعها ابنها الذي كُنَّا ندعوه الطفل يسوع. ساءني قليلًا التفكير بأن ذلك الطفل رائع الجمال قد جاء من دم مريم. نظرتُ إلى عينَيها مباشرةً وبدأتُ

أحكي لها الأمر برمّته، أجل، كل ما أعرفه عن نفسي، وحكيث لها أني أشعر بالتعاسة والوحدة البالغتَين، وقلث إني أودُ منها أن تكون لي صديقةً يسعني البوح لها بكل شيء، كل شيء. تركتُها وقد غمرني شعور بالحبِّ الجارف نحوها، ومن يومها قرَّرث أن أقضي معها كل أوقات الراحة التي يُسمَح لي بها. حكيث لها كل شيء عن نفسي، كل شيء. لم يبقَ شيء إلَّا وحكيثه لها، فبدأث أحكي القصص التي أعرفها عن صديقاتي أيضًا، فرغث منها فبدأث أبتكر قصصًا طريفة لتسليتها، فالمسكينة تقضي معظم النهار والليل وحيدةً مع ابنها الصغير.

مرَّت على صداقتنا أيام، أيام كثيرة، وأنا ما زلث حزينةً أشعر بالأسى لحالي، إذ لم أتمكَّن من الضحك والابتهاج واللعب في أوقات الراحة كسابق عهدي. لم يعُد لديَّ ما أحكيه لها، فقرَّرث طلب مساعدتها، فأنا أريد أشياء كثيرة، أريد منها أن تجعلني كبيرة، أريد أن أصبح كبيرة مثل بعض البنات الأخريات، كما طلبث منها أن تصلح عينَيَ، لأن البنات جميعًا يدعونني حولاء ويقلدنني بعيونهنَ ثم يضحكن جميعًا، أما أنا فأبكي ويفتر حبي لهنَ. وقلث لمريم (التي ما عدثُ أدعوها سيدتنا ولا العذراء، بل صارت بيني وبينها ألفة تسمح لي بدعوتها مريم)... قلث لها إني أريد شعرًا مُجعَّدًا، لأن شعري الناعم لا يروقني ولا يمكن تصفيفه بشكل جميل. كما طلبث منها موهبة الغناء... إلَّا أنها لم تهبني شيئًا

مما طلبتْ يومًا، ونظرًا لعجزها عن الكلام، فلقد بدأتُ أتخلّى عنها وعدتُ إلى اللعب مع صديقاتي.

كنتُ قد نسيتُ: يومَ زرتُها للمرة الأخيرة قلتُ لها إني أودُّ التعرُّف على جميع الحيوانات. إذ قالت الراهبات إن العالَم حافل بالكثير والكثير من الحيوانات الكبيرة جدًا جدًا، بحجم الشجرة القزمة.

في صغري تعرَّفتُ على شتًّى الحيوانات الكبيرة خلال أسفارنا مع السيدة ماريا: الأبقار والثيران والخيول والحمير والخنازير وحيوانات أخرى تُدعَى الكلاب. أما هنا، في الدير، فلم تكُن لدينا سوى حيوانات صغيرة جدًا. قط حزين، وديك خبيث، ودجاجتان غبيتان، ولكن أخشى ما كنًّا نخشاه هي الفئران، تلك التي كانت صغيرة الحجم. وكان لدينا الكثير والكثير من القمل والبراغيث أيضًا، غير أننا لم نكُن نراها في جماعات قط، بل فرادى على الدوام...

الرسالة العشرون

عرفَت الراهبات وباقي البنات أني ومريم قد غدونا صديقتَين، وعرفن أني كنتُ أحبُّها حبًا جارفًا. أعتقد بأن الراهبات هن اللائي أخبرن الأم رئيسة الدير بذلك.

وجدتُها في انتظاري وأنا خارجة من المُصلَّى، تطلب مني مرافقتها إلى مكتبها. حدَّثتني حديثًا جميلًا مُطوَّلًا عن مريم المُعينة وعن الرَّب، وقالت إنها تريد مني أن أكون مساعدةً للأخت تيوفيليتا، حارسة حجرة المُقدَّسات والمسؤولة عن المُصلَّى، حتى أتقرَّب أكثر إلى الرَّب ومريم المُعينة.

فشعرتُ أول ما شعرتُ بالخوف. لم أدرِ إن كانت تريد معاقبتي. ولكني حين رأيتُها تناولني قطعة حلوى من صندوق على طاولتها، أدركتُ أنها تكلِّفني بتلك المهمة بدافع المحبة. كان ذلك العمل يستغرق وقتًا طويلًا، ويستمرُّ حتى ساعة مُتأخِّرة من ساعات الليل أحيانًا. قالت إني لن أعود مُضطرَّةً للالتزام بقواعد الدير شأن البنات الأخريات، وأخبرَتني بالالتزامات الواجب أداؤها. بمُجرَّد سماع تلك الكلمة شعرتُ بأن مريم تمدّ لي يد العون حقًّا هذه المرة.

في الخامسة استدعَتني الأخت تيوفيليتا، الراهبة حارسة حجرة المُقدَّسات. فأطلعَتني أول ما أطلعَتني على الأزهار التي في حجرة المُقدَّسات، لم أكُن قد رأيتُ أزهارًا على هذا القدر من الجمال قط، فتلك المتناثرة أسفل الشجرة القزمة كانت ضئيلة قبيحة لا عطر لها،

بخلاف الأزهار الكبيرة. أطلعَتني عليها واحدة تلو الأخرى، وأخبرَتني بأسمائها. فللأزهار أسماء مثلنا، ولكل منها ثوب مختلف، رائع الجمال، ولكل ثوب لون مختلف، يمسُ الواحد بشرتها فيجد لكلٍّ منها ملمسًا مختلفًا، ولكنها علَّمَتني التعامل معها بكثير من الرفق والحذر لئلَّا تتمزَّق. ولبعض الأزهار عطور ذكية، أما البعض الآخر فلا تفوح منه سوى رائحة الحقل.

كانت المهمات كثيرة جدًا: مسح أرضيات المُصلَّى وحجرة المُقدَّسات والحجرة الصغيرة التي يدخل منها الكاهن لرفع القدَّاس. كما تعيَّن عليَّ تغيير مياه المزهريات يوميًا، الأمر الذي لم يرُق لي على الإطلاق. لا أدري إن كانت تلك الأزهار تتبرَّز وتتبوَّل، لأن رائحة المياه كانت مُنفِّرة، ما يضطرَني إلى غسل سيقان تلك الأزهار أيضًا. وبطبيعة الحال، كانت الأخت تيوفيليتا تساعدني على رفع وإنزال المزهريات بالغة الضخامة. أما في الأعياد الكبرى فكان الوضع فظيعًا، إذ كنَّا نضاعف عدد المزهريات والقناديل. كانت تلك المُستخدَمة في الأيام العادية من النحاس، أما قناديل الأعياد فمن الفضَة، وكنتُ أنا المُكلَّفة بتنظيفها وتلميعها وحفظها في الخزائن. أما الشيء الذي استغرقتْ وقتًا طويلًا جدًا كي أتعلَّمه، فهو أسماء جميع الثياب والأردية والأقمصة الطويلة المُطرَّزة، والكثير من الأنسجة التي يلفُ بها الكاهن عنقه ويضعها على خصره وذراعَيه قبل رفع القدَّاس...

في تلك الأعياد كنتُ آوي إلى فراشي عند منتصف الليل أحيانًا، فأستلقي على الفراش بثيابي من فرط الإعياء. ذات مرة رأتني الراهبة التي تعتني بنا في المهجع، فعاقبتني وأرغمَتني على الركوع وحدي تمامًا على مدى ثلاثة أيام في منتصف المُصلًى حتى يرى الكاهن والأخريات أني شريرة عاصية. والحق أني لم أفعلها أكثر من ثلاث مرات، الأمر الذي لم يرُق للأم رئيسة الدير طبعًا، ولكنها كانت تسامحني في كل مرة، وتتوعَّدني بأن تنحِّيني عن تلك المهمة في المرة القادمة لأني لا أستحقُّ الوقوف أمام الرَّب ومريم كل يوم. في تلك الحقبة لم أكُن أتقن القراءة والكتابة، فعلَّمَتني الأخت تيوفيليتا العزيزة الغالية قراءة أسماء الألوان على الورق الذي كانت تُعِدَه من أجلي كي أعرف لون الرداء الواجب تحضيره من أجل الكاهن، وأعرف إن كان من اللازم وضع المفارش على المذبح وفي مكان تناول القربان.

في الحجرة الصغيرة التي يدخل منها الكاهن لرفع القدَّاس، كنتُ والأخت تيوفيليتا نحتفظ بمقعدَيْن وكرسيَّين للسجود. كنَّا نشاهد القدَّاس من باب جانبي، وفي ساعة المناولة ندخل إلى المُصلًى. بعد ذلك كنتُ أتحدَّث إلى الرَّب ومريم قليلًا ثم أهرول خارجةً إلى المطبخ وأنا أحمل المبخرة التي أرقِّصها في الهواء بينما أقطع الباحات الأربع الهائلة، وحدي تمامًا، والحق أني في تلك اللحظات كنت أشعر بفرح جارف يغمرني إلى

حدٍّ يجعلني أمضي قفزًا. أما السوداء العجوز التي كنتُ أحبّها كثيرًا، كثيرًا، وأقبّلها، تلك المدعوة بوليتا، فكانت هي الطاهية التي تضرم جمر المبخرة من أجلي. قالت لي الأخت تيوفيليتا إن بوليتا، وفق ما ترى، لم يكُن اسم الطاهية الحقيقي، وإنما هو لقب أطلِق عليها لأنها بدينة، تقضي يومها كاملًا في الغناء فيرتجف صوتها وصدرها بالغ الضخامة[(44)]. أما أنا فرأيت أنها قد وُلِدَت كي نحبَّها وكأنها أمٌّ لنا. وكانت في الدير عجوزٌ لاذعة كالليمون، هي التي تُعِدَ الخبز. كانت توصد المخبز بالقفل وتأوي إلى حجرتها، فنسرق الخبز من فتحة تهوية الخبز التي في إحدى النوافذ، وذلك باستخدام مكنسة نربط في طرفها شوكة. وبعد القدّاس كنتُ أهرول مرة أخرى إلى المطبخ كي أحمل الفطور إلى الكاهن على صينية ثقيلة جدًّا، إلى حدٍّ يكاد يجعلني أكتم أنفاسي لئلًّا تسقط من بين يدي... كان الفطور شهيًّا، شهيًّا جدًّا، إلى حدٍّ يجري له لعابي من فرط الرغبة في الجلوس والتهامه عن آخره: بيض مخفوق، وشوكولاتة، وعصير فواكه، وشتَّى صنوف الخبز والكعك الذي تخبزه الراهبات ويحتفظن به في علب مُغطَّاة من الصفيح. أحيانًا كان الكاهن يعطيني قطعة أو اثنتين من ذلك الكعك فأسارع بالتهامها تحت الدَرَج لئلًّا يراني أحد.

---

(44) جدير بالذكر أن بوليتا bolita هي تصغير كلمة بولا bola التي تعني كرة باللغة الإسبانية.

الرسالة الحادية والعشرون

إلى خيرمان أرسينييغاس،

كانت مفاتيح البوابة الكبيرة، الكبيرة، المفضية إلى العالَم، في حوزة الراهبة العجوز دومًا، تلك التي كُنَّا نسمِّيها الأخت الحارسة. ولكنها في أثناء القدَّاس كانت تترك المفاتيح للأخت تيوفيليتا التي تظلَّ خارج المُصلَّى، أقرب إلى البوابة، ما يسمح لها بفتح الباب لبائع الحليب، الوحيد الذي يحضر في تلك الساعة. كانت تترك المفاتيح خلفها، على المقعد الذي لا تكاد تجلس عليه قط. كانت تدفن وجهها بين راحتَيها، فتصلِّي وتصلِّي طوال الوقت.

كان بائع الحليب يُلقَّب بالأعور. قالت لي الأخت تيوفيليتا إنهن أطلقن عليه ذلك اللقب لأن له عينًا مغمضة على الدوام. سألتها لماذا لا تفيق تلك العين، فقالت إنها قد وُلِدَت نائمة. كان الأعور يسلِّمها الحليب عَبْر الصوان الدوَّار[45]، فيقول لها في كل مرة:

- قداسة الأخت، الحليب دافئ وكأنه قد خرج من بطن البقرة لتوِّه.

ذات يوم حكيتُ للأخت أني قد تعرَّفتُ على بقرة في غواتيكيه وأنا صغيرة جدًا، في العالَم. فقالت إنها لم ترَ بقرة إلَّا في مغارة ميلاد الطفل يسوع[46]، ابن مريم.

أما الباب الذي كان يدخل الأعور من خلاله، الباب المفضي إلى العالَم، فكان غليظًا، غليظًا، وثقيلًا للغاية، على حد قول الأخت الحارسة، ويطلُّ على رواق يفضي

بدوره إلى الدير الحقيقي. كان هنالك باب آخر، من الخشب أيضًا، يتوسَّطه صوان دوَّار، ومن خلال ذلك الصوان كان يصلنا جميع ما نتناوله من طعام، بما في ذلك الحليب. كنتُ أذهب إلى المطبخ بالمبخرة كي تضرمها بوليتا من أجلي، أو لإحضار صينية الفطور من أجل الكاهن، فيتعيَّن عليَّ المرور بالباب ذي الصوان الدوَّار المُخصَّص لتسليم الطعام. يومذاك سمعتُ ما يشبه طرقًا خافتًا آتيًا من الجانب الآخر. فاقتربتُ وأنا أكاد أحتضر من فرط الخوف وسألتُ من الطارق. فلم يُجِب أحد، وإن بدأ الصوان يدور ببطء شديد، رغم خلوِّه من الطعام. ناديتُ مُجدَّدًا وسألتُ من الطارق، فجاءني صوت قائلًا:

- الحليب.

فقلتُ:

- لقد تسلَّمنا الحليب.

- أنا الذي أحضرتُ الحليب. لو أردتِ رؤيتي من العيادة، فقد صنعتُ فتحةً صغيرة هناك خلف الأستار. اذهبي إلى هناك تريني.

كان قد قشَّر الطلاء الأبيض عن رقعة في زجاج النافذة من الخارج. والحق أن الأعور كان يخيفني، ولكن رغبتي في رؤيته كانت أقوى، فأجبته من وراء الصوان الدوَّار بأني ذاهبة لرؤيته، وطلبتُ منه أن ينتظرني هناك. ما كدتُ أرفع الستار حتى رأيت الفتحة، كانت في الجزء السفلي، على مقربة من الركن. فنظرتُ

عَبر الفتحة الصغيرة لأرى عينه. أجل: كُنّا هناك، عينًا لعين، استهوَتني عينه كثيرًا، كانت جميلة، سوداء، مستديرة، لامعة جدًا، بياضها أنصع من بياض العيون التي في الدير. كما أعجِبتُ بشيء آخر في عينه، بقدرتها على الضحك، أجل، كانت تضحك طوال الوقت.

على مدى أيام طوال ظللتُ أرنو إلى عينَيَ في مرآة حجرة المُقدَّسات، فلم أتمكَّن من الضحك بعينَيَ مثلما كان يفعل قط.

غابت عينه عني، فرأيتُ الجدار المقابل، وتناهى إلى سمعي وقع خطواته، ظللتُ أترقَّب حينًا، غير أنه لم يعُد يومذاك، وما كان يُحضِر الحليب يوم الأحد أيضًا، ولكني سمعتُه يوم الإثنين وهو ينقر الباب ويُدير الصوان ببطء شديد مرة أخرى، وعاود طلبه بأن أذهب لرؤيته عَبر الفتحة الصغيرة. بات ينتظرني كل يوم، فتبتهج عيني وعينه بالتلاقي كثيرًا إلى حدٍّ يبعث الأسى في نفسَينا عند فراقهما. ذات يوم قال لي:

- أنا حبيبك.

وهي الكلمة التي كرَّرها عليَّ مرارًا. حبيب. ما كدتُ أرى الأخت تيوفيليتا حتى سألتها ما معنى حبيب. فضحكَت وسألتني من علَّمني تلك الكلمة. قلتُ لها:

- لا أعرف، سمعتُها ذات مرة وتذكَّرتُها الآن.

رأيتُ على وجهها أنها لم تصدِّقني، لا أدري كيف تذكَّرتُ أن الآنسة كارميليتا، البدينة، البدينة، التي كانت تعيش في باحة الورود، حكَت لنا أن حبيبها قد هجرها

لأن وزنها قد زاد. ضحكَت مرة أخرى وربَّتَت على وجنتي.

مرَّ علينا وقتٌ طويل وعينه تلتقي بعيني، وذات يوم قلتُ له من وراء الصوان الدوَّار إني أودُّ رؤية عينه النائمة. فاختفَت عينه فورًا ومن ذلك الحين لم يعُد يُريني عينه أو يناديني قط.

أمضيتُ زمنًا طويلًا وأنا أفكِّر في الأعور طوال اليوم، وأفكِّر في عينه أيضًا، تلك التي غدَت صديقة لعيني. ذات يوم لم أعُد أفكِّر فيه ولا في عينه، بل رحتُ أفكِّر في العالَم. كانت ذكرياتي عن العالم وأنا صغيرة جدًا مع السيدة ماريا قد بدأت تتلاشى أيضًا، وخطر لي غير مرة أن أطلب من مريم المساعدة والشفاء من ذلك الداء الذي أُصِبتُ به، داء التفكير في الأعور أو في عينه أو في العالَم طوال الوقت. حتى إنني رفعتُ إليها صلاة تساعية[47] بإخلاص غامر.

---

[45] الصوان الدوَّار: صوان يكون في أبواب أديرة الراهبات الكاثوليك أحيانًا، حيث يوضع الغرض المُراد تسليمه على أحد جانبَي الصوان ثم يُدار لتسليم الغرض إلى الجانب الآخر، وبذلك لا يقع بصر الطارق على الراهبات ولا يقع بصر الراهبات على الطارق.

[46] من تقاليد أعياد الميلاد في المسيحية إعادة تمثيل المغارة حيث وُلِد الطفل يسوع، بما فيها مذود البقر، وذلك باستخدام تماثيل صغيرة تجسِّد العائلة المُقدَّسة وملوك المجوس والحيوانات التي كانت في

المغارة.

(47) الصلاة التساعية: طبقًا للطقوس الكاثوليكية في بعض البلدان، فهي صلاة يتلو المؤمن جزءًا منها كل يوم على مدار تسعة أيام.

الرسالة الثانية والعشرون

كانت المهمات الصغيرة التي أكلَّف بإنجازها في المُصلَّى كثيرة، فلم تقتصر على تحضير جميع الثياب من أجل الكاهن وحسب، بل كان يتعيَّن عليَّ تحضير القربان وآنية القدَّاس المُؤلَّفة من قارورتَين من الزجاج، واحدة للمياه والأخرى للنبيذ، فيتحوَّل النبيذ إلى دم يسوع المسيح، الذي هو نفسه الطفل ابن مريم، ولكن بعد أن كبر.

قالت لي الأخت تيوفيليتا إني لا أحسن تنظيف الأركان، وفي الأركان القذرة يسكن الشيطان. كان الوقت مُتأخِّرًا، فأوَت الأخت تيوفيليتا إلى الفراش في حين بقيتُ أنا لتنظيف ركن النبيذ الذي لم أكُن قد نظَّفته في حقيقة الأمر. هناك استقرَّ برميل ضخم كان يرسله البابا، ذلك الذي يحرس مفاتيح القديس بطرس في تلك القرية البعيدة، البعيدة. بالطبع كان الخوف يتملَّكني بشدة خشية اللقاء بالشيطان، ولكن الأخت تيوفيليتا قالت لي إنه لا يأخذ سوى من اقترفوا خطيئة مميتة، أما أنا فلم أكُن أعرف ما تلك الخطيئة[48]. ولأني لم أكُن قد اقترفتها، فقد شرعتُ في التنظيف وخلعتُ الغطاء عن زجاجة النبيذ. دسستُ إصبعي وتذوَّقته فلم يرُق لي. بحثتُ عن كأس صغيرة، وشربتُ كأسًا تلو أخرى، فشعرتُ وكأني شخص آخر، وفي خاتمة المطاف استلقيتُ أرضًا وغلبني النوم. كان الكاهن الألماني هو الذي أيقظني، رأيته جاثيًا إلى جواري وبيده

أخذ يبارك جسدي كله بعلامة الصليب، ويبارك نفسه مرات كثيرة هو الآخر. أخذ بكلتا يدَيَ ورفعني برقَّة، ثم دفعني حتى أذهب إلى حجرة المُقدَّسات، ولكنه قال لي وأنا خارجة:

- لا تخبري أحدًا، لا البنات، ولا الراهبات.

يومذاك صنعَت معي مريم أعجوبة. فلا الراهبات ولا البنات أدركن أني لم أنَم في فراشي، واضطررتُ للاعتراف أمام الأب الكاهن لأن الشيطان هو الذي حملني على شرب النبيذ.

أما ذلك النبيذ الذي شربته فكانت الراهبات يحتفظن به في قوارير أخرى جميلة من الزجاج المُلوَّن، قوارير لها أغطية من الزجاج أيضًا، كانت تُغطَّى وتُحفَظ ثم تُقدَّم للزوَّار ممن يُدعَون ذوو الشأن. وكانت تلك هي البقايا التي يتركها الأب باكاوس. هكذا كان يُدعَى، وإن لم تكُن الراهبات ينطقن اسمه مثلما نفعل، وإنما بطريقة تشقُّ علينا كثيرًا. ولكني لم أحكِ لكم بعد: كان ذلك الكاهن عجوزًا، شبه أقرع، قذرًا، شديد القذارة، يرتدي رداء أسود، وإن كانت تلك درجة من السواد لم أعرفها من قبل، رداء باليًا إلى حدّ جعله ينسَل وتتهدَّل خيوطه من الحاشية والأردان، لم يبدّله الكاهن منذ الصغر، إذ كان يبدو عليه قصيرًا، ويُظهِر ساقَيه المشعرتَين لأنه ما كان يرتدي جوارب. فضلًا عن ذلك، كان حذاؤه مُفكَّكًا تمامًا حتى بدا وكأنه يضحك. قالت لنا رئيسة الدير إنه يرتدي تلك الثياب لأنه قدّيس، قدّيس بحق.

وحكَت لي الأخت تيوفيليتا أن ذلك النبيذ يصله من بيت البابا، الذي يسكن بعيدًا، بعيدًا جدًا، ونرسل إليه تلك الهدايا التي تصنعها البنات جميعًا في ما بينهن بمناسبة عيد القديس بطرس، لأن البابوات جميعًا يُدعَون بطرس، لأنهم كالأخت الحارسة، يحتفظون بمفاتيح الكنيسة كل يوم، ولذا كان الكاهن يشرب النبيذ الذي يرسله ذلك البابا، ذلك الكاهن الآتي من قرية ألمانيا، والذي يُدعَى باكاوس، كما قلت لكم. ولأنه قديس، فما كان يشرب إلَّا ثلاث قطرات من النبيذ، ويترك البقية، فتحتفظ بها الراهبات في قوارير أخرى مصنوعة من الزجاج أيضًا كما قلت لكم، وإن كانت مُلوَّنة بشتَّى الألوان.

كان الأب باكاوس يلقي علينا عظات طويلة للغاية لا نفهم منها شيئًا، ولكن لأنه قديس، بحسب ما قيل لنا، كُنَّا نُضطَرُّ لسماعها حتى وإن غلب النعاس الكثيرات بيننا.

كان ذلك هو اليوم الموافق لعيد دون يوحنا بوسكو، مؤسِّس الرهبنة. ولذا فالراهبات بناته هو. كان يرعى الأطفال المعوزين والكلاب اليتيمة، كما ترعى الراهبات البنات اليتيمات. ومع أن ذلك البوسكو قد مات، فهو ما زال يُدعَى قديسًا.

أما القدَّاس يومها فكان يرفعه كاهنان، مصحوبًا بالترانيم التي تنشدها البنات. استغرقتُ أسبوعًا في إعداد التجهيزات اللازمة لذلك القدَّاس. وحدها مريم

رأت كل ما اضطررتُ لفعله، بما في ذلك غسل الأرضيات كافة ومسح القديسين من الوجه إلى القدمَين، وكذلك المسيح كان لا بد من مسحه كاملًا، غير أني كنتُ أخشاه وأشفق عليه إن نظَّفتُ جروحه، في حين قالت الأخت تيوفيليتا إن الوسخ ينتشر بصورة أكبر داخل الجروح. لا أعرف سببًا لتركه مُعلَّقًا على الصليب ما دامت حاله قد ساءت إلى ذلك الحد. كما اضطرِرتُ إلى تلميع القناديل، وتحضير المزيد من المزهريات الكبيرة، وتجهيز الثياب من أجل الكاهنَين، لا ثياب الأيام العادية، وإنما ثيابًا رائعة الجمال، تلمع من كل جانب، وتكثر فيها الزخارف المُذهَّبة، وتزن أثقل من الثياب الأخرى، بل إنها كانت تبلغ من الثقل حدًا يجعلها تسقط مني قبل أن أتمكَّن من تعليقها. كان استخدام كل تلك الثياب الجميلة مقتصرًا على الأعياد وحسب. وكان الكاهنان يضعان أردية أخرى ساعة منح البركة، فنُضطرَ لمساعدتهما على ارتدائها. ولكني لم أكُن طويلة بما يسمح لي بذلك. في أيام الأعياد كُنَّا نقدِّم أغلى ما لدينا، أجمل كؤوس المناولة، وأجمل آنية القدَّاس، فيبدو المُصلَّى وكأنه غير المُصلَّى.

على مدى شهر كانت البنات المُرنِّمات يلتقين بالأم رئيسة الدير كل مساء، حيث تعزف هي الأرغن عزفًا رائع الجمال، رائع الجمال، إلى حدٍّ يبعث الحزن في نفسي. ولكن رئيسة الدير كانت تطلب منهن أن يكرِّرن الترنيمة نفسها مرة تلو أخرى، وأحيانًا فقرة واحدة من

الترنيمة، وتستشيط غضبًا وتصرخ فيهن وتنعت أصواتهن بالنشاز. نسيتُ سؤال الأخت تيوفيليتا عما تعنيه نشاز. يومها كان الجميع يسرع الخطى، بنات وراهبات، وكأنهن في عجلة من أمرهنّ. أما الأخت تيوفيليتا العزيزة الغالية فقد عثرَت على مئزر جديد تمامًا وأهدَتني إياه، فمئزري القديم قد بليَ وبدا قصيرًا عليَّ، بل وبدأ يضغط على صدري بشدة. حان وقت المناولة فقمنا في آن واحد، ورأيتُ الأخريات أكثر بهجة. رحتُ أنظر إلى المفاتيح التي كانت الأخت تيوفيليتا تتركها على المقعد، تلمَّستُها برقَّة لئلَّا تُحدِث رنينًا، ولكني ما كدتُ أمسَها حتى ارتجف جسدي من فرط البرودة التي سرَت إليه، وإذا هي تلتفت إليَّ وتقول:

- اذهبي وأحضري المبخرة.

فهرولتُ وأنا في غاية السعادة لأني لم أسرق المفاتيح.

وبعد القدَّاس الذي رفعه الكاهنان معًا، أرسِل إلينا كاهن آخر لأن قديس ألمانيا كان مريضًا. أما الكاهن الجديد فكان في مقتبل العمر، وأخذَت البنات والراهبات يقلن جميعًا إنه وسيم جدًا، فكنتُ أسمع كلمة «وسيم»، «وسيم»، على مدار اليوم. قيل لي إنها تعني جميل.

كان الوسيم من قرية تُدعَى إسبانيا. وأولئك السادة القادمون من إسبانيا هم الذين جلبوا إلينا الرَّب ومريم وسائر القديسين الذين في المُصلًى. كان حديثه أوضح

من حديث القديس العجوز. كنتُ أحضر له الفطور فأبادره قائلة: «عمت صباحًا قداسة الأب»، كما علَّمَتني الراهبات أن أفعل كلَّما رأيته، أما هو فلا يجيبني بكلمة واحدة.

كانت الحجرة الصغيرة حيث يتناول الكهنة فطورهم تطلُّ على حديقة الورود حيث تسكن البدينة. كانت حجرة جميلة، يغمرها الضوء الساطع، وفي أحد أركانها استقرَّ تمثال كبير، كبير، يكاد يصل إلى السقف، تمثال قديس يُدعَى كريستوفر. كان ذلك القديس عجوزًا بعض الشيء هو الآخر، وله ابن، وإن لم يكُن يحمله كما تحمل مريم الطفل يسوع، الذي هو ابنه أيضًا[49]. بل كان القديس كريستوفر يحمله على كتفَيه ويسنده بذراعه. كان ذلك القديس يبدو في عجلة من أمره، فهو يمدُّ إحدى ساقَيه وكأنه ماضٍ في سيره، ويمدُّ رأسه إلى الأمام أيضًا. حكَت لي إحدى الراهبات أن ذلك التمثال هناك منذ زمن بعيد لأنه يبلغ من الثقل درجة حالت دون إمكانية الصعود به على الدَّرَج. ما كان ذلك القديس يروقني بقدر الآخرين لأنه يبدو وكأنه في عجلةٍ من أمره دومًا، وليس في وسع الواحد أن يبتهل أو يتحدَّث إلى قديس يستعجل الرحيل إلى هذا الحد.

---

(48) الخطايا المميتة: طبقًا للعقيدة الكاثوليكية فإن الخطايا المميتة سبع: الغرور والجشع والشهوة والحسد والشراهة والغضب والكسل.

(49) طبقًا للتقليد الكَنَسي، فإن يسوع المسيح قد

ظهر للقديس كريستوفر وطلب منه أن يساعده على عبور النهر. ولذا فهو يُعتبَر شفيع المسافرين، كما ورد في موضع سابق. وجرَت العادة على تصوير القديس وهو يحمل الطفل يسوع على كتفَيه، ما يبدو أنه قد أدَّى إلى اختلاط الأمر على إيمًا الصغيرة فظنَّت أن يسوع ابن القديس كريستوفر كما هو ابن العذراء مريم.

الرسالة الثالثة والعشرون

كان الكاهن الوسيم قد بدأ في الحضور إلى الدير منذ أسبوع مضى. لم يرغب في تناول الفطور ذاته. وإنما طلب الشوكولاتة في إبريق كبير رغبةً منه في تناول أكثر من قدح. لم يرغب في الكعكات التي تخبزها الراهبات، تلك التي يحتفظن بها في علب الصفيح الجميلة. وإنما كان يطلب صنفًا من الخبز ثقيلًا ومستديرًا وأكثر سمرة. كان يتناول البيض المخفوق هو الآخر، وإن طلب أن تُعدَ من أجله ثلاث بيضات، لأن بيضتَين أقلَ مما ينبغي. كما أنه طلب شيئًا لم نعرف له كنهًا، شيئًا يُدعَى النقانق، وهي تشبه العصي وتُعَدُ من اللحم المفروم المحشو في كساء يشبه الجلد الذي يكسو أجسادنا. ولأنه ما كان يتحدَث إليَ أو يعطيني الكعك، كنتُ أترك الفطور أمامه على الطاولة وأغادر بانحناءة إجلال كما يجب عليَ بحسب ما قالت بوليتا.

كان يوم سبت، اليوم الذي تعفينا الراهبات خلاله من المهمات، أي إننا لم نكُن نعمل يومذاك لحسابهنَ، وإنما يُسمَح لنا بترقيع ثيابنا وغسلها. كانت الراهبات يضعن في الباحة سلَة كبيرة ملأى بالأسمال كي نأخذ منها ما شئنا لترقيع الثياب المُمزَقة. أما الشيء الذي لم نكُن نرقِّعه قط فهو المئزر المُوحَد، فهو لا بد أن يبدو كالجديد. في الليل كُنَا نخلع ثيابنا لارتداء أقمصة النوم، فنبدأ بطيِّ المئزر على أكمل وجه، وكأننا نملِّسه بالمكواة، ثم نضعه بعناية أسفل المرتبة، فنجده في

اليوم التالي مفرودًا على أكمل وجه، لأن الأسِرَّة كانت مصنوعة من ألواح خشب. أما الثياب التي نضعها أسفل المئزر وثياب النوم فكانت تكثر فيها مواضع الترقيع، وتلك هي المهمة التي كنَّا نؤدِّيها أيام السبت. وبطبيعة الحال، كانت الكبيرات يقدِّمن المساعدة لنا نحن الصغيرات. أما الثياب الداخلية فكانت أسرع ما يبلى، ما يضطرُّنا لطلب المزيد منها مرة تلو أخرى، فنتلقَّى ثيابًا داخلية مستعملة أيضًا، وإن تكُن مُمزَّقة بقدر أقل.

كنتُ أحكي لكم أن السبت هو يوم الفوضى، القول الذي يسري على البنات والراهبات معًا، إذ لم نكُن نلتزم بالقواعد في ذلك اليوم. وصلتُ أحمل الفطور، فوجدتُ الكاهن واقفًا. ساعدني كي أضع الصينية على الطاولة، باسمًا، ودودًا. لا أدري كيف، ولكني فجأةً أحسستُ به يطوِّق خصري بذراعه، ويدفع رأسي إلى الخلف، ويطبع قبلة على فمي، ثم ينزل يدَيه ليعتصر صدري. أجزم أن مريم هي التي ساعدتني، فأنا لا أدري كيف خطر لي ذلك، ولكني ركلتُ ساق الطاولة، وأطحتُ بالفطور كاملًا على الأرض. هوَت الصينية مُحدثةً دويًا بلغ من القوة حدًّا أفزع الكاهن نفسه، فذهب مهرولًا من دون أن يتناول فطوره، ولكنه قبل أن يذهب دفعني دفعةً بالغة الشدة جعلَت رأسي يرتطم بالقديس كريستوفر. كل ما أذكره أني هويتُ أرضًا، ببطء.

حُمِلتُ إلى حجرة صغيرة خاوية، في موضع لا يمرُّ منه أيٌّ من البنات، لأنه يقع في مدخل الدير. أما

الراهبات العزيزات الغاليات فكُنَّ يحضرن لزيارتي ويقلن إنهن يصلين من أجلي. كما جاءت راهبة أخرى لتداوي الكدمة الهائلة التي أُصِبتُ بها. كنتُ أمسُها فأبكي خوفًا. رأت الراهبات أن حالتي بدأت في التحسُّن فأحضرن لي هدايا، وزهرة، وصورة قديس، وقطعًا من الحلوى، بل وأهدينني قميص نوم جديدًا، ولكن الراهبات جميعًا، جميعًا، نهينني عن البوح بأي شيء لرفيقاتي، أي شيء، وحذرنني من البوح وإلَّا وقعت في الخطيئة ونلت جزائي.

- لم تكوني مصابة. بل إنكِ عانيتِ من إسهال استمرَّ طويلًا، إسهال حاد، حاد.

وحين عدتُ إلى حجرة المُقدَّسات، لم تكُن الأخت تيوفيليتا قد بدَّلَت بي بنتًا أخرى، بل إنها حنَت عليَّ كثيرًا لأول مرة، وسُرَّت كثيرًا بعودتي إليها، ولكنها قالت إني لن أحمل الفطور إلى الكاهن بعد الآن، ذلك الذي لم أعُد لرؤيته قط، لأن كاهنًا جديدًا قد أُرسِل إلينا.

مرَّت أيام وأنا ما زلتُ أشعر بأني لستُ على ما يُرام، لستُ على ما يُرام إطلاقًا، وبدأتُ أفكِّر بأن الأمر جادٌّ تلك المرَّة. الدير وحجرة المُقدَّسات والراهبات والكهنة ومريم وابنها... شقيتُ بالأمر برمَّته وشعرتُ بأني ما عدتُ أودُّ رؤية شيء من ذلك. أما رفيقاتي فبدون لي وكأنما قد بهتَت ألوانهنَّ. ولمَّا كنتُ ممنوعة من الحديث إلى أي منهنَّ عما حصل، فقد خطر لي أني ما عدتُ أحبَهنَّ، إذ كُنَّ يرغمنني على التفكير في ما جرى لي مع

أن واحدة منهنَ لم تؤذني في شيء.

عدتُ إلى حجرة المُقدَّسات فقالت لي الأخت تيوفيليتا العزيزة الغالية إن كاهنًا جديدًا قد التحق بالدير، حدَّثَتني عنه طويلًا وقالت إنه قديس بحق. ولأول مرة خطر لي سؤالها عما تعنيه كلمة قديس، فأجابَتني بأنه شخص ما إن يموت حتى يذهب إلى السماء مباشرةً... لم أعرف عن الكاهن الجديد شيئًا، فأنا لم أنظر إليه، وإنما جعلت أرمق المفاتيح التي استقرَّت على مقعد الأخت تيوفيليتا بطرف عيني. طرق بائع الحليب الباب فهرولَت هي لفتحه. ومن دون أن أخبرها بشيء همسَت إليَّ قائلةً:

- لم يعُد الأعور هو الذي يُحضِر الحليب.

حان وقت المناولة فقمنا في آن واحد كما جرَت العادة، ثم عدنا إلى أمكنتنا ودفنَت كلُّ واحدة منا وجهها بين راحتَيها حتى يتسنَّى لها الحديث إلى الرَّب. أما أنا فلم أتحدَّث إلى الرَّب، ولا مريم، وإنما اكتفيت بالتوجُّه إلى القديس كريستوفر وطلبتُ منه أن يحملني على كتفَيه. رفعتُ رأسي، ومددتُ ذراعي خلف الأخت تيوفيليتا، وببطء شديد فتحتُ يدي عن آخرها، ثم التقطتُ المفاتيح، وقبضتُ عليها بقوة لئلَّا يصدر عنها رنين. ثم قلتُ بنبرة تكاد تكون قوية:

- سأذهب وأحضر المبخرة من أجل منح البركة.

أما هي فلم ترَني. كانت تصلِّي. فتحتُ باب الرواق، ثم أوصدتُه مرة أخرى بعد أن عبرت إلى الجانب الآخر.

فتحث الباب الغليظ، الغليظ، وضعث المفتاح في الصوان الدوَّار ثم أدرتُه حتى استقرَ المفتاح في الداخل كي تراه الراهبة لدى مجيئها. خرجتُ ببطء شديد، وقد استحوذ عليَّ الخوف وكأني على وشك السقوط في هوَّة، وما كدتُ أوصد الباب الغليظ، الغليظ، من خلفي، حتى تنشَّقت هواء لا تشوبه رائحة الدير، وهبَّت ريح باردة خِلتُها آتيةً من خلف الباب لتخيفني، ولكن بعد فوات الأوان. كان الشارع طويلًا صاعدًا، وفي نهايته رأيث جزءًا من برج إحدى الكنائس. وقبل المضي قدمًا نحو العالَم أدركتُ أني لم أغد طفلةً منذ أمد بعيد. أما الشارع فقد خلا إلَّا من كلبَين هزيلَين، جعل أحدهما يتشمَّم مؤخِّرة الآخر.

بوردو 1997.

تعريف بالمترجم

مارك جمال: مترجم مصري، عمل مترجمًا لدى سفارة البرازيل بالقاهرة لسنوات قبل أن يتفرَّغ لترجمة الأعمال الأدبية عن الإسبانية والبرتغالية، ومنها «خريف البطريرك» لغابرييل غارسيا ماركيز و«خلية النحل» لكاميلو خوسيه ثيلا و«النسيان» لإكتور آباد فاسيولينسي و«اعترافات شرسة» لميا كوتو و«العرافة» لماشادو دي أسيس، و«كهف الأفكار» لخوسيه كارلوس سوموثا.